دراسات في الفن

عزيز أحمد فهمي

دراسات في الفن

عزيز أحمد فهمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الصدق في الفن

في هذا الكون ظواهر غامضة يحاول الناس أن يتفهموها بعقولهم، فيعرجوا إليها بعكازات من هذه العقول البطيئة المتثاقلة، بينما يقفز بعض الناس إلى حقائق هذه الظواهر الغامضة بإحساسهم لا بعقولهم فيوفقوا إلى قوانينها توفيقاً من حيث لا يتكلفون ولا يتعمدون. ولعل أبرز ما تصدى له هذا الفريق من أهل الحس فبلغوا غايته، ثم لحقهم العلم بعد أجيال فقرر ما أحسوه، هو هذه النفس الإنسانية التي أحسها الكتاب والروائيون منذ آلاف السنين، فعرضوها في قصصهم وساروا بها في مناهجها الصحيحة؛ ثم خلفوها للعلم الذي أخذ يحاول في القرن الماضي فقط أن يتعرفها على أساس يطمئن إليه هذا العقل الشكاك الذي ينكر الحس.

وإذا كان أهل العلم يعرفون الفن بأنه التطبيق العملي للنظريات العلمية التي تحوم حول موضوع واحد، أو التي تدور حول مسألة واحدة، فإنا نرى في تعريفهم هذا ما يعزز الذي نذهب إليه. ذلك أننا نلحظ أن فنون الناس سبقت علومهم، فقد طار الإنسان على بساط الريح في قصص ألف ليلة وليلة قبل أن يركب متن الهواء في الطائرات والمناطيد بألف سنة على الأقل. وقد حول الإنسان الرصاص والنحاس إلى ذهب في خرافات الأقدمين قبل أن تحول المعامل (السلاؤون) الأحمر إلى ذهب في العصر الحديث. وقد استطلع الإنسان الغيب في كرة البلور الهندية ما شاء من الغيب قبل أن تنتهي الدراسة الجديدة إلى (التنويم المغناطيسي) بقرون وقرون. وقد مُسخ الإنسان قردًا عقابًا له على الشر في قصص القدماء قبل أن يعلن داروين نظرية التطور بدهور ودهور.

فكيف اهتدى هؤلاء (المخرفون) القدماء إلى هذه الحقائق التي لم يثبت أنها حقائق إلا بعد أن تغيرت الأرض ومن عليها؟ هل كانوا يطبقون نظريات علمية تدور حول موضوعات متفرقة فدار كل منهم بنظرياته حول موضوع؟ هل يمكن أن يكون هذا قد حدث مع تسليمنا بأن النظريات العلمية لم تتكشف إلا أخيرًا؟

نعم! هذا هو الذي حدث، ولم يحدث شيء غيره، وإنما كل ما كان هو أنهم لم يعرجوا إلى هذه الحقائق بعكازات من عقولهم، وإنما طاروا إليها على أجنحة من إحساسهم. هم أحسوا هذه الحقائق، وبلغوها صادقين، وأعلنوها، وإن كانوا قد عجزوا عن إثباتها لمن لا يريدون أن يفهموا إلا بالعقول!

ومن هذا نرى أن صدق الإحساس يكشف للإنسان ما يستره المستقبل. فهذا الكاتب الذي طير الإنسان على بساط الريح في قصص ألف ليلة وليلة كان يحس أن الإنسان يستطيع أن يطير، هذا إذا لم نقل إنه كان مؤمنًا بأن الإنسان سيطير. وهذا (المخرف) الذي حول الرصاص والنحاس إلى ذهب كان مؤمنًا بأن هذه المعادن التي يشاهدها ليست إلا مظاهر مختلفة لشيء واحد يمكن إذا عدلت المؤثرات التي تؤثر فيه أن تتعدل الأشكال التي يتشكل بها. كان مؤمنًا بهذا وإن لم يكن يعرف أن المادة ذرات، وأن الذرات كهارب، وأن الكهارب إلكترونات إلى آخر هذه الزحمة التي تشغل عقول العلماء. وهذا الهندي الذي اختلق في قصصه كرة من البلور ينظر فيها الإنسان فيعلم الغيب كان يحس أن في الإنسان هذه القوة التي تمكنه من الوقوف على ما يغيب عنه وهو في حالته العادية، ولم يكن يدري أن الإنسان سينوم أخاه تنويمًا مغناطيسيًا فيسأله عن بعض المحجوب عن عقله، وأنه يستطيع أيضًا أن ينوم نفسه ليصل إلى ما يريد. وهذا (المخرف) الآخر الذي رد

الناس في خرافاته قردة كان يحس أن هناك عقدًا تنتظم فيه الخلائق متتابعة متسلسلة من حلقة إلى حلقة كل حلقة أرقى من أختها وأشد تعقيدًا. وإن لم يكن قد قرأ كتب داروين.

كل هذه حقائق اهتدى إليها الكتاب بإحساسهم لا بعقولهم فنحن نعلم أن العقل لا يطمئن إلا إلى ما يثبت ثبوتًا صريحًا للعين والأذن والأنف وبقة الحواس المادية.

فإذا سايرنا أهل العلم وقلنا إن عمل العقل هو جمع هذه المدركات الحسية والنفاذ بها بعد توليفها إلى الحقائق الصحيحة، رأينا أهل الفن والحس المرهف أسبق من غيرهم في الوصول إلى هذه الحقائق الصحيحة؛ فنفوسهم تدرك من المحسوسات والمعنويات ما هو قابل لأن ينتظم في سلك واحد بأسرع مما تدرك النفوس المتعقلة المتشككة هذه الدركات نفسها. ولعل هذا هو ما يسميه المتصوفون (العلم اللدني) أي الذي يأتي من لدن الله فيهدي الإنسان إلى الصواب.

أما المتصوفون فيقولون إنهم يستطيعون أن يفسروا علمهم هذا، وأما أهل الفنون فهم غالبًا يحتاجون إلى نقاد يصفون فنونهم ويفصلون ما فيها من الحق والبلاغة والجمال، فالفنان إذا أضيف إليه ناقده وشارحه كان مجموعهما إنسانًا متصوفًا يهتدي إلى الحق بإحساس الفنان، ويضيء السبيل إلى الحق بدراسة الناقد وشرحه.

وقد أشعر بعد هذا التفصيل أن هذه المسألة قد وضحت بحيث أستطيع أن أتركها مطمئنًا إلى ناحية أخرى من نواحي الصدق في الفن، فليس كل الصدق الفني متصلًا بالمستقبل، بل إن هذا الصدق المتصل بالمستقبل هو أندر ما يطالعنا به الفن من الصدق، وإنما يتجلى الصدق في الفنون جميعًا إذ تتصدى للحاضر. فهذا الرسام الذي يسجل الخصائص النفسية للشخص الذي يرسمه حين لا يخط بريشته على

الورق إلا خطوطًا رآها في وجه الشخص المرسوم فأحس أنها تخفي هذه المعاني التي يعبر عنها بهذه الخطوط... وقد يكون عقله في هذا الطواف كله نائمًا لا يدرك الصلة بين الخطوط التي يراها على الوجه والتجاعيد الصاعدة والهابطة فيه، وبين هذه الأحاسيس التي يحسها من يرى الرسم وبين هذه الخطوط التي قيدها على القرطاس... هذا الرسام من غير شك صادق الحس، صادق التعبير. وهو موفق في فنه ما دام صادقًا في إحساسه صادقًا في تعبيره، فإذا التوى على نفسه وحاول أن يدرس عقله في فنه لم يصب من هذا الدرس غير التعقيد يشوب الفن، والبعد ينحرف به عن الحق.

وهكذا الصدق في الفنون جميعًا -كما رأينا في الأدب والرسم -فهو دائمًا عمدتها في الإحساس بالحياة كما أنه عمدتها في التعبير، وبمقدار ما في الفن من صدق يبلغ الفن شأوه الذي تحسده العلوم عليه، فهو الذي يوجه الإنسانية، وهو الذي يحصي لها خيرها ويحصي عليها شرها، هو ضميرها وروحها.

فإذا أراد القارئ أن أضرب له المثل بالموسيقى فنًا يلزمه الصدق أيضًا -فقد تكون صلتها بالصدق متسترة -ذكرته بلحن المارسيليز الذي حرر فرنسا، فهو ليس سوى إحساس صادق بالحرية عربد في أنغام اختلفت في نفوس المستعبدين حب الحرية الصادق فعربدوا كما عربد النغم، وتحرروا كما تحررت روح منشده، وقد كان كل فرنسي منشده وراء مبدعه.

والآن فإني أظن القارئ الكريم قد بدأ يستسيغ هذا الذي عرضته عليه. وكم أحب أن يستعيد القارئ التفكير في هذه المسائل حتى تسري من عقله إلى روحه. ثم كم أحب بعد ذلك أن يبحث القارئ في ذاكرته عمن يعرفهم من الفنانين وأن يبحث بفراسته في أحوالهم،

وأن يرى مدى الصدق في أعمالهم وأقوالهم، وأن يقيس هذا الصدق بما يصيبونه من التوفيق في فنونهم. ولست أريد بالتوفيق النجاح التجاري الذي يؤدي إلى الغنى المادي، وإنما أقصد به الإصابة الفنية التي يعتز بها الإنسان أمام ربه إذ تحسب في حسناته وإن لم تكن صلاة ولا صومًا لأنها أثر من آثار الصدق ومظهر من مظاهره، والصدق في النية، والأعمال بالنيات.

بالمشاهدة والتجربة يتضح أن أبلغ الفنانين فنًا هم أصدقهم فعلًا وقولًا كما أنهم أصدقهم حسًا.

وهذا الصدق كما أنه حس، فإنه خلق، وإذا كان لا بد لنا أن نلجأ إلى أسلوب العلماء لنثبت الحق في قولنا فإننا لا نكره أن نردد ما يقوله العلماء من أن كل خلق ينمو في نفس الإنسان بالتدريب والتمرين، والفنان الأمين على فنه المؤمن به الآمن له يوالي هذا التدريب ليل نهار، سواء فيما هو متعلق بفنه من الأعمال والأقوال وفيما لا علاقة له بالفن: ذلك لأن الفنان يكون دائمًا من المؤمنين بأنفسهم، لأن نفسه ترزقه الحق وتلهمه إياه والحق من الله، ولو لم يدرك بعقله هذا الإيمان وسره. وهو لذلك يطلق روحه حرة صادقة في كل أعماله وأقواله لا يتكلف ولا يتعمل كما يتكلف ويتعمل بقية الناس، ولا يتلون ولا يتشكل في النهار مرات وفي الليل مرات كما يتلونون ويتشكلون، وإنما هو يتشكل ويتلون تبعًا لأحاسيسه الصادقة لا تبعًا لحكمة العقل الكذوب!

وأحسبني لست في حاجة إلى أن أثبت أن الناس كذابون، والناس كما نعرف عقلاء أو هم عقلاء كما يقولون، وهم الذين يتوهمون بعقولهم أن تصرفات الفنانين في حياتهم الخاصة والعامة تصرفات

(شاذة) غير معقولة، وهي في الحق شاذة وغير معقولة عند عقل الخداع والغش، وإن كانت طبيعية ومنطقية أمام حكمة الحق.

والآن ما رأي القارئ في الرجل يوالي الصدق ويواصل التدريب عليه؟ ألا ينمو الصدق في نفسه حتى يملأها؟ وما رأي القارئ في الرجل امتلأ صدقًا؟ أليس هو رجل الجنة؟ وأنه رجل الفن!

المرأة والإبداع الفنـي

قبل أن أقول كلمة في هذا الموضوع أحني الرأس طويلًا بين يدي حواء، فمهما تكن فإنها أمي، والأم لا تنكر إذ قد ينكر الأب، وإنها بعد ذلك أختي، والأخت لا تتنكر إذ قد يتنكر الأخ، وأنها منذ كنت سكني... رحمانك يا رب!

وبعد فإنه يخيل إليّ أني قد استطعت -بعون الله -في حديثي السابق أن أغري القارئ بالتفكير معي في أمر الصدق ولزومه للفن، وإني أرجح أن تفكيره لم يعد يرى بأسًا في أن نجعل ما بين الصدق والفن من الصلة أساسًا للنظر في صلة الفن بالناس. فالصدق لا يقوم بذاته إلا في الوجود المجرد، ولكنه يحتاج إلى من يتجسده في الكون المحسوس كما يحتاج إلى من يعلنه فيه، والإنسان بعض ما يتجسده، وهو وحده الذي يعلنه بهذا الأسلوب المفهوم المعقول. والإنسان كما هو ظاهر رجل وامرأة، فأيهما كان أقرب من الصدق كان أقرب من الفن. وأيهما كان أقرب من الفن كان أقرب من الصدق.

أما الذي يسجله التاريخ القديم والحديث فهو أن عدد الرجال الذين أبدعوا في فنون الحس والعقل على الإطلاق أكثر من عدد النساء اللواتي أبدعن في هذه الفنون. فإذا نحن سايرنا منطق الحساب فإننا سنشهد مجبرين بأن الرجل أقرب إلى الصدق من المرأة.

ولكن الذي تعودناه من مجاملة حواء لا يجيز لنا أن نمسك بهذه الدعوى وأن نتعلق بها وأن نقف عندها متبلطين لا نتزحزح عنها ولا ننجلي، وإنما يأنف الذوق من هذا ويأبى إلا أن نخف عن هذه الدعوى ألي شيء مما يتلوها، فنقول: لعل طبيعة المرأة في الأصل كانت تكاد

تشبه طبيعة الرجل، ولكنها الحياة التي تمردت على الطبيعة بهذه الحضارة هي التي عصفت بالمرأة دون الرجل وللمرأة عندئذ عذرها إلا إذا أنكرت تكوينها، ولها فيه من القوة ما حُرِمه الرجل. كما أن لها فيه من الضعف ما برئ منه الرجل.

قد يتعاشق رجل وامرأة. أما الرجل فيهفو إلى محبوبته، وأما هي فيكون في نفسها أن تطير إليه ولكنها تتمنع، فلا يرى الرجل بدًا من أن يخطو هو الخطوة الأولى. فإذا أحست المرأة إشفاقه من هذه الخطوة وتردده عنها أغرته بها ودفعته إليها وشجعته عليها، ولكنها لا تسمح لنفسها بأن تخطوها لأنها لا تعرف الصلة بينها وبينه إلا على وجه واحد، وهو أن تلقي عليه أعباءها. وهي مع رغبتها هذه تأبى إلا أن تسجل عليه خطوته الأولى، وإن كانت هذه الخطوة بإغرائها وتشجيعها، وهي تفعل هذا كله لتبرر فيما بينه وبينها بهذه الحركات الظاهرة دلالها عليه وتحكمها فيه بعد أن ملكت منه رغبته إليها أولًا، وخطوته إليها ثانيًا. فكأنها التي تفضلت بانقيادها، وكأنما كانت تريد أن تعيش على بعد من الرجل.

صحيح أن من الرجال من يستطيع أن يتماسك أمام المرأة، وأن يمضي معها في صراع المغازلة إلى أقصى ما تريد من فنون المغازلة، ولكن صحيحا أيضًا أن الكثيرين من الرجال لا يلبثون أمام المرأة إلا ريثما ترتجف أرواحهم فإذا هم يتطايرون عبيرًا وشذى، وإذا هم فنون من الأنغام والصور والشعر والحكمة: في هذه الفنون أودعوا اللهفة والشوق، وبها أزينوا وتبرجوا كما يفعل بعض إخوانهم ممن يخادعون المرأة بقوة أبدانهم، وممن ستهوونها بجاههم وأموالهم والرجل صريح في كل ضرب من ضروب الغزل هذه... ولكن المرأة - لا نقل كاذبة -

وإنما نقول متحفظة والتحفظ إبهام ولو ستر وراءه الصدق وما لنا نتجشم الدخول إلى نفس المرأة، وهذه مظاهرها أمامنا واضحة؟!.

أما نرى المرأة تعني بشئون بدنها أكثر من عنايتها بشئون روحها؟ بل إنها إذا صفت روحها سخرت هذا الصفاء لنعمة جسدها، وحسبته في أسباب أناقتها كأنه زي من أزيائها... فكثيرات هن المغنيات والراقصات والممثلات اللواتي يغزلن من فنونهن شباكا يقتنص بها الأغنياء والشبان الوارثين وغيرهم ممن يشترون الجمال بالمال بينما لا يفعل مثل هذا من الرجال الفنانين إلا قلة نادرة شاذة.

ثم أن هذا التجمل الذي تدمنه المرأة لا يخرج عن أنه تكلف وأنه شيء يشبه الكذب، فهذا المسحوق الأبيض الذي تذره المرأة على وجهها لتقول به إن بشرتها بيضاء ناعمة ليس فيه من بياض بشرتها ولا من نعومتها شيء وإنما الأبيض الناعم هو. وهذا الدهان الأحمر الذي (تلطعه) على وجنتيها لتقول به إنها حمراء الخدين ليس فيه من حمرة خديها شيء وإنما الأحمر هو... وهذا الطلاء القرمزي الذي تسفكه على شفتيها لتقول به إنها قرمزية الشفتين ليس فيه من شفتيها شيء وإنما القرمزي هو... وهذا المشد الذي تربط به خصرها لتقول به إنها نحيلة الخصر إذا انفك ارتاح خصرها فإذا هي كما خلقها الله لا كما تقول بمشدها. وهذا (الكعب) العالي الذي تركبه وتمشي به كما يمشي (البهلوان) على الحبل لتقول إنها سمهرية القد تخلعه في وحدتها فإذا الأرض تبلع منها مقدار ما كانت (تتطاول) بكعبها العالي...

والرجل لا يفعل شيئًا من هذا، ولكن المرأة تفعله -ولا نقل إن المرأة به كاذبة -وإنما نقول إنها متأنقة والتأنق تمويه ولو ستر وراءه الصدق.

فهل لا تصلح المرأة للفن إذن وهي غارقة في تحفظها وتأنقها هذين؟ الواقع أن كلا من التحفظ والتأنق يخنق الفن.

أما التحفظ فإنه يخنق الفن لأن الفن دائمًا يبدأ في نفس الفنان، فليس هناك مغن تغني بعواطف الناس قبل أن يتغنى بعواطفه هو، ليس هناك أديب كتب عن الناس قبل أن يكتب عن نفسه، فإذا لم يكن قد كتب عن نفسه فلا بد أن يكون قد فكر فيها قبل أن يفكر في غيرها من النفوس لأنها أقرب النفوس إليه كما أنه أن لابد ينساب منه حين يكتب عن الآخرين ما يدل عليه وما يستطيع القارئ أن يحكم به على ما يحب وما يكره. ولا ريب أن الوصول إلى ما يحبه المرء وما يكرهه لا تتلوه إلا خطوة قصيرة يقف بعدها المستطلع أمام نفس هذا المرء وجهًا لوجه. وليس هناك رسام ينشر في الناس صورة إلا وهو يضمن هذه الصور جميعًا ما ينجذب إليه من الألوان والأشكال؛ فهو يدل بذلك على ذوقه ونواحي الراحة التي تطمئن إليها روحه ما دام يرسم مختارًا غير مجبر.

وهكذا الفنون جميعًا تعلن بصراحة ووضوح عن نفوس أصحابها. زد على ذلك أن الفنون الفذة العبقرية تحتاج إلى جهاد يمارسه -في أغلب الأحيان -أولئك الذين تتملكهم رسالاتهم الفنية فيشعرون أن الإنسانية قد استدارت حولهم فجعلتهم نواة لحلقة جديدة في سلسة الرقي الحسي والفكري الذي ترقاه. وهذا الجهاد وما يصاحبه من ألوان الكفاح وصنوف الحرمان والتعذيب الروحانيين أو البدنيين يستلزمان من الصبر والعزيمة والقوة والمجالدة والإعراض عن مباهج الدنيا ما لا تطيق المرأة الخفيفة الرقيقة أن تحمله.

فهي بين التحفظ الذي أنشأه عندها الضعف، وبين هذا الضعف الجديد إزاء الحالة العبقرية الطارئة في ضعفين يثقل معهما التكليف

بالفن أو يكاد يتعذر، فلا هي قادرة أن تكشف عن روحها فإذا فعلت فإنها عاجزة عن المضي في حياتها وهي روح عادية.

فإذا لحظنا أنه قد شاعت بين النساء أزياء تكشف عما لزمت المرأة تحجيبه عن الأعين دهورًا من الخجل والخفر، وإذا لحظنا إلى جانب هذا أنه لما تذع بين النساء الصراحة حتى اليوم ولما يرج بينهن الصدق، وأنهن ما يزلن يفضلن من يزوق لهن القول ومن يزيف عليهن الحق حتى بعلمهن، إذا لحظنا هذا وذاك أدركنا أن المرأة تعتقد بإيمان كامن في نفسها أن جسمها خير من روحها، وأنها لو أظهرت من جسمها ما أظهرت فأنها لن تصيب الأعين بالقذى، على العكس من روحها التي تدثرها بالغموض والتحفظ خشية أن تحسب عليها خلجات نفسها.

فلماذا تفعل المرأة هذا؟

أفي نفسها شر مرعب مخيف تتقي أن ينفضح؟!

لا أحسب هذا، وقد يكون كل ما في الأمر أن المرأة متحفظة وأنها تحب ألا تعلن إلا ما يسر الرجل، ولما كانت تربط حياتها بحياة رجل واحد إما أن يكون في الغيب فهي لا تدري ما الذي يعجبه وما الذي يغضبه، وهي لهذا تئد النزوع الفني في نفسها حتى لا ينفر منها أحد، وحتى يقبل عليها كل من يريد أن يتعرف بها فعندئذ تريه ما يرضيه هو لا ما يرضيها هي، وإما أن يكون تحت سمعها وبصرها، فهي تسقيه من خمرها ما طاب له لا ما اعتصرته من نفسها.

هذه هي حال المرأة الضعيفة المتحفظة ويشبه هذا حالها في تأنقها واصطناعها الزينة وفنون التجمل فهذا التأنق ينساب من بدنها إلى روحها، والتأنق لا يخلو من التعمل والتكلف، وهما يباعدان ما بينها وبين الفن الصادق الصحيح إذا أحبت أن تدنو من الفن. والأناقة - كما هو معلوم - لها أزياء تتشكل وتتطور على مر الزمن، وهي تخضع في

تشكلها وتطورها للذوق العام الذي تدنيه بين الناس مؤثرات معقدة متعددة يخضع لها المتأنقون خضوعًا لا يرضاه الفنان ولا يستطيع أن يأخذ به لأنه يحب دائمًا ألا يفعل إلا ما يقتنع به هو نفسه وهو يستقي سر إقناعه من نظرته للأشياء ومن تجربته الخاصة ومن مقدار الراحة واللذة اللتين يوفق إليهما... والمثل الذي يردده المتأنقون هو قولهم: (كل ما يعجبك وألبس ما يعجب الناس) بينما الفنان - ما دام قادرًا - لا يأكل إلا ما يعجبه، ولا يلبس إلا ما يعجبه أيضًا جريًا على نهج الحرية والصدق الذي يسلكه في حياته.

فإذا فرضنا أن المرأة استقامت إلى الفن فإنها في أغلب الأحيان لا تفعم نفسها وفاء لهذه الاستقامة، وإنما هي تبعثر من إخلاصها في حقل التأنق مثلما تبعثر في حقل الفن، فهي إذن موزعة الجهد مشتتة الروح، وفنها إذن لا يعدو أن يكون صورة أنيقة لزي من أزياء الفنون الرائجة التي يتحدث الناس بجمالها أو التي أنفقت كثرة من الناس على استحسانها، وهذا هو السبب في أنه لم يكد يحدث أن خطت امرأة خطًا جديدًا في لوحة الفن لا لشيء إلا لأن المرأة متأنقة، والأناقة لها قاعدة تبيح للمتأنق أن يبتلع ما يعجبه، ولكنها لا تبيح له أن يظهر أو أن يتظاهر إلا بما يعجب الناس.

وقد يرد عليّ نصير من أنصار المرأة فيقول إن من النساء الفنانات من لهن أسلوب فني خاص بهن كممثلات السينما المعدودات في الصف الأول بين الممثلات -والسينما اليوم هي المجال الفني الذي تزاحم فيه المرأة الرجل -وقد يضرب لي نصير المرأة هذا المثل بجريتا جاربو التي يعتبرونها ممثلة السينما الأولى في العالم فإن لها من غير جدال أسلوبًا خاصًا بها في تمثيلها، كما أن لكل واحدة من الممثلات المبرزات أسلوبًا خاصًا وإلا ما احتسبت بين الممثلات المبرزات قد يقال هذا، ولكن الرد

عليه قريب. وهو لا يكلفنا أكثر من أن ننفي عن جريتا جاربو تمكنها من الإبداع الفني الذي يسر لها أسلوبها الخاص بها في التمثيل، فنحن إذا راجعنا تاريخها لفتنا فيه ذكر ذلك المخرج السويدي الذي لطفت عنده جريتا فأحبها واستدرجها إليه بسطوته الفنية، ثم فجئ العالم بها ولها هذا الأسلوب الناعس الجديد في التمثيل.

قد تكون جريتا ناعسة في نفسها ولكنها لم تجرؤ على الظهور في زيها النفسي الصادق إلا برعاية رجل وبمعاونته وتشجيعه، ولا ريب أن هذا الظهور قد خدش في نفس جريتا جابو تحفظ الأنوثة وتأنقها؛ ولا ريب أن هذا الخدش هو الذي يحملها دائمًا إلى التهرب من المجتمعات والى حياة العزلة والغموض التي عرف عنها أنها تميل إليها، وأنها تشتريها بالمال الكثير، فهي إذن قد جزعت من الناس عندما ظهرت لهم على حقيقتها لأنها كانت تحب أن تخفي هذه الحقيقة، ولأنها كمن تؤمن بأن التأنق على ما فيه من التكلف خير من الصدق والحق.

ولهذا أيضًا اضطربت حياة جريتا الغرامية، فهي قد أصبحت تعتقد أن الرجال قد وقفوا على حقيقة نفسها، وعلى مسالك عواطفها، فهي لذلك تشك فيمن يتقرب إليها بالهوى وإن أقبلت على واحد منهم فريثما تشعر أنه قد تملك من نفسها عندئذ تفيق ولا ترضى أن تؤمن بأن عاشقها هذا يحبها حبًا صادقًا، وإنما تحسبه كالنساء التمس إلى روحها مدخلًا هو ناحية الضعف في نفسها كل هذه الحيرة، وكل هذا الشك، وكل هذا القلق، لم يعتور النفس جريتا إلا لأنها جزعة نادمة على ما كشفت من نفسها، فهي تسمح للمرحوم جون جلبرت بأن يتقدم نحو روحها حتى يتسلط عليها فتشك فيه وتنتفض من حبه وتهجره، ثم لا تلبث أن تمثل مع رامون نوفارو فتحبه وتحس أنه يحبها، فما تحس هذا حتى تفر منه وتهجره خبل ما بعده خبل... أحدثه في نفس المرأة

الصدق، وكان حق الصدق أن يفيض بها طمأنينة ودعة فهل يمكن أن يقال بعد هذا إلا أن الصدق غريب على طبع المرأة؟!.

وما دمت قد ذكرت جريتا جاربو، وذكرت بها السينما، والسينما -كما قدمت- هي المجال الفني الذي تزاحم فيه المرأة الرجل، فإني أرى نفسي ميالًا إلى الوقوف عند مشاهدة لا ريب أنها تؤيد ما أذهب إليه من تباعد المرأة عن روح الفن الصادقة... تلك هي أنه لم يحدث أن تصدت للإخراج في السينما ولا في المسرح حتى اليوم امرأة. وإن كان ذلك قد حدث فإنه لابد أن يكون قد حدث في حالة واحدة أو حالتين أو -على الأكثر- حالات لا يمكن أن تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة...

والإخراج في التمثيل - كما يحتاج إلى إلمام ميكانيكي بقواعد الفن، فإنه يحتاج إلى أبلغ النفاذ إلى روح الفن ومعانيه ومراميه، وهو لا يقوم إلا بذوق مستقل خاص يتجلى في الطابع الفني الذي يتميز به المخرج؛ هذا زيادة على ما هو لازم للمخرج من صدق الخبرة بالنفوس والحياة، وصدق الحكم على الفن والفنانين، لأنه بهذه الجرأة الصادقة، وبهذا الحكم الصادق وحدهما يستطيع أن يبرز رواية، وأن يوزع الأدوار فيها، وأن يضمن خروجها وهي أقرب ما يكون العرض الفني من الحياة الطبيعية، وأصدق ما يكون من التعبير عما أراده مؤلف الرواية، وأبلغ ما يكون من تصوير عواطفه وأحاسيسه، وأوضح ما يكون من تحديد أفكاره ومراميه...

هذا العمل الفني الجليل المعقد المتشعب لم تجرؤ النساء على الاقتراب منه حتى اليوم، ولا ريب أن الذي يحول بينهن وبينه هو الشيء في طباعهن، فإنهن أنفسهن لا يستطعن أن يدعين أن الرجل -وعلى الخصوص في ميدان السينما الحر الطلق- يعوق سبيلهن أو يحد من مطامحهن.

وأخيرًا... فلعل القارئ قد لفته مثلما لفتني، أن العبقريات من النساء اللواتي شذذن على هذه القاعدة التي رسمناها اليوم فيهن من الرجولة ملامح منها ما هو ظاهر في أبدانهن، ومنها ما هو كامن في أرواحهن، ولست أريد أن أذكر من أعرفهن بالأسماء فقد يكرهن هذا لبقية باقية من الأنوثة في نفوسهن، وإن كنت لا أحب أن أدع حواء قبل أن أعود فأحني الرأس طويلًا بين يديها متوسلًا إليها أن تجرب -إذا استطاعت -الصدق.

الحب والمرأة والفن

جانب كبير جدًا من الفنون يدور حول الحب

ولا عجب في هذا، فالحب عاطفة تشترك في تخليقها عدة غرائز من أقوى الغرائز التي يقوم بها كيان النفس الإنسانية وهي مبعث العواطف. ومن هذه الغرائز التي تخلق الحب في النفس: غريزة حفظ النوع، وغريزة السيطرة، و(غريزة العشرة) وهي أخص وأعنف من غريزة الاجتماع، و(غريزة الوثنية) التي تنزع بالإنسان إلى تجسيد ما يصبو إليه وتحديده والتي تخرج به من إبهام المتجرد إلى وضوح الملموس، وهي غريزة لم تضعف إلا عند الذين يدمن إحساسهم التدريب على الاتجاه نحو معان يحبونها ويدهش لهم العالم ويتساءل: كيف يحبونها؟

وهذه الغرائز التي تخلق عاطفة الحب كل منها قوي عنيف. ونفس الفنان بطبعها أكثر طواعية للتأثر من غيرها لأنها أشد حساسية من غيرها. وإذا كانت نفس الفنان تلبي مسرعة نداء المؤثرات الخارجة عنها فأجدر بها أن تستجيب للهتاف المدوي في جنباتها. فلا غرابة إذن أن يزدهر الحب بين أهل الفن أكثر مما يزدهر بين غيرهم، ولا غرابة بعد ذلك إذا دار جانب كبير جدًا من الفنون جميعًا حول الحب، فليست نفس أخرى أقرب إلى نفس الفنان من نفسه، وليس أحب إليه منها، وليس أجدر منها بالالتفات الذهني والحسي، وليس أشد منها وضوحًا لديه، وليس شيء ابعث منها على التسجيل.

ولكن الذي نلحظه هو أن جانبًا كبيرًا جدًا من فنون الحب يئن بالشكوى من هذا الحب، ويرضخ بالذل له، ويستعطفه متشفعًا إليه بالفن ذاته، كما أننا نرى في هذه الفنون المكلومة كثيرًا مما يشبه

علامات اليأس، وقد نرى منها قليلًا مما يشبه علامات التمرد الذي يعقب اليأس، إذ ينكر بعض الفنانين الحب إنكارًا، وإذ يسخر بعضهم من المرأة سخرية شاذة لا أصل لها في الطبيعة ولا شبيه لها في حياة الحيوان.

وهذا يشهد بان الفنانين فاشلون في حبهم، أو هو يشهد على الأقل بأن كثيرين جدًا من الفنانين يفشلون في حبهم. فما الذي يدعو إلى هذا؟ أهو قصور في رجولة هؤلاء الفنانين؟ أم هو التواء حاد بنفوسهم عن المسلك الطبيعي الصحيح الذي يجب أن يسلكه الذكر مع الأنثى ليقنعها بنفسه؟ أم هو انحراف عن أساليب الأرض إلى أسلوب جديد بعيد تسعى الحياة إلى اصطناعه وستأخذ يومًا ولكن بعد أن يكون هؤلاء الفنانون قد ركلوا الأرض إلى عالم يرتاحون فيه ولا يشقون؟ أم هو هذا كله مزيجًا مركزًا؟

الطبيعة وحدها هي التي تهدينا إلى سر هذه المشكلة. وإذا كانت حياة الإنسان قد تشابكت من نواح، وتحللت من نواح، وعقدت الحضارة أغلب أطرافها وأوساطها بحيث لم يعد من الميسور لكل عين أن تميز الأصيل في أفعال البشر من الدخيل عليها، فإن لنا في حياة الحيوان ما يدلنا بوضوح وجلاء على طريقة التهافت الطبيعية التي تجذب الذكر نحو الأنثى، والتي تجذب الأنثى نحو الذكر. فإذا ما تعلمنا من الحيوان هذه الطريقة عدنا إلى الإنسان الفنان ونظرنا: هل هو يماشي الطبيعة في غرامه أو هو يحيد عنها مترفعًا أو متدليًا أو هائمًا على وجهه يتخبط ذات اليمين وذات الشمال؟

وقبل أن نخطو هذه الخطوة يحب أن نجيب عن سؤالين قد يخيل لبعض الذين يصحبونني في جولتي هذه أنهما يعرقلان المضي في مذهبنا، أو أنهما على الأقل يشوهان هذا المذهب. أما السؤال الأول فناعم خفيف

يقول لنا بصوت خافت رقيق: هبكم رأيتم الفنان قد حاد عن طريق الطبيعة التي تزعمون فلماذا تخصونه بالحساب والعتاب من بين الناس وأكثرهم حائد عن هذا الطريق؟ وإذا كان هو يئن بالشكوى من حبه، فكثيرون غيره يئنون؛ غير أنه يذيع أنته وهم لا يذيعون؟! ونحن نجيب عن هذا السؤال فنقول: إن الفنان هو رائدنا إلى الطبيعة؛ وليس يبرر بعده عنها إلا أن يكون هذا البعد قفزة إلى مرحلة من مراحل الرقي الإنساني يسبق بها البشر ليكون فيهم بشيرًا بما سينتهون إليه بعد حين. وليس مما يريح ضمير الإنسانية أن ترى الفنان وهو هاديها إلى الحق ومواطن الراحة مضطربًا في حياته الخاصة، وفي أعز جانب من حياته الخاصة هذه دون أن تعرف علة هذا الاضطراب لعلها تستطيع أن تنقذه منه.

وأما السؤال الثاني فيصرخ فينا بعنف ويقول: كيف قررتم أن الحب عند الإنسان يشبه الحب عند الحيوان، ولم تروا أنه أرقى وأشرف؟ ونحن نرد هذا السؤال بقولنا: إن الحب لا يمكن إن يخرج على حال من حالتين: فأما نزوع روحاني لا يصحبه النزوع البدني وهذا شيء لا يعوقه عائق، ولا تصده عقبه ولا يمكن أن يشكو فيه شاك من بعد أو حرمان أو لوعة أو صبابة أو هجر أو غدر أو غير ذلك مما يشكوه العشاق، ومما تدور حوله فنون المتبرمين من الفنانين العاشقين، فالروح متى رضيت عن روح لم تعد تعبأ بما يفرق بينهما من بعد المكان، أو بعد الزمان، ولم تعد تهتم باختلاف الجنس بينهما أو توحده إما هذا، وإما أن يصحب هذا النزوع الروحاني نزوع جسدي وفي هذا تظهر الشكوى، ويظهر الأنين، وتظهر فنونهما فلا بد إذن يكون النزوع الجسدي هو الذي يسببهما إذا لم يصب التوفيق، وهذا النزوع البدني موجود عند الحيوان، ولكنه يصيب التوفيق دائمًا، ولا يفشل مطلقًا إلا عند العدوان حين يندس بين الذكر وأنثاه ذكر جديد قوي غلاب، وعلى هذا كان من غير الطبيعي في حياة الإنسان أن يفشل الرجل في

حبه ما لم يصرعه رجل أقوى منه في الناحية التي تعترف بها الأنثى، وتنقاد لها.

هذان هما الحالان اللذان يتشكل بهما الحب في حياة الإنسان على الإطلاق. وأرى من العفة أن أربأ بصورة الحب الإنساني عن الحالة الثالثة التي يتفرد فيها النزوع البدني وحده. لا لأنني أريد أن أمجد الإنسان، ولكن لأني أرى في بعض الحيوان ما يعف عن هذا الحب ويتسامى عليه، ويجمله بالألفة والمعاشرة، والحنان والتعاطف. والمسلم به أن الإنسان أرقى من الحيوان.

وبعد، فأني أحسب أن الطريق قد عبد أمامنا، وأننا نستطيع أن نخطو في خطوتنا الأولى نحو الحب عند الحيوان.

والذي نلحظه هو أن للحيوان غزلًا يشبه الغزل عند الإنسان من حيث إنه دليل الرغبة في إقامة بين الذكر والأنثى، ومن حيث إنه الباب الوحيد الذي يؤدي إلى الحب. والمشاهد أن هذا الغزل يتخذ عند الحيوان عادة شكل الصراع، ومن الحيوان ما يترفق فيه فيكون صراعه كاللعب والمداعبة، ومنه ما يشتد فيه ويقسو فيكون صراعه صراعًا حقيقيًا تتهشم فيه العظام، وتسيل فيه الدماء. وهذا النوع الأخير من الصراع يقيم الدليل المحسوس عند الأنثى على أن الذكر الذي يغازلها قوي غلاب، وعلى أنه يأخذ حقه منها قوة واقتدارًا، وأنه لا تثنيه مقاومتها إياه عن الوصول إلى ما يريده من فرض سلطانه عليها، والأنثى في هذا الصراع العنيف تبذل أقصى قوتها لتحول بين الذكر وبين التسلط عليها، لا لأنها تكره أن يتسلط عليها، ولكن لأنها لا ترضى أن تذل لضعيف قد يعجز عن حمايتها وحماية نسلها إذا اعتدى عليها معتد، هذا إذا كانا من الحيوان الذي يأتلف ذكره بأنثاه، أما إذا لم يكونا من هذا الحيوان فهي تكره أن تستسلم للضعيف خشية أن ينتقل

ضعفه إلى نسلها الذي تحب أن يكون قويًا غير بما ركب في نفسها من غريزة حفظ النوع سليمًا صالحًا.

أما النوع الآخر من الصراع وهو الذي يشبه اللعب والمداعبة فهو أقرب أنواع اللعب والمداعبة إلى المصارعة الإنسانية المصطنعة التي يقيم الناس لها الملاعب في هذا العصر والتي يكتفي فيها الغالب في التدليل على قوته بإظهار تمكنه من تهشيم خصمه دون أن يهشمه وهذا الأسلوب تصطنعه الحيوانات الرقيقة، والحيوانات المستأنسة. ومهما خلا هذا الأسلوب من التحطيم والتهشيم والتجريح، فإنه لا يخلو من معانيها، وإن فيه ما يدل دلالة تامة على احترام القوة والاعتراف بلزوم الغلبة والقهر يقيم عليهما الذكر صلته بأنثاه.

فإذا أضفنا إلى هذا ما نراه من تجميل الطبيعة للذكر دون الأنثى: كالديك ازدان بالعرف دون الدجاجة، والأسد تحلى بالمعرفة دون اللبؤة، والكبش ازدهى بالقرنين دون النعجة، والطاووس تبرج بذيله الملون الطويل دون (الطاووسة)... إذا أضفنا هذا إلى ما تقدم رأينا أن الطبيعة توجه الذكر إلى (مكايدة الأنثى): قهرًا بالقوة، أو اعتزازًا بالجمال، أو قهرًا واعتزازًا بالقوة والجمال معًا. ومن هذا يمكن أن ندرك أن الطبيعة قد وضعت ناموسًا تقوم عليه الصلة بين الذكر والأنثى، وأن هذا الناموس يستلزم أول ما يستلزم أن يذل الذكر أنثاه، وأن يذكرها دائمًا بأنه أقوى منها، أو أنه أقوى وأجمل منها.

والطبيعة توفر في هذه السوق التي يتداول الذكر والأنثى فيها نواحي القوة والضعف، ونواحي الزينة والعطل وبقية تلك الزوائد والنواقص فيهما شرطًا لا بد أن يتوفر في هذه السوق: وهو أن تقتنع الأنثى مؤمنة صادقة مجبرة بفضل الذكر عليها فيما يمتاز به، وإلا فالصلة بينهما زائفة، وهو آخذ منها ما يرضيه ويقنعه، إذ لا يعطيها ما

يرضيها ويقنعها كما يحدث للحيوانات المسجونة التي تتسل نسلًا ضعيفًا اتفقنا في هذا. فلنعرج إذن على الحب عند البشر، ولتكن القبائل التي تعيش على الفطرة أول من نشارف من البشر. وهذه القبائل لا يزال الرجال فيها يمثلون ما يشبه الدور الذي يمثله الذكر الحيوان مع أنثاه فالقوقاز لا يسلمون العروس لعروسها، وإنما يدبر العروس حملة على محلة عروسه فيهجم عليها في جمع من أهله وأصدقائه، ويختطف عروسه من بين أحضان أهلها بالقوة والعنف ليشهدها وليشهد أهلها على أنه قوي جدير بها، وليسجل عليها هذه الشهادة يذلها بها طول عمرها معه إذا حاولت أن تتمرد عليه أو أن تطاوله. وبعض قبائل الزنوج تحتفل بزفاف فتياتها احتفالًا أعجب من احتفال القوقاز وأشد افتخارًا بالقوة والجلد والصبر. وإن لم يكن فيه من الشجاعة والفروسية شيء: ذلك أنهم يتداولون على العروس السعيد بالضرب المبرح الموجع، فقدر ما احتمل الضرب وكتم التوجع عز عند صاحبته وزاد احترامها إياه ورأته حقيقًا بالحب: لها بل عليها أن تفاخر به معجبة راضية... ولا يزال من أهل النوبة المصريين من يفعلون ما يشبه هذا. فالعروس يطلب من صاحبته أن تحضر له جمرة من النار ليشعل بها لفافته، فتحضرها إليه. فيمسك الجمرة بيده، ويضع الجمرة على حجره، تأكل جلده ولحمه ريثما يتأنق في لف التبغ في الورق ليشمل بعد ذلك لفافته ويعيد الجمرة إلى مكانها، وبقدر ما يطول احتراق جسده ويشتد يعز عند صاحبته ويعلو قدره والمرأة القوقازية تحب من يخطفها لأن بيئة القوقاز بيئة رعي ومهاجرة ومحاربة تكثر فيها الغارات، ويكثر فيها الكر والفر ولا يستطيع أن يخطف المرأة فيها إلا البطل. والمرأة الزنجية تحب من يحتمل الضرب الموجع في سبيلها لأن بيئة الزنوج بيئة قاسية تضرب الناس بالحر والبرد والمطر والرياح والمرض والسم، فالأشد صبرًا من غيره في هذه البيئة هو البطل. والمرأة النوبية تحب الذي يحترق في سبيلها بالنار لأن بيئة النوبة يموت

فيها الضعاف من وهج الحر والقيظ وشدتهما. فالذي يحتمل الحرارة عندهم هو البطل هذه بيئات إنسانية قريبة من الطبيعة والرجل فيها لا يزال يلوح للمرأة بقوته، والحياة فيها لا تزال مستقيمة بين الرجل والمرأة.

أما جمال الرجولة الخشن فقد ظل الرجال يحرصون عليه زمانًا طويلًا كانوا يرسلون فيه شواربهم ولحاهم التي زينتهم بها الطبيعة ولكنهم اليوم لم يعودوا يحافظون عليه، واكتفى فريق من أهل المدنية فيهم بممارسة الألعاب الرياضية لتنمية عضلاتهم وتقويتها كما كان يفعل اليونان القدماء في وقت يذكر التاريخ أن المرأة فيه كانت متبرمة بالرجل لأنه اكتسب من رياضته تناسقًا وامتشاقًا انشغل به عن النظر إلى جمال الأنثى ولعل هذه الألعاب الرياضية هي البقية الباقية من معالم الرجولة القوية التي تحتفظ بها الحضارة اليوم، ولكنها شيء إذا كسا البدن رجولة أو ما يشبه الرجولة فإنه لا ينفذ إلى الروح والنفس، ولذلك يستعين الرجل المتحضر اليوم على قهر المرأة بالمال أو الجاه أو النفوذ أو المنصب أو الشهرة أو غير ذلك مما يتنافس فيه الرجال المتحضرون. ونحن إذا أنعمنا النظر في هذه المميزات المدنية كلها رأينا أنها لا تتاح إلا للذين يتكالبون على العمل في سبيل الوصول إليها أو للذين يصيبونها عفوًا بالوراثة أو بالواسطة؛ أما الذين يفوزون بها عن جدارة فأولئك الذين في حسابنا، وهم ينفقون في سبيلها من رجولتهم ما كانت المرأة تحب أن يستبقوه لها فهي لا تستطيع أن تستغني عن حياة المناوشة والمصارعة وهي تكره أن تبيع نفسها بالمال، وإن كانت تبيع نفسها بالمال؛ وهي لا تقنع من الرجل بجاهه وإن كانت ترتمي على أصحاب الجاه؛ وهي لا ترضى بمنصب الرجل وشهرته وإن كانت تتهافت على أصحاب المناصب الكبيرة والمشاهير، فهي تنحرف عن طبيعتها مجاهدة مستعيضة بهذه البهارج عما كانت تتوق إليه من قوة الرجل ورجولته. ولعل حوادث الخيانة الزوجية التي تتعدد وتتكاثر في المدنيات دليل قاطع على أن

الزوجات ساخطات على الأزواج، وأنهن لا يزلن يبحثن عن الرجولة الضائعة في هذه الحضارة.

وإذا كانت المرأة تكره المال والجاه والنفوذ والمناصب العالية وما فيها من أبهة ولا تقبل عليها إلا على سبيل البدل عن مطلبها الطبيعي، وإذا كانت لا تزال تحب أن ترضي طبيعتها بين يدي من يذلها برجولته ومن يتقن فنون المغازلة والمصارعة على ألوانها فماذا هي صانعة عند الفنان أو ماذا هو صانع بها؟

الفنان تسيطر عليه الغرائز التي تسيطر على بقية الناس فهو إنسان مثلهم ولكن هذه الغرائز لا تشتد به -حين تشتد -كما تشتد ببقية الناس، ولا تترفق به -عندما تترفق -كما تترفق ببقية الناس، فهو وإن كان يحب أن يحفظ النوع البشري كما يحب الناس أن يحفظوه فإنه يسعى إلى ما هو أشرف من حفظ النوع وهو ترقية النوع، والفنان يؤدي لهذا النوع بفنه ما يجاهد النوع دهورًا في سبيل الوصول إليه. وهو وإن كان يحب السيطرة كما يحبها بقية الناس فإنه يتمتع من السيطرة بما لا يتمتع به أحد ، ففنه يلوي عنده الأعناق ويخفض بين يديه الرؤوس؛ فإذا لم يوفق إلى هذا في حياته فهو على إيمانه بفنه مؤمن بان البشرية التي غفلت عن تقديره وهو فيها ستنال جزاءها إذ تنصاع يومًا إلى قبره لتطوف بالتقديس حول عظامه ولو بعد أن ينخرها السوس! وإنه ليرى ذلك وهو في ظل العرش. وهو وإن كان يحب العشرة كما يحبها بقية الناس فهو يتأنق في اختيار عشرائه من المعاني والأخيلة والأفكار التي يرصد لها انتباهه وإحساسه ويتعقبها ويتبختر عندها مترنحاً منتشيًا كراهبة ترقص في خلوتها على نغم الذكر عابدة لا فاجرة، خالصة غير مشوبة.

هذه هي الغرائز التي كان حقها أن تشترك في تخليق الحب في نفس الفنان كما تخلقه في نفوس بقية الناس، ولكننا قد رأيناها جميعًا تعدل عن الحب إلى الفن وبقيت بعد ذلك (غريزة الوثنية) التي ذكرتها في بدء هذا الحديث، واحسبني قلت إنها لم تضعف إلا عند الذين يهد من إحساسهم التدريب على الاتجاه نحو معان يحبونها هم، ويدهش لهم العالم ويتساءل: كيف يحبونها؟ ومن يكون هؤلاء غير الفنانين؟

إذن فالفنانون على هذا الأساس لا يحبون! وعلة انصرافهم عن الحب بعيدة كل البعد عن الأسباب التي توقعناها في أول حديثنا، فقد خيل إلينا أن عجزهم عن الحب قد يرجع إلى قصور في رجولتهم، أو التواء حاد بنفوسهم عن مسلك الحب الطبيعي الصحيح، أو انحراف عن أساليب الأرض إلى أسلوبهم الجديد ولكننا رأيناهم في أول حديثنا يحبون. وقد سجلنا عليهم فشلهم في الحب من بعد تسجيلهم إياه على أنفسهم في فنونهم... فهل هم يحبون أو هم لا يحبون؟ ... أحبهم الله!

والواقع أنهم يحبون ولا يحبون. فالفنان إنسان حائر بين حلقتين من حلقات التطور البشري. أولاهما الحلقة التي يعيش فيها، والأخرى الحلقة التي ينتقل إليها بروحه ويستنبطها فنه ثم يعود بعد ذلك إلى ناسه. وهذه الحلقة التي يسرى به إليها ستتحقق يومًا ما في الأرض سواء أكان هذا اليوم قريبًا أم بعيدًا وسيعيشها الناس وكلهم في مستوى ذلك الفنان الذي يبهر جيله وسيكون من بينهم فنانون يبهرونهم بما يستنبطونه من حلقات أخرى لا يسري به إليها غيرهم. وقد ينكر هؤلاء وقد يعترف بهم... أمرهم وأمر الحق إلى الله.

هذا هو مسلك التطور الروحاني للإنسانية فهو (كالداروينية) الجسدية ولكنه أشد غليانًا وإبهامًا والفنان يتذبذبه بين الأرض وسمائه

يتلون بلونين ويتشكل بشكلين: شكل يلائم حياة الأرض بقدر ما تسمح ذمته الفنية أن يتسامح في أمانته، وشكل آخر لا يلائم إلا الذين يستطيعون أن يطيروا معه إلى سمائه ولو أتباعًا مسترشدين به. والفنان السعيد الذي يرضى الله عنه هو الذي يوفق إلى غرام واحدة من بنات السماء. والفنان المنكوب الذي أرجو له الرحمة هو الذي يتعلق به غرام واحدة من بنات الأرض: تثقل به وتعرقله عن قفزاته فإن أشفقت عليه وسمحت له بهجرته إلى السماء كلما شاء لم يجد عندها حين يهبط إليها إلا ما اختص به الله بنات الأرض. فهو شقي معها كشقاء المقعد الذي يلهب طاغية ظهره بالسياط ليجري في سباق مع صبيان خفاف شياطين... وإن كان المثلان متعاكسين وينتبه الفنان إلى علة إخفاقه في حبه، فإما أن يرضي من محبوبته بما طلب له فيها من الجمال الروحي والبدني وإما أن يحاول صقل نفسها وتهذيبها ليجعلها تشبه ما يجب أن تكون عليه، فإذا وفق في هذا فإنه يرضى أغلب الرضى، أما إذا فشل فيه فهو الشاكي المتبرم الساخط على الحب اليائس منه المتخاذل أمامه أو المتمرد عليه وقليلًا جدًا ما يفرغ الفنان من وقته لمصارعة المرأة ومناوشتها لأنه يتعلم من جولاته في السماء أن هذه المصارعة من أساليب العنف التي يصح الاستغناء عنها بإدراك نتائجها فيحاول أن يتشفع إلى المرأة بفنه، وهو على كثرة ما يتدلل بفنه يخضع نفسه ويخضع فنه للمرأة ويسعى إليها في هذا الخضوع خاشعًا متوسلًا مستجديًا عطفها، فإذا به ينقلب أمام المرأة شيئًا آخر أكثر رحمة بها من الرجل، وأشد حنانًا منه، وأكثر بذلًا وعطاء وتضحية في سبيلها ولكنه على أي حال ليس ذلك الرجل الذي تريد أن تراه قويًا، والذي تحب أن يقسو عليها قسوة تصهر أنوثتها وتسيلها. فهذه الرقة وهذه الرحمة وهذا الخنوع وهذه المسالمة التي يقرب بها الفنان من محبوبته كلها من علامات الأنوثة - عندها - لا من علامات الرجولة وهي من مظاهر الضعف - في نظرها

- لا من مظاهر القوة، وهي تبعث في نفس المرأة الاستهانة بها والشك في أمر صاحبها إذ لا تضمن المرأة أن يتخذها الفنان وسيلة من وسائل الاستدراج يسلطها على كل من تعجبه من النساء ما دام الأمر لا يكلفه أكثر من كلمات رقيقة أو ألحان عذبة أو صور جميلة والفنان متى وصل به الحال إلى هذا الموقف كان عليه أن يختار واحد من ثلاث: فإما أن يخصص نفسه لفنه، وإما أن يخصص نفسه لحبه، وإما أن يتذبذب بين الفن والحب وهذا ما يفعله الفنانون الشاكون، فليس يتاح لكل فنان أن يتسامى حتى على الحب فلا يذكره ولا يذكر المرأة إلا كما ذكرها المسيح.

الفن شعور

يأبى بعض علماء النفس إلا أن يسرفوا كل الإسراف في التقيد بالتجارب المادية فلا يرضون أن يقرروا الحقائق النفسية إلا بعد أن يقيسوها ويزنوها بمقاييس وموازين مادية من الأجهزة البارعة التي استحدثوها. ولست أدري كيف غاب عن هؤلاء العلماء الأجلاء أن المادة لا تستطيع أن تقيس وأن تزن إلا المادة وهم -على ما يعترفون بجهلهم المطبق بالنفس ذاتها -لا يجرؤ أحدهم على القول بأنها مادة. فإذا قال قائل: إن هناك طريقًا غير سراديب المعامل وأقبيتها قد تؤدي إلى بعض العلم بالنفس كان من حسن المجاملة التي يجب على علماء النفس اصطناعها أن يسكتوا عنه -إذا تكبروا عن متابعته -كما سكت عنهم وتركهم يقيسون ويزنون بما يستحدثون ويصنعون ما لا يعرفون ولا يعلمون ويقولون مع هذا إنهم علماء، وإنهم ينهجون في علمهم النهج القويم الوحيد.

فإذا أرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم وقالوا إنهم لم يستحدثوا حدثًا، ولم يبتدعوا بدعة وإنهم لم ينهجوا في علم النفس إلا النهج الذي ينهجه العلماء في بقية العلوم، وإنهم لا يطلبون شططًا من الناس ولا يحملونهم فوق ما يطيقون حين يسألونهم الإيمان بعلمهم كما يؤمنون بأمور الكهرباء التي يذيعها علماء الطبيعة فيقبلها الناس ويستغلها المخترعون من غير أن يطالبوا علماء الطبيعة بإدراك كنه الكهرباء... إذا قالوا هذا قلنا لهم: وعلماء الطبيعة مثلكم أيضًا يكتشفون ويخترعون ولكنهم لا يعلمون، وهم إذا جاز لهم أن يقعدوا عن فهم أسرار الطبيعة الصماء وقنعوا باستغلال قواها مستفيدين آكلين شاربين، فإن

لهم عذرهم في هذا ما داموا يرون الطبيعة التي يقيسونها ويزنونها بأجهزتهم شيئًا خارجًا عن أنفسهم بعيدًا عنهم، أما أنتم يا علماء النفس فتستطيعون أن تجولوا في أنفسكم بأنفسكم ولكنكم تزدرون أنفسكم زراية ما بعدها زراية حين تأبون إلا أن تسألوا عنها أجهزتكم، وأجهزتكم وحدها كالمبصر المفتوح العينين الذي يسير في وضح النهار ويأبى إلا أن يتحسس الأرض بعكازة لها وحدها الأمر في خطواته، وهي وحدها التي تأذن له بالتقدم، وتشير عليه بالتريث، وتميد به ذات الشمال وتميل به ذات اليمين.

ولعل واحدًا من علماء النفس الطبيعيين يتواضع ويسألنا عما يمكن أن يسلكه علم النفس من السبل التي قد تصل به إلى العلم الصحيح والتي لا تقف به عند الباب موقف التجسس المريب. هذا ندعوه إلينا، أو نتطفل عليه فنأتمّ به ونرجوه أن يقودنا بعلمه وأجهزته ونحن من ورائه تابعون، ولكن متيقظون سنسأله أول ما نسأله: أين هي النفس؟ فإننا لا نستطيع أن نتجه إلى شيء من غير أن نعرف مكانه وهو عندئذ سيقول: النفس في الإنسان وفي الحيوان.

... فهو رجل طيب متواضع يعترف للحيوان بالنفس بينما غيره من العلماء يجهده هذا الاعتراف، ولا شك أن حظنا السعيد هو الذي هدانا إلى هذا العالم الطيب المتواضع، فعلينا إذن أن نشكره كل الشكر لأنه لم يترفع بجنسه على الحيوان، ثم أن علينا بعد ذلك أن نمضي في البحث عن العلم فنوجه إليه السؤال الجديد.

- أليس هناك فرق بين نفس الإنسان ونفس الحيوان؟

وهنا سيطرق أستاذنا قليلًا ثم يقول:

- إن هناك فرقًا من غير شك. فالإنسان عاقل والحيوان غير عاقل... ونحن نفرح بالحق، فلا نملك إلا أن نعترف لأستاذنا بأن ما يقوله

صحيح، ولكننا ملحون نريد أن نمضي في الطريق ما دمنا نستطيع أن نمضي فيه، فنخطو وراء أستاذنا خطوة جديدة لنقف به أمام سؤال جديد فنقول له:

- إن الطبيعة حين تودع كائنًا ما قوة من القوى فإنها تقصد من هذا أن ينتفع هذا الكائن بهذه القوة، والذي لا شك فيه هو أن الإنسان انتفع في حياته بعقله، ولكننا لا نشك أيضًا في أن هذا العقل يلتوي على الإنسان في كثير من الأحوال فيضره بل إنه يبسط أذاه على الآخرين، كما أنه يحار أحيانًا في تصريف أمور صاحبه فيرتبك ويضطرب ويصيب أحيانًا ويفشل أحيانًا، بينما نرى الحيوان يقضي طول حياته لا يؤذي نفسه، ولا يلحق الضرر بفصيلته، ولا يعجز عن حفظ حياته، ولا يضطرب ولا يرتبك إلا عندما يدهمه ظرف خاص غريب على الطبيعة فلا بد إذن أن يكون في الحيوان شيء آخر غير العقل هو الذي يصونه هذه الصيانة، ويحفظه هذا الحفظ ويقوده إلى السلامة، ولا بد أن يكون هذا الشيء أنفع من العقل... فهل هو موجود عند الإنسان أو مفقود؟ فإذا كان موجودًا فلماذا يغفله الإنسان ولا ينتفع به؟

ويهتز أستاذنا حينئذ طربًا لأنه تمكن من مغمز في كلامنا فهو يأخذ بخناقنا ويقول: إن الإنسان أيضًا لا يرتبك ولا يضطرب ولا يعجز عن صيانة نفسه وحفظها إلا إذا دهمه طارئ غريب على الطبيعة.

فنبتسم نحن في دورنا ونسلم له بهذا جدلًا مع أنه كلام مبتور ولكننا نسأله:

- ما بال الإنسان إذن يكثر من صناعة العجائب والغرائب بعقله، وما باله يتعمد الحيدة عن الطبيعة، وفي هذه الحيدة الأذى والضرر... لا بد أن يكون العقل إذن هو الجنون.

ويزور أستاذنا عن هذه النتيجة فيعبث بلحيته قليلًا ثم يسعل سعلتين، ومع أنه رجل طيب متواضع إلا أنه عالم يعتمد في علمه على العقل، وعلى العقل وحده، فإذا آمن معنا بأن العقل مجنون كان عليه أن يغيب عنا ساعة يمزق فيها كتبه، ويحطم فيها أجهزته ثم يعود ألينا نحن الجهلاء ليجلس إلى جانبنا معتمدًا رأسه بكفه ينتظر الفيض من الكريم... عز على أستاذنا الطيب المتواضع أن يغيب عنا هذه الساعة لأنه فيما يظهر أحبنا ولم يعد يطيق البعد عنا... ونحن قوم نستجدي الله عطف المحبين.

انتصب الرجل، وتحجرت عضلاته -فتحجرت نفسه -ووضع يديه في وسطه وهز لنا رأسه وقد ركبته كبرياء العلم وزجرنا متسائلًا، أو سألنا زاجرًا:

- والآن ماذا تريدون؟

فخفضنا الرؤوس ذلًا ورجاء، وزفرناها جميعًا قائلين:

- اللهم إنا لا نطلب إلا الهدى فاجعلنا من المهتدين

فسألنا ساخرًا:

- ومن يهديكم غير عقولكم؟

فقلنا: -قد رأينا العقلاء مجانين

فقال: -وكيف إذن تهتدون؟!

فقلنا: -لا بأس في أن نتعلم من غير العاقلين، هذا هو الحيوان يجوع فيسعى إلى الطعام، ويظمأ فيطلب الماء، ويحن إلى الأنثى فيدلونه إليها، ويزيد نشاطه فيلعب ويتعب فينام، ويطمئن فيهدأ، ويخاف فيتقي ما يخاف، ويستطيب فيألف، ويستنكر فينفر، ويصح فيعتدل، ويعتدل

فيصح، فإن مرض عالج نفسه بنفسه، وهو لا يمرض إلا إذا ألم به ما هو غريب على الطبيعة، وحياة الحيوان بهذا كحياة الإنسان فيها كل مظاهر الحياة، وفيها كل معاني الحياة، وليست تنقص عن حياة الإنسان إلا هذه العقد التي أنشأها العقل. فهي لا يمكن أن تعاب بهذا النقص لأن فيه سلامتها؛ فما الذي يدبر هذه السلامة لها...

هذا يا أستاذنا هو السؤال الذي نحب أن نبدأ به جدلنا...

... وأصاب أستاذنا الرد سريعًا فأجاب: إنها الغرائز، أي نعم الغرائز. فالحيوان ينقاد لغرائزه في حياته فيسلم ما دامت حياته طبيعية لا تمتد إليها المؤثرات المصطنعة...

... وهذا كلام طيب لا نستطيع نحن الجهلاء أن ندفعه. فعلماء النفس عندهم مقاييس وموازين وأجهزة أثبتوا بها أن الحيوان يعيش بالغرائز، ويحفظ نفسه طول حياته بالغرائز؛ ثم يموت أيضًا بالغرائز... ولكننا نرى في حياة الحيوان أعاجيب تشهد بأن الحيوان يدرك من أسرار الطبيعة ما لا يدركه العقلاء بعقولهم، ولما كان علماء النفس لا يقولون إن غرائز الحيوان تزيد على غرائز الإنسان شيئًا لم نر بدًا من أن نسأل أستاذنا سؤالًا رأيناه يرتعش قبل أن نسوقه إلى مقام الأستاذ، ولكننا سقناه فسألناه: هل في غرائز الحيوان ما يدعى (غريزة الغيب)؟!

فأسرع أستاذنا ولطمنا معترضًا: وهل ترون الحيوان يدرك الغيب؟

فقلنا والخجل يكاد يخنقنا: نعم. فالحيوان يبدر منه أحيانًا ما يدل على أنه يدرك ما يشبه الغيب، أو أنه يشبه أن يدرك الغيب عندئذ نفخ أستاذنا وقال: مثال ذلك؟

فحمدنا الله لأنه لم يتعجل فينكر علينا دعوانا قبل أن نحاول إثباتها، فقد تعودنا من كثيرين من العلماء الذين يشغفون بالمقاييس والموازين والأجهزة أن ينكروا كل ما يعتصم على مقاييسهم وموازينهم وأجهزتهم... استبشرنا وتوقعنا الخير، وقلنا عساه يريد أن ينزل عن علمه وأن يسلك معنا طريق الفن أو طريق الجهل، وأسرعنا فضربنا له المثل قائلين:

- يحدث في ليلة العيد الكبير في مدن المسلمين أن يرتفع ثغاء الأضاحي أكثر من ارتفاعه في الليالي السابقة، وأكثر بيوت المسلمين تختزن أضاحيها قبل ليلة العيد بليال عدة ليلعب الأطفال معها قبل أن يأكلوا منها... فلماذا يتزايد ثغاء الأضاحي ليلة العيد، ولماذا تلمس فيه الأذن الحساسة معاني الاستغاثة والشكوى والفزع واليأس؟

... وطلب هذا السؤال لأستاذنا نكتة فراح يضحك ويقهقه ويقول:

- وماذا أيضًا؟!

... وجدنا نحن سندًا لملحوظتنا هذه في ملحوظة أخرى فرضناها هي أيضًا عساها ترد سخريته واستهزاءه فقلنا:

- ويحدث أن يموء القط وأن يعوي الكلب في بيت المحتضر قبيل الوفاة بزمن قليل. فلماذا يموء القط وقتئذ، ولماذا تلمس الأذن الحساسة معاني الموت والإنذار، في مواء القط وفي عواء الكلب؟

... فلما رأى أستاذنا أننا مصرون على المضي في سبيلنا عدل عن التهكم بالضحك إلى التهكم بالكلام فقال:

- كأني بكم كأولئك المخرفين الذين يلصقون ببعض الحيوان الشؤم، فيتطيرون منه جريًا وراء الذي روجه القدماء الجهلاء عن هذا الحيوان من حديث الشؤم والسوء.

... ولم نر نحن في هذا عيبًا ، فنحن لا نشك في أن حضارتنا زادت على حضارة القدماء ، ولكننا نرى في هذه الحضارة تنائيًا عن الطبيعة ، فالمتحضرون لا يمارسون الاحتكاك بالطبيعة والتفاعل معها مثلما يفعل الهمج والبدو ، وهذه المسألة التي نحن بصددها من مسائل الطبيعة المحضة لا من مسائل الحضارة ، فلا يبعد أن يكون الأقدمون الأقربون من الطبيعة قد اهتدوا إلى سرها بينما ابتعدنا نحن عن هذا السر بحضارتنا التي أضرمت الغرور في عقولنا فلم نعد نكلف أنفسنا مؤونة البحث في علوم القدماء وقنعنا باتهامهم بالتخريف لأننا رأيناهم تخبطوا أمام بعض الحقائق وعجزوا عن الوصول إليها بينما أتيح لنا نحن أن نكشفها ، فساقنا هذا إلى أن نتهم علومهم جميعًا بهذا التخريف مع أننا عاجزون إلى اليوم عن إدراك بعض ما اهتدى إليه الأقدمون أما نحن الجهلاء فإننا لا نزدري الأقدمين كما أننا لا نزدري المحدثين ، وإنما نطلب الحكمة عند هؤلاء كما نطلبها عند هؤلاء ، ونكتفي بالتحنيط الفرعوني شاهدًا على اهتداء الأقدمين لنخفض الرؤوس أمامهم بالاحترام والتقدير.

فقلنا لأستاذنا : فلندع هؤلاء المخرفين وغربانهم تنعق فوق رؤوسهم أو فوق رؤوسنا حيثما طاب لها النعيق ، ولنحاول تعليل هذا الذي نراه في أضاحي العيد ، وهو شيء لا يمكن أن ينكر ، ولنحاول معه تعليل هذا الذي نراه من القط والكلب في بيت المحتضر قبيل وفاته... هل في علمكم هذا التعليل؟ وهل هي أيضًا غريزة تنذر الحيوان بالغيب ، أو ماذا تقولون؟!.

فلم يهن على أستاذنا أن يكف عن القول... قال :

- إن الأضاحي تثغو ليلة العيد، ويزيد ثغاؤها مصادفة، وبالمصادفة أيضًا يموء القط، ويعوي الكلب في بيت المحتضر قبيل الوفاة.

... وهكذا العلماء. كلما حيرتهم ظاهرة من الظواهر عللوها بالمصادفة، ولم يفكر واحد منهم أن يبحث للمصادفات عن قانون! ولماذا لا يكون للمصادفات قانون، ولكل شيء في هذا الوجود قانون؟ الهم هديك! على أننا مؤمنون بأن الظاهرتين اللتين أوردناهما لسيدنا العالم ليستا مما يخضع لقانون المصادفات، فليس الذي يتكرر في ملابساته تكرارا متواصلًا مستمرًا بالذي يدخل في حساب المصادفات مهما أصر سيدنا الأستاذ على ما يقول... ومع هذا فقد أمسكنا عن مناقشته فيه فنحن لا نستطيع أن نقنع المكابر بأن البيضة من الدجاجة وأن الدجاجة من البيضة إذا أصر على أن يقول إنها المصادفة وحدها هي التي تخرج إحداهما من الأخرى، فانتقلنا به من هذا إلى ما ذكرناه من تعبير ثغاء الأضاحي الهاتفة مصادفة فقط ليلة العيد بالاستغاثة والفزع والشكوى وغير ذلك من المعاني التي يمكن أن تضطرب في نفس المسوق إلى الموت، سألناه عن هذه المعاني: ألا يستشعرها، فضحك وقال:

- وهل تشعرون أنتم بها؟

فقلنا: نعم والحمد لله، وإنك أيضًا تستطيع يا أستاذنا الجليل أن تستشعرها إذا أردت، وإن كنت تأبى أن تشعر إلا بمقاييس وموازين وأجهزة فإنك تستطيع أن تكتب ما شئت من ثغاء هذه الأضاحي بالنوتة الموسيقية، وتستطيع أن تطلب من عازف فنان أن يعيدها على سمعك بآلة يشبه صوتها صوت الخراف، ولعل الفيلونسيل هو أقرب الآلات الموسيقية إلى تقليد هذه الأصوات، فإذا لم يشعرك الفيلونسيل بهذه المعاني التي نحدثك عنها، فإنه عجز المادة عن قياس النفس ووزنها، ولا

بد لك إذن من الاستعانة بجهاز يشبه الحيوان من حيث وجود النفس فيه، وليكن هذا الجهاز إنسانًا مغنيًا؛ أو إنسانًا ممثلًا تطلب منه أن يقلد لك أصوات الخراف ليلة العيد تقليدًا أمينًا فيه الصوت وفيه ما يبعث الصوت من الشعور.

... وهنا تعجل أستاذنا وقطع علينا الطريق متسائلًا:

- فإذا لم أشعر بما تشعرون؟

فقذفنا بها عندئذ مجبرين وقلناها محرجين:

- لا يمكن أن يكون هذا إلا إذا كان في الناس فريق يشعرون وفريق لا يشعرون وإن كانوا يعقلون.

... وعادت إلى الأستاذ طيبته، وعاد إليه تواضعه فسألنا كمن يريد أن يعرف:

وهل في الناس حقًا من يشعرون؟

ولم ندهش لهذا السؤال، فقد صدر من عالم، فقلنا له: نعم يا سيدنا الأستاذ. نقسم لك بالله أن في الناس من يشعرون بأضاحي العيد. بل أن فيهم من يشعر كأضاحي العيد.

.. فذعر الأستاذ لهذا، وضاق عقله عنه، وسأل من فمه سؤال أبله معتوه وقال: إذا كان هذا حقًا... فكيف يحدث... هل تعرفون؟!.

فتبادلنا فيما بيننا النظرات لأننا كنا نظن أن العلماء مهما جمدوا بعقولهم دون الحق فإنهم يستطيعون أن يستنبطوا أسباب المظاهر التي يلمسونها ما دامت ظاهرة لهم، وما داموا يلمسونها، وما دامت لهم عقول، وما داموا يقولون إن عقولهم تكفيهم وتهديهم وتلبي مطالبهم وحاجاتهم... وكنا نظن هذا لأننا نسينا أن سادتنا العلماء ينفضون

أيديهم من العلم ما انفلتوا من معاملهم وما نفضوا أيديهم من مقاييسهم وموازينهم وأجهزتهم... وجل من لا ينسى... ولكننا عدنا فذكرناه وقلنا لسيدنا الذي هجر الشعر رأسه إلى لحيته:

- أنتم صدقتم داروين حين قال لكم إن بدن الإنسان تطور من بدن الحيوان، ثم صدقتم علماء آخرين قالوا لكم إن جنين الإنسان يمر في بطن أمه بالأدوار التي مرت بها الإنسانية في سلسلة رقيها، فهو يبدأ خلية ثم دودة ثم زاحفة حتى يتم تكونه الإنساني فينقذف إلى الحياة إنسانًا ولكنه يمشي على أربع، إنسانًا ولكنه أبكم، إنسانًا ولكنه بلا عقل. فلماذا لا تتأملون هذا الإنسان العجيب، ولماذا ترضون أن يكون الجنين تلخيصًا للرقي البدني البشري، ولا يخطر في بالكم أن حياة الطفولة تلخيص هي أيضًا للرقي الروحي البشري، وأن الطفل فيها يتخلص من بعض الخصائص ويستكمل خصائص أخرى غيرها، ولماذا لا تدرسون المرحلة الأولى التي يتجلى فيها العقل عند الطفل وترون على حساب أي شيء يتجلى هذا العقل، وما الذي يستره من نفس الطفل كلما ازدهى وازدهر وساير الحياة العاقلة؟ ولماذا لا تتابعون في الطفل ائتلافه بالطبيعة لتروا كيف يضمحل هذا الائتلاف عن بعض الأطفال وكيف ينمو عن الآخرين؟ ولماذا لا تحاولون أن تفسروا ما يتاح لبعض الناس من القوة على إدراك أسرار الطبيعة بشعورهم بينما لا تتاح هذه القوة لغيرهم؟

أليس هذا كله مما يصلح للدرس؟!...

ثم ألا تلحظون أن الأطفال يهجمون على حقائق الحياة الطبيعية غير محاذرين ولا مشفقين لا لشيء إلا لأنهم لا يعقلون، وأنهم يقيسون الأشياء ويزنون الناس بشعورهم (لا بعقولهم) فيصدق قياسهم ويصدق حكمهم أكثر مما يصدق قياس الكبار العقلاء وحكمهم. لا لشيء

إلا أن الكبار يزحمون أنفسهم بمعايير مصطنعة يقدرون بها الحقائق ويزنون بها الأشياء، وكثرة هذه المعايير واضطرابها هما اللذان يورثان أحكامهم وتصرفاتهم الغلط والشطط لماذا لا تفكرون في هذا يا سادتنا العلماء؟ ولماذا تغفلون شعوركم وشعور الناس؟!.

فأطرق الأستاذ مرة أخرى. ولكن إطراقته طالت هذه المرة ما شاء علمه وتفكيره أن تطول... ثم رفع رأسه وقال:

- وهل هناك من يجول في ميادين الشعور؟

فقلنا غير مفاخرين:

- نعم إنهم أهل الفنون وهم الذين يرقى شعورهم كما يرقى عقلهم فيحتفظون بتوازنهم الإنساني ولا يعطلون بإرادتهم ولا بالجشع المادي قوة يرونها تحفظ حياة الحيوان وتصونه وتهديه، فما بالك لو صاحبها العقل والتفكير السليم...

متابعة العلم ليست فنًا

على ذكر الفن الرمزي الحديث

كنا نعرف الفن الرمزي فيما مضى على نوعين: إما أن يكون تجسيدًا للمعاني يتدلى به الفنان إلى جمهور الأذهان، وإما أن يكون على العكس من ذلك تلويحاً بالبعيد دون القريب يتعالى به الفنان على جمهور الأذهان. ولم يكن هذا لينتزع من الفن الرمزي طبع الفن ولا خواصه، فقد احتفظ بكيانه كاملًا، فهو سابق وهو حر، وهو صادق وهو شاعر واليوم يراد بنا أن نعرف نوعًا ثالثًا من الفن الرمزي هو -فيما يقول أهله -تابع يمشي وراء العلم، علم النفس، يشرح نظرياته وقواعده وما يثبت عنده من طباع النفس وأحوال حياتها. فهل يجوز لنا أن نقبل هذا النوع الثالث على أنه فن صحيح؟

إننا إذا فعلنا ذلك جرَّأنا كثيرًا جدًا من الأعمال العقلية على المطالبة بالارتفاع إلى مستوى الفن، وقد يجرنا هذا إلى نوع من البلشفية الروحية التي تسوى ما بين الحق والزيف؛ فتصبح ألفية ابن مالك فنًا شعريا لأنها نظم يشرح النحو، كما أصبح الخشب في هذه الأيام حريرًا، وكما خرج السمن في هذه الأيام من زيت جوز الهند.

وكي ندفع عن رأينا هذا، فإنه يلزمنا أن نتعرف في الفن بعض النواحي التي لو فقدها لفقد طبيعته فأصبح شيئًا آخر قد يكون حلوًا لذيذًا، ولكنه لن يكون بحال من الأحوال فنًا صحيحًا.

فما هي هذه النواحي التي يتحتم على الفن أن يستوفيها كي يكون فنًا صحيحًا؟

أولها من غير شك هذا الحس الصادق الذي تبعثه الحياة نفسها. وهذا الحس هو الذي يملأ نفس الفنان حتى يفعمها، ثم يفيض منها فنًا يتلقاه الناس فيشعرون أنه نبع من نفس صاحبه رغم أنفه، لأنه لم يكن يملك من يكتمه بعد أن ازدحم في نفسه وكثف. والفنان الحق لا يبحث عن الأحاسيس ولا يتكلفها، وإنما هو منطلق في الحياة كما ينطلق بقية الناس، أو كما تنطلق بقية المخلوقات لا يعتزم أن ينتج فنًا، ولا يتهيأ لذلك، ولا يتعلم من الناس طريقة التعبير عن نفسه.

ومع هذا الحس الصادق سبق يطير بالفنان إلى حقائق الكون على جناحين من هذا الحس نفسه. فالفنان الحق لا يمكنه أن ينتظر حتى يقول له المعلم إنه ثبتت لديه حقيقة من الحقائق على وجه من الوجوه، وإنه يأذن له على أساس هذا الثبوت أن يتخذ من هذه الحقيقة مادة لفنه. هو لا يمكنه أن ينتظر حتى يحدث هذا وإنما هو يصل من تلقاء نفسه إلى هذه الحقائق فيعلنها والعلم لا يزال يحبو في الطريق إليها مثاقلًا متلكئًا؛ وقد يصيب الفنان هذه الحقائق، وقد يخطئها، ولكنه على أي حال يصل إلى شيء ما، -بعيد عنها أو قريب منها -على أنه هو نفسه لا يعنيه من هذا كله إلا أن ينطلق، وأن ينطلق فقط. ومع هذا الحس، ومع هذا السبق به، فإنه لابد للفنان أن يدفعه إلى إنتاجه الفني دافع نفساني من العواطف التي ينفثها في فنه رضي أو سخطًا أو غير ذلك، وإلا كان الفن باردًا برودة الموت، لأنه خلا من العاطفة وهي روحه وباعثة الحياة فيه ومع هذا وذاك فلا بد أن يكون الفن حرًا لا يرضى لنفسه أن خضع في الأغلال والقيود، ولا يقبل أن يتحكم فيه شيء، وإن رضخ له كل ما ينتجه العقل البشري من علم وصناعة.

هذه (أوليات) لا يمكن أن يكون الفن فنًا بدونها. فهل تتوفر هذه (الأوليات) في هذا النوع الثالث من الفن الرمزي الذي يطالعنا به هذا العصر الحديث؟

أما الحس الصادق فهارب من أهل هذا الفن، وليس هو وحده الذي هرب منهم وفر، وإنما تسلل من نفوسهم معه كل حس فلم يعودوا يحسون إحساسًا صادقًا ولا إحساسًا كاذبًا. وليس هذا لأن الله خلقهم هكذا (مبرشمين) بل لأنهم هم أنفسهم أرادوا أن يكونوا هكذا. فلم يقبلوا أن يكون في الناس من يزيد عليهم علمًا، ولا من يزيد عليهم اطلاعًا، ولا من يزيد عليهم إلمامًا بما يكتب وبما في الكتب، ولا من يزيد عليهم إحاطة بما يحدث في هذه الدنيا من اختراعات واكتشافات ونظريات ومعلومات، فأدمنوا القراءة، وأدمنوا التعلم، وأدمنوا الاطلاع، وهذا كله يشغل العقل ويجهده، ويأخذه بالمران على سلوك نهج الناس في التفكير. والذي لا شك فيه هو أن هذا العصر الحديث قد اختلط لنفسه نهجًا خاصًا في التفكير ربما تكون الإنسانية قد اصطنعته في يوم ما، ولكنها على أي حال لم تقطع فيه شوطًا بعيدًا كهذا الذي قطعته فيه هذه الأيام، ذلك هو طريق المادة، فلإنسانية اليوم تحشد مواكبها جميعًا في هذه الطريق، والقوي القادر هو من تقدم إلى الطليعة يتلقط الثمر الذي يبعثره الشيطان أمام هذا القطيع البشري، والضعيف الهزيل هو من تأخر إلى آخر الموكب يتلقط القشور والنوى في الطريق خاطئ كله رذيلة وكله شر. ومهما ادعى الفنان المشغوف بالعلم اللاهث من الجري وراءه أن في استطاعته الاعتصام بنفسه عن نزوات العقل والعلم والحضارة الحديثة، فإنه إما مخادع في هذه الدعوى وإما مخدوع، لأن طابع العقل والعلم والحضارة في هذا العصر هو طابع المادة، فالعقل لا يقر من الحقائق إلا ما ثبت ثبوتًا ماديا، وأول ما ينكره إذن هو الحس والروح. والعلم لم يعد الناس يطلبونه ليجدوا فيه المتعة الروحية أو ليصلوا

عن سبيله إلى ما هو أكبر وأعز وأنفس من هذه الحياة... وأما الحضارة فها هي ذي: عمارات، وطيارات، وبوارج، وغازات سامة! وكفى هذا القرن العشرين سبة أنه عند ما قال له فرويد: (إن الإنسانية تحركها في حياتها قوة الغريزة الجنسية) اطمأن إلى هذا اطمئنانًا ثبت في النفوس وتأصل وتفرع وتسلقت منه أغصان سامة هاصرة التفت حول كل شيء حتى أعناق الفنون تريد أن تعقها لتتفرد البهيمية في نفوس الناس على أساس من العلم وليجيء يوم تنضم فيه مستشفيات المجاذيب وحدها على الذين يؤمنون بالحس والروح، وليجيء بعده يوم تبرأ فيه الإنسانية من الحس والروح ويكون أمرها إلى الغريزة الجنسية أولًا وأخيرًا.

وياله من يوم...! يوم يقول فيه الناس: عاش على هذه الأرض فيما سبق مجنون كان يدعى غاندي وقد كان تلميذًا لمجانين من أساتذته السابقين! فهل يرضي الفن عن هذا وهو المسكة من روح الله في نفوس الفنانين...؟

لا! إنهم سيثورون على هذا العقل وعلى هذه الحضارة، وسترى الإنسانية عن قريب يومًا يكون الهداة فيه كتابًا، ورسامين، وموسيقيين، وممثلين، وشعراء، ومغنين وسيصرخ هؤلاء في وجوه الذين يدحرجون الإنسانية إلى الهاوية ليبيعوا لها الحديد والنار للقتال، وليبيعوا لها الخبز والماء لإمساك الرمق من أجل القتال وحده. وستكون أهون صرخاتهم كتلك التي صاح بها شارلي شابلن في وجه (العصر الحديث) بقصته الأخيرة...

ولعل العالم لما ينس قصة (كل شيء هادئ في الميدان الغربي) وغيرها من قصص السينما والمطبعة التي كشفت الستر عن مآسي الحرب وما بعثها من جنون العقل، وما ألهبها من هوس العلم، وما غذائها من اختبال الحضارة وجشع المادة. كانت هذه القصة كما كانت

غيرها من القصص الداعية إلى الروح والسلام فنًا، وكانت حية، وكانت حارة. وقد خلقتها جميعًا في نفس منشئها عاطفة واحدة هي الاشمئزاز من العقل والعلم والحضارة الحديثة، لأن الفنان الحق لا يملك أن يقف من العقل والعلم والحضارة الحديثة إلا موقف المشمئز الكاره لا موقف المحب التابع، أو العبد الخاضع، ما دام يرى هذا اللون الأحمر الذي تصطبغ به الحضارة القائمة على أساسين من العقل والعلم والخالية من الحس والروح.

أما القول بأن علم النفس لا يدعو إلى الحرب فلا تصح كراهيته، وإنه من الجائز للفنان أن يتبع وأن يجني الحق من فضله فهو قول يلجأ إليه المكتوف المعصوب العينين، ولا يقبل أن يقول به فنان منطلق لا يشعر بحاجته إلى العلم كي يرى ويسمع لأنه بعينيه يرى وبأذنه يسمع... وإلا فعليه أن يطمس عينيه، وأن يسد أذنيه وأن يقنع بقراءة الكتب التي تؤله الغريزة الجنسية، وأن يجرى وراءها.

سيقولون إن أسمى الفنانين هو الذي ينتج فنًا إنسانيًا عامًا تتذوقه النفوس جميعًا. وسيقولون إن القواعد التي يقررها علم النفس قواعد عامة تنطبق على النفوس جميعًا انطباقًا تامًا سليمًا، وهذا وحده يكفي -عندهم -أن يغري الفنانين بالإقبال عليها والتعلق بها. وردنا على هذا أن هذه الطريقة التي يصطنعونها طريقة عقلية تجارية ليس فيها من خير إلا أنها مريحة جدًا للفنان الذي يسلكها إذ يستغني فيها بكتاب يشتريه بدراهم معدودة فيقرأه فيتخذ منه مادة الفن... عن سنوات أو أشهر أو أيام ينفقها من عمره في هذه الحياة تأكل من أعصابه وتشرب من دمه لتجود عليه بعد ذلك بمثل ما جادت به على من أخرجوا البؤساء، وآلام فرتر، ومتروبوليس، وفاوست، وسائر هذه الجمرات الخالدة التي التهبت جهنمات في نفوس أصحابها لا كتلًا من الثلج المصنوع من الماء

والأحماض والأملاح لم يكن العلم يومًا من الأيام هاديًا للفن، وإنما استطاع في كثير من الأحوال أن يهدي الصناعة والتجارة.

فإذا كان أتباع العلم هؤلاء فنانين حقًا فلماذا لا ينشرون إحساسهم على العالم فيحيطون به ثم يطالعوننا بما ينطبع في حسهم وهم يرون العالم على ما هو عليه، وهم يعرفون ما هو عليه؟

لم يكن العلم يومًا من الأيام هاديًا للفن، وإنما كان الفن على مر الزمان سباقًا وغني أريد أن أتصور واحدًا من هؤلاء الذين يتبعون العلم في فنهم وهو يريد أن يضع قصة مثلًا، كيف يضعها؟ إنه يقرأ في كتاب من كتب علم النفس أن الذاكرة تغيب عن الإنسان أحيانً فيبتلعها العقل الباطن، ويعيش الإنسان مدة طويلة أو قصيرة وهو بغير ذاكرة فتصدر منه أقوال وأفعال لا تستقيم مع حياته الظاهرة. وقد يحدث بعد ذلك حادث يعيده إلى ذاكرته أو يعيد إليه ذاكرته، أو قد لا يحدث له هذا الحادث عفوًا، فهو إذن محتاج إلى التنويم المغناطيسي يرد إليه ذاكرته يقرأ الكاتب المثقف هذا فيقول في نفسه: واللّٰه إن هذا الموضوع يصلح قصة؛ فلأركبها إذن من رجل وزوجته فتغيب عنه ذاكرته فتشقى هي لهذا، وأخيرًا يسعدان بشفائه، ثم يعود فيقول لنفسه: وما هي الحوادث التي سأوقع بهذا الرجل فيها، على أن تكون حوادث مسلية لذيذة، وعلى أن تكون في الوقت نفسه غامضة حتى يثبت للقراء أنني من أدباء الرمز الذين يستغلق فهمهم على عامة الناس... آه... فلتكن هذه الحوادث كيت وكيت وكيت... وعلى هذا النمط الكيميائي الصناعي يسير صاحب الفن العلمي في فنه فيؤلف قصته أو يركبها فيقرأها القارئ وينفق فيها وقته وهو لا يشعر مطلقًا بأن الفنان الذي (عمل) هذه القصة يختلف في كثير أو قليل عن العالم الذي كتب التقرير العلمي صاحب الفضل الأول في تأليفها.

فهل من طبع الفن أن يسبه طبع العلم؟ لا... ليس الفن هكذا ولا إنشاء القصة هكذا...

هوجو ابتأس فأخرج البؤساء. هوجو شقي فخلد الشقاء، وعرض منه صورًا لا يقول أحد إنه رآها جميعًا، أو أن كتابًا دله إليها، ولكنه هو أحسها لأن روحه طافت بها. روحه كانت تغادره وتحل في البؤساء على اختلاف ألوان بؤسهم فتتوق للبؤس طعومًا مختلفة ليس أقساها بؤس (جان فلجان) اللص الذي سرق رغيف الخبز، وإنما قد يكون أقساها بؤس (جافير) رجل البوليس الذي كان يتنطع في مخاصمة (جان فلجان) وتتبعه وإحراجه لا لأنه يمقته ولكن لأنه كان يخشى أن يقصر في واجبه، فيكون في نظر القانون مجرمًا وهو ما لم يكن يحب أن يتردى إليه بعد أن أحسن المجتمع تنشئته وقد كان لقيطًا رباه المجتمع ليكون حاميًا من حماته.

ما أعجب هذه النفس التي عرضها هوجو في بؤسائه. نفس أصابتها العقد - على حد تعبير العلماء - فأصبحت تتحجر دون الرحمة لأنها كانت تخشى ألا يرحمها أحد، كما لم يرحمها أب ولا أم وهذه نفس قد يحللها فرويد، وقد يحللها سبيرمان أو غيرهما من علماء النفس ولكن تحليلهما وتحليل غيرهما ليسجد أمام هذا الجلال الذي أسبله عليها هوجو الفنان الذي لم يقرأ علم النفس ولا نظريات علم النفس، والذي كان يعيش بروحه فيحس ويشعر، والذي لو لم يكن أديبًا بطبعه لما أنشأها هذا الإنشاء الرائع، والذي لو كان موسيقيًا لأرسلها باكيًا الفنون يا أصحاب الفنون يمكن أن يترجم بعضها إلى بعض، لأنها لا تكون فنونًا إلا إذا كانت من وحي العواطف، والعواطف لا تستعصي على أي فن. فما هي العواطف التي تتحرك في نفوس الذين يجرون وراء العلم العاقل والتي تصلح للترجمة إلى بقية الفنون؟ لا شيء إلا عواطف

مصنوعة مركبة. أما العاطفة الصادقة في نفوسهم فهي لا تتحرك إلا نحو غرض من أغراض الطبع والنشر والإذاعة.

لا. ليس هذا فنًّا

وأخيرًا. ما الذي يقبل من الفنان أن يكون عليه؟ ...

لا شيء أكثر من أن يعيش وهو لا يدبر في نفسه أنه سيخرج فنًّا... فليترك نفسه للحياة، وليسع إلى الصدق ما أمكنه السعي. وليبحث عن الجمال ما أمكنه البحث. ليقرأ، ولكن عليه أن يقرأ في صفحات الوجوه قبل أن يقرأ في صفحات الكتب. عليه أن يلتفت إلى الناس وإلى الحيوان وإلى النبات وإلى الجماد. فليعط كل نفسه لكل ما يحيط به من مظاهر الوجود... فليعاشر هذه الحياة، وليبادلها الحس، وليغتبط بكل ما تؤاتيه به سعادة أو محنة، وبكل ما يراه الناس من خير أو شر، وبكل ما يطالعه في الطبيعة من أحسن الصور وأقبحها فهذا وحده هو سبيل الفن، وليس من الضروري بعد ذلك أن يكون الفن كتابة أو ألحانًا أو صورًا... وإنما الفن هو حياة الهدى... ى وكم في جماهير الناس من ثقاة فنانين، وكم في الفنانين من مرتزقة أو -على الأقل -حائدين!

نحو دنيا الروح

يقول علماء التربية وعلماء النفس فيما يقولون من الحق: إنه يمكن التخفيف من حدة الغريزة الجنسية عند المراهقين بصرفهم إلى الفنون الجميلة. وهم لهذا يوصون المربين بأن يعلموا المراهقين الموسيقى والتمثيل والرسم والأدب. وقد استجاب لهم المربون فأنشئوا في المدارس الثانوية وبخاصة جمعيات الفنون الجميلة إلى جانب فرق الألعاب الرياضية التي سبق أن أثبت دعاتها أن من يمارسها من المراهقين يبذل فيها من نشاطه البدني ما يحتاج بعده إلى الراحة بعيدًا عن التفكير في الاستجابة لهتاف الغريزة الجنسية.

فهل أثبت دعاة الفنون الجميلة من علماء التربية وعلماء النفس دليلًا على أن من يمارسها من المراهقين يبذل فيها شيئًا من نشاطه يحتاج بعده إلى الراحة بعيدًا عن التفكير في الاستجابة لهتاف الغريزة الجنسية لتطمئن بهذا الدليل عقولنا. ولتؤمن بأن الذي يدعون إليه قائم على أساس من الحق يرتكز على صلة مؤكدة بين الفنون الجميلة والغريزة الجنسية، أو أنهم رأوا الفنانين أكثر الناس انصرافًا عن نزعات البدن فخطر لهم أن يتصيدوا المراهقين بالفنون يشغلونهم لبها عما تتلهف إليه أبدانهم الحارة الملتهبة. فهي إذن مؤامرة من الخداع والتضليل اتفق عليها علماء التربية وعلماء النفس، وجازت على من وقع في أيديهم من المراهقين أو جازت -في القليل -على بعضهم؟

ولكني إذ أقول هذا أرجو علماء التربية وعلماء النفس أن يمضوا في مؤامرتهم هذه إلى أبعد حد، وأن يأخذوا بها المراهقين وغير المراهقين من كل من تسوقه إليهم الحياة ليربوه. فليس أشرف من هذه المؤامرة

شيء، وسيجيئ قريبًا أو بعيدًا ذلك اليوم الذي توفق فيه أساليب العلم إلى كشف ما بين الغريزة الجنسية والفنون الجميلة من صلة حقيقية مؤكدة. ولست أريد بهذا الادعاء بأن العلم غائب عن هذه الصلة، ولكني أريد أن أقول: إنه لا يزال يحوم حولها، ولما يجرؤ على غزوها لأنها ميدان جديد عليه، ولأنه لما يستنبط الميزان والمقياس، والأنبوبة والمخبر، والأملاح والأحماض التي يستطيع أن يحول بها الغريزة الجنسية إلى الغريزة الفنية، والغريزة الفنية إلى الغريزة الجنسية ليصدق بعد هذا عقله الثقيل المتشكك أن هناك وحدة تجمع بين الاثنين.

والى أن يصل العلم إلى استنباط هذه الأدوات التي لا يفهم شيئًا إلا بها يستطيع المتحررون من أغلاله وقيوده أن يضربوا في السماء بحثًا عن هذه الصلة، وأن يتركوه في معمله يتخبط بين الشك والخور لعله مهتد يومًا إلى تركيب (حقنة) من الشعر، أو (برشامة) من النغم! فليبق العلم في معمله، وليدع العلماء المراهقين إلى الفنون الجميلة، وليعللوا دعوتهم هذه بأن الفنون الجميلة تبعث في النفس الخيال، وتلهب فيها العاطفة، أو فليقولوا على العكس من هذا إن الخيال والعاطفة هما اللذان يبعثان في النفس الفنون الجميلة، أو فليقولوا ما شاءوا من أمثال هذا القول المخلخل الذي لم يضغطه الإيمان ولم تتماسك به الثقة.

لندع العلماء إذن يترددون ما طاب لهم التردد، ويتوجسون ما حلا لهم التوجس، ولنمض نحن مع أولئك المتحررين من الأغلال والقيود، ولنرهم كيف يدركون الصلة بين الغريزة الجنسية والفنون الجميلة.

وقد عودنا هؤلاء المتحررون المتطايرون أن يلتووا على عقولنا قبل أن يهدونا إلى ما يعلمون من الحق، كأنما يأبون إلا أن يعابثوا العقل وأن يذلوه قبل أن يقودوه إلى النور ويلهموه. ولكنهم على أي حال أحب إلى النفس وأرحم من الأنابيب والأملاح... فلنحتمل معابثتهم إذن ولنسألهم:

- كيف تجدون الصلة بين الغريزة الجنسية والفنون الجميلة؟

ولكنهم يسألوننا: وكيف تجدون الصلة بين الشحم والنبوة؟

- وهل هذا سؤال باللّه عليكم؟ إننا لا نجد شيئًا.

- إن هناك أشياء. فلو أنكم عدتم إلى سير الأنبياء لوجدتموهم يكثرون من الصوم، ويخففون من الطعام. ولو أنكم عدتم إلى سيرة النبي الأكمل محمد لرأيتموه يصوم كلما اعتزم أمرًا جللًا، وكلما هم بغزوة أو حرب. وإذا اعتبرتم (غاندي) الهندوكي التقي الخارق المعجب وليًّا من أولياء اللّه كما نعتبره نحن فإنكم لابد معتبرون بحرصه على الصوم كلما احتاج إلى التجلد والتعزز في قيادة أنصاره ومقاومة خصومه. أفلا ترون في هذا كله صلة بين الشحم والنبوة؟ أو بين الشحم والسمو الروحي على الأقل؟

- الآن رأينا، وهي كما تبدو على هذا النحو صلة عكسية.

- نعم. إنها صلة عكسية. فكلما غذى الإنسان بدنه شغله هذا عن غذاء روحه، وكلما جوع بدنه سهلت عليه تغذية روحه.

- إنكم إذًا تعدونه شهيدًا ذلك الذي ينتحر جوعًا

- لا شهادة في إتلاف، وإنما الشهادة في التقويم. فإذا استلزم التقويم الموت فإنه إذًا تخريب ما بين المتساكنين: البدن والروح. عودوا إلى ما كنا فيه، وحدثونا عما يصحب انفجار الغريزة الجنسية عند المراهقين من شدة ميلهم إلى الإكثار من الطعام والإكثار من وجباته.

- إنها أجسام يزيد نزوعها إلى النمو فهي تحتاج إلى ما يعين على بنائها وما يسعف نموها.

- لا. فإن أجسام المراهقين لتنمو وتفرع ولو لم تستزد من قوتها، فهذا النمو سيل من الحياة يتدفق من غدد ظلت تجمعه وتخزنه ما عاشت وواصلت العمل.

- إذن فماذا تقولون؟

- الحياة ماضية في سبيلها. وسبيلها هو الأحياء أنفسهم، فهي تسلكهم، وقد تنقلت فيهم من ماضيهم حتى انتهت إلى حاضرهم، وهي منتقلة فيهم من حاضرهم إلى مستقبلهم. وهي في سيرها هذا تعطي أولئك الأحياء ثمن ما سمحوا بالمرور فيهم وتأخذ منهم ثمن ما عمرتهم. ويقول ناس مؤمنون بالعدل: إن ما تأخذه الحياة من مثقال ذرة لا تأخذه إلا بعد أن تكون أعطته مثقال ذرة.

- هذا حسن. ولكن ما قصة الأخذ والعطاء عند المراهقين؟

- عند المراهقة تبدأ الحياة في الاشتداد بمطالبة المراهق بما أعطته. وهي إذ تطالبه تستمر تعطيه. وهو إذ يستشعر نفسه في هذا الموقف الجديد يقبل على الحياة إقبالًا جديدًا فيه عنف وفيه جشع. فهو يستطعم الحياة مادتها ومعناها بنهم العائل المكلف بالنفقة يتكالب على موطن رزق. وفي سن المراهقة تصارح النفس الحياة بحقيقتها وتكشف لها القناع عن وجهها. وكل نفس تستجمع خصائصها ومقوماتها مما سبق أن أعطته الحياة إياها من طريق الوراثة، ومن طريق البيئة، ومن طريق التربية ومن سائر تلك الطرق التي تنفذ منها الحياة إلى الأحياء. عندئذ ترى الحياة مراهقًا مقوس الأنف يمد لها كفيه ويقول: هات؛ ومراهقًا آخر مسحور العينين يمد لها شفتيه ويقول: هات؛ ومراهقين آخرين ما بين هذا وذاك يريدون مما يطلبه هذا ومما يطلبه ذاك. والحياة أمام هؤلاء جميعًا تعطي وتأخذ مثلما تعطي، مثقال ذرة بمثقال ذرة. وهي كما تكمن في هؤلاء الأحياء، تلبد في غيرهم من

الأحياء المتجسدة، والأحياء المتجردة، وهي تعرض نفسها في مظاهرها المختلفة أما النفوس فلكل نفس منها ما تحب وما تشاء. فمن أخذ منها مادة لم يستطع أن يعطيها إلا مادة، ومن أخذ منها معنى أعطاها معنى، ومن أخذ منها معًا أعطاها منهما معًا. والمراهق قد تكوَّن مما أخذه من الحياة وهو ليس مادة فقط لأن الناس ليسوا مادة فقط فهم مادة وشيء آخر نقول عنه نحن إنه روح ويقول عنه ناس آخرون إنه نفس، ونحن وهم نقول إنه شيء متجرد عن المادة التي تتزيا بها الكهرباء في أزياء مختلفة. فلابد إذن أن يأخذ المراهق (كغيره) من مادة الحياة ومعناها ليعطيها مادة ومعنى، وأيهما أكثر الأخذ أكثر العطاء. ومن الناس من يقنعون في هذه السوق بالضروري اللازم لإقامة إحدى ناحيتيهم ويلحون في طلب مكملات الناحية الأخرى؛ ومنهم من يتوسطون فيطلبون من هذه مقدار ما يطلبون من تلك، وهذه الأرض تستطيع أن تمد الناس بحاجتهم من المادة وزيادة؛ وسماء المعاني تستطيع أن تهب الناس حاجتهم من المعاني وزيادة؛ والناس في التنازع على المادة يتخاصمون ويتعادون، بينما هم حين يتناهبون المعاني يزدادون تقاربًا وتفاهمًا وتحببًا وتعاطفًا وتوحدًا. فكلما اهتمت البشرية بالناحية المادية أمعنت في التبعثر والتفوق والتشتت، وكلما توغلت في الناحية الروحية أمعنت في التماسك والانسجام. ونحن إذا رجعنا إلى تواريخ الأفكار والدعوات الروحية رأينا أخلصها روحًا أكثرها تعاونًا بين أنصارها، ولم نر الاختلاف يدب إلى هؤلاء الأنصار إلا حينما تنزلق إلى فكرتهم دواع مادية فتلوثها. فالواجب إذن على البشرية إذا كانت تريد أن تستخدم عقلها في الخير أن تقنع من المادة بما يقوم الحياة البدنية فقط لا أكثر ولا أقل، وأن تنقذف بالوافر الباقي من نشاطها إلى حيث يمكنها أن تتوحد. وهذا هو ما دعا الأنبياء إليه، وحاشا أن يكونوا مجانين، وإنما هم أنبياء وقد أرشدوا البشرية إلى طريق الخير ومضوا، فاتبعهم أولياء أقنعت الدعوة إحساسهم

وعقلهم، وانساق في طريقهم فنانون يتعشقون في هذا الكون جماله، ويطلبون كماله وكمال أنفسهم معه.

- ولكن البشرية إذا اتبعتكم في هذا عادت كما كان يعيش أهل الكهوف، أو كما يعيش أهل الغابات.

- وهل تحسبون الحال اختلفت؟ الكهوف باقية ولكنها اليوم عمارات من ناطحات السحاب. وفي الغابات يصيد الناس الحيوان ليأكلوه، وفي هذه العمارات يصيد الناس بعضهم بعضًا ويأكل بعضهم بعضًا، وقد عافت البشرية أن تأكل لحمها فأكلت في العمارات ضميرها وشرفها وروحها. إن أهل الكهوف كانوا أقرب منا إلى السماء، وإن أهل الغابات لا يزالون أقرب من أهل العمارات إليها.

- ولكن هذا العلم الذي علمناه، وهذا العقل الذي نما فينا... أنلقيهما في الفضاء لنعود إلى حياة العراء؟

- لم يقل أحد هذا. وإنما نستطيع أن نجند علومنا وعقولنا لتنظيم أرواحنا لا للترفيه عن أجسادنا، وسنرى عندئذ أن أكثر ما نعمله لغو لا يغذي الروح، وسنرى عقولنا قد اسودت من كثرة ما كذبت علينا وأضلتنا طريقنا.

- وعندئذ ماذا نصنع؟

- عندئذ ينتعش إحساسنا. عندئذ يبدو لنا الكون في آلاف الصور وكلها محببة. وقد يعيننا صوم الأنبياء على تذوق الحب واستساغته، وقد يصرفنا هذا العشق الشفاف عن تهافت الأبدان وتجاذبها...

- وبعد ذلك تنتهك قوي البشرية فتتخاذل وتهزل ويقل نسلها وتموت.

- من أين جئتم بهذا؟ سيأكل الناس من الأرض ما يعيشون به، والطبيعة لا تريد منهم أكثر من أن تعيش أبدانهم. فإذا أخذوا منها أكثر ما يلزم لها خالفوا قانونها وظلموها وظلموا أنفسهم، وسينجب الناس بقدر ما يحفظون نوعهم وبقدر ما يسمح للحياة المادية أن تسلك أبدانهم إلى مرحلتها الجديدة. وليست الحياة تريد أكثر من هذا. والحياة بعد ذلك تطلب الإنجاب الروحي الذي يؤديه الإحساس. الحياة تطلب الفن طلبًا طبيعيًا واجب الأداء؛ فأين هو في هذه الحضارة!

- إن الحياة هي التي حبست عرائسها الروحية عن البشر في هذا العصر!

- بل هن معروضات أمام الأرواح النابهة، ولكن ما أقل هذه الأرواح النابهة الآن؟ لقد.

استغلق الناس على أنفسهم، ختمهم العلم والعقل بخاتم أصفر من الذهب.

- ولكن هاهو ذا العلم يدعو المراهقين إلى الفنون الجميلة ليصرفهم عن شهوات أبدانهم.

- أو لا يملك إلا هذه الدعوة؟ إن الفنون الجميلة لها الذين يحبونها لا ينصرفون عنها. أما الذين يزدرونها فلا يقبلون عليها إقبالهم على نوع من العبث.

- فما الذي تطلبونه من العلم إذن؟ إنه لا يستطيع غير هذا.

- نريد أن يزف المراهقين وغيرهم إلى العرائس من المعاني والفكر، فإذا عشقوها عطروا لها أرواحهم؛ فإذا ساكنوها أعقبوا فيها فنونًا تسلكها الحياة الماضية إلى الأمام في سبيلها.

- وكيف يحدث هذا؟

- إن هذه العرائس تياهة مدللة لا تلين إلا أمام حس يرهف نفسه لها، فهل يستطيع العلم أن يرهف إحساس الناس؟

- لا. ولذلك يعمد في هذا إلى الفن مستعينًا به.

- ولكن استعراض الفن لا يخلق فنًا، وإنما يخلق الفن الإحساس بالحياة نفسها، وما دمنا ننزع إلى تحويل إنتاج البشرية بقدر ما نستطيع من الإنتاج البدني إلى الإنتاج الروحي فلابد أن نعنى بخلق الفنون وإنتاجها لا دراستها واستعراضها، وهذه العناية هي التي تنتهي مع الدأب إلى دنيا الروح.

- وهل يمكن أن نقيم دنيا من الروح؟

- نعم كما قامت دنيا من كهرباء موجبة وسالبة!

الفن علامة الإنسانية

قال جاجاديز بوز العالم الهندي إن النبات يتألم ويئن وأثبت ذلك. وأغلب الظن أن جاجاديز بوز لو لم يكن شرقيًا لكثر عليه أن ينسب الألم والتعبير عنه بالأنين إلى النبات، ولاكتفى بقوله إنه تبدو فيه اهتزازات واضطرابات تشبه انفعالات الألم عند الإنسان. فهذا هو نهج الغربيين من العلماء الذين يتصدون لدراسة الحياة: يؤثرون أن ينكروها أولًا ثم أن يبحثوا عنها ثانيًا على خلاف ما يفعل الشرقيون الذين يشعرون بها أولًا ثم يتعرفونها ثانيًا بادئين بأنفسهم غير منتهين إلى شيء، لأنهم يؤمنون بالروح ويحبون بطبعهم أن ينسبوها إلى الأحياء جميعًا ولا يسمحون لأنفسهم أن يقولوا ما قاله بعض علماء الغرب من أن الحيوان نفسه مسلوب الروح وأن كل ما يبدو عليه من إمارات الوجدان والعاطفة ليس إلا ردود أفعال لاهتزازات عصبية مادية تعتري الحيوان في ظروف خاصة وتبعًا لمؤثرات خاصة. وهم يذهبون في نكرانهم هذا إلى ابعد الحدود حتى لينكرون هذا الفرح الذي يعتري الكلب في استقبال صاحبه الغائب، وهذا الحزن الذي يعتريه لوفاة صاحبه الوفي والذي يحمله على الإضراب عن الطعام والشراب حتى يموت موتًا. ينكرون العاطفة الروحية على الحيوان ويقولون إنه لا يفرح للقاء صاحبه وإنما هو يضطرب لأن مرأى صاحبه يثير في نفسه أو في أعصابه صور الطعام والنعم التي يغدقها عليه، ثم يقفون أمام الكلب المنتحر من الحزن والأسى، وقد طأطئوا رؤوسهم يفكرون في هذه القوة التي نقّت الحيوان من أخص خصائص حيوانيته فأهمل الطعام والشراب والحياة نفسها...

يخفضون الرؤوس أمام هذا الكلب طويلًا يبحثون في أذهانهم عن علة صيامه؛ فإذا قال لهم قائل إن الحزن والأسى هما السبب انتفضوا وقالوا: لا. نحن لا نعرف. ولكننا نأبى أن يكون في الحيوان روح وحياة. أما بقية الناس فمنهم من لا يرون في فرح الكلب وحزنه إلا اضطرابات واهتزازات وانفعالات وردود أفعال عصبية مادية لا روح فيها ولا حياة، وهؤلاء يقبلون أن يصدقوا هؤلاء العلماء لأنهم مثلهم، وأن يثبتوا معهم أمام الكلب ينكرون عليه فرحه وحزنه إلى أن يقول لهم بلغة من اللغات الأوربية: إني فرح وإني حزين. ومن الناس من يحسون ويشعرون ويبادلون الحياة الشهقات والزفرات وأولئك آمنوا من هدى أنفسهم أن في الحيوان روحًا وحياة، وهم يسارعون إلى جاجاديز بوز يصدقونه حين يقول: إن النبات يتألم وينفعل بوجدان، ويئن وينطلق بتعبير. ويخرجون من هذا بأن الحيوان أولى من النبات به.

ورضي الله عن جاجاديز بوز الذي استطاع أن يثبت رأيه إثباتًا علميًا استخدم فيه آلات المعامل وأحماضها وأملاحها فلم يعد هناك مجال لإنكار ما أثبت، بل لقد عد صنيعه هذا من كرامات البشرية الحديثة فمنحه الغرب جائزة نوبل التي يتعزز بها على الشرقيين.

أثبت الشرق إذن أن النبات يتألم وأنه يئن من الألم، وقد يكون الألم علامة الروح الوحيدة في النبات وقد يكون معه غيرها ولكنه على أي حال يكفي للتدليل على الروح، فهو يستطيع أن يشملها وهو الذي ينزع بها إلى الخلاص! وهو -أخيرًا -حسبنا من علامات الروح في النبات فإذا ارتفعنا من النبات إلى الحيوان في سلسلة التطور والارتقاء الحيويين رأينا الحيوان يمتاز على النبات في الظاهر بالحركة. ورأينا الحيوان في حركته واحدًا من أثنين: إما خسيسا يتحرك في حياته حركات متشابهة متكررة لا تعديل فيها ولا تجديد ولا محاولة تدل على قدرة

التلاؤم مع الحياة. وإما رفيعا يتحرك في حياته حركات مختلفة يطرأ عليها التعديل كلما تغيرت الأحوال، ويطرأ عليها التجديد كلما استدعت الظروف التجديد، وتتحور ويتزايد وضوح المحاولة التي تدل بها على قدرة التلاؤم مع الحياة.

أما خسيس الحيوان فقد يسهل تصوره محرومًا من العقل إذا اعتبرنا أن العقل هو القوة التي تمكن الكائن الحي من الملاءمة بين نفسه وبين ظروف الحياة الطارئة المتجددة. ولكن هذا إذا سهل علينا تصوره، فإنه يتعذر علينا (بعد الذي أثبته جاجاديز بوز) أن نتصوره خاليًا من القوة الروحية التي يثور بها في نفسه وجدان الألم على الأقل. فإذا كنا ممن يؤمنون بالتطور والارتقاء الروحيين إلى جانب التطور والارتقاء البدنيين، فإننا من غير شك نتوقع أن يكون في أدنى الحيوان من علامات الروح شيء إلى جانب الألم، لأنه قد ثبت أن النبات يتألم، والحيوان مهما كان دنيئًا فهو من أرقى حياة وروحًا من النبات، إذ أنه كلما ارتقى الكائن الحي ارتقت روحه وزاد إحساسها وزادت قدرتها على التعبير عن نفسها.

أما الرفيع من الحيوان الذي تتضح مقدرته على التلاؤم مع ظروف الحياة الطارئة المتجددة، فهذا يصعب تصوره محرومًا من العقل لأن فيه من مظاهر العقل.

صحيح أننا نرى في سلوك الحيوان ما يدل على الغباء أحيانًا وما يدل على الغفلة وما يدل على الجهل، ولكننا إذا تدبرنا هذه المواقف التي يظهر فيها غباء الحيوان وغفلته وجهله رأينا أكثرها مما تصطنعه ظروف غير طبيعية في الحياة. ولما كان الحيوان حيوانًا وليس أستاذًا من أساتذة العلم الحديث فإنه المسكين يحار ويختبل أمام هذه الظروف الطارئة التي لم يسبق لأجداده الوقوع في مثلها وتجربتها ومعالجتها سبقًا

متكررًا كان يمكن أن يهيئه للتغلب عليها، وهو في هذا لا يزال يشبه أساتذة العلم الحديث حينما يقعون أمام المشكلات الحديثة المستغلقة... أليسوا هم أنفسهم يحارون ويختبلون؟ ألا يصدر عنهم من الأعمال ما يدل على الغباء والغفلة والجهل كما تصدر عن الحيوان أعمال تدل على هذى؟ إنهم هكذا من غير شك وإن في الحيوان عقلًا ولو تضاءل أمام عقل الإنسان وتواضع فإنه موجود لا يمكن إنكاره.

فإذا اعترفنا للحيوان الراقي بوجود العقل، أو بوادر العقل فيه، فإننا لا نملك إذن إلا أن نعترف له إلى جانب هذا بوجود الإحساس والعواطف فيه أيضًا، وقد نستغني عند هذا الحيوان الراقي عن براهين جاجاديزبوز إذا كنا ممن يرون ويشعرون ويحسون ويدركون الأشياء من غير أجهزة ومقاييس وموازين فإذا لم نكن من هؤلاء فقد قال جاجاديزبوز العالم من الهند إن النبات يتألم ويئن، وأثبت هذا إثباتًا يقنع عقل الغرب كما يرضي عقل الشرق، وأصبح من المكابرة بعد هذا أن تنكر الأحاسيس والعواطف على الحيوان، خصوصًا الحيوان الراقي الذي يسلك في حياته سلوكًا يشبه سلوك الإنسان فيبحث عن طعامه بحثًا منطقيًا، ويتقي عدوه اتقاء منطقيًا، ويبني مسكنه بهندسة منظمة بل إنه يمكر أحيانًا، ويتخابث ويحتال، مما يدل دلالة قاطعة على أنه حي يقظ يحاول أن يلائم بين نفسه وبين ظروف الحياة الطارئة فينجح أحيانًا، ويفشل أحيانًا، ولكنه لا يكف عن المحاولة ما دام حيًا فإذا تركنا حياة النبات والحيوان وقد تراءت لنا الروح فيها وعرجنا على حياة الإنسان رأيناها أنضج من حياتيهما في نواحيها الثلاث: النبات يحس ويعبر عن إحساسه، والحيوان يحس ويعقل ويعبر عن إحساسه وعقله، والإنسان يحس ويعقل ويعبر عن إحساسه وعقله فهل يزيد الإنسان على الحيوان في شيء...؟.

لا جاجاديزبوز ولا حتى أنا نرضى بهذا! ولا يرضى به شرقي قد كان من الممكن أن يقال هذا لو لم نقل إن الإنسان حلقة جديدة هي أرقى الحلقات في سلسلة التطور والارتقاء في الخلائق. وما دمنا قد قلنا هذا، وما دمنا رأينا التطور والارتقاء الماديين يلزمهما تطور وارتقاء روحيان، فلا بد أن يكون في الإنسان ميزة روحية ترقى به على الحيوان إلى جانب رقيه البدني المادي.

فما هي هذه الميزة الروحية؟

لنعد مرة أخرى إلى النبات والحيوان نتتبع فيهما منطق التطور والارتقاء لنهتدي به فيما نريد أن نعرفه من علامة الإنسانية التي لو فقدها الإنسان لم يكون غير حيوان، وإن نطق! فليس النطق على أشرف صورتيه إلا محاولة عقلية... أما الصورة الأخرى فهي التي نعرفها من الببغاء التي أنطقها الله لأمر ما، والتي لعله سبحانه أراد حين أنطقها أن يدرك المبتصرون شيئًا من تشابه الخلائق، وبريقًا من التوحد يسطع منها جميعًا، وإن تفاعلت وتبدلت وتطورت وارتقت...

النبات يرتقي حتى ليشابه الحيوان في حلقة الإسفنج، والحيوان يرتقي حتى ليشابه الإنسان في القرد أو ما هو أرقى خلقًا من القرد وهو الحلقة المفقودة التي ذكرها العلماء. وقد رأينا الإحساس يبدأ في الحياة أولًا ومعه تعبير صامت عنه، ثم نرى العقل ينشأ في الحيوانات المحتالة ومعه تعبير غامض عنه لم يثبت بعد للعلم، ولكننا قبل أن نترك حلقة الحيوان إلى حلقة الإنسان نرى الحيوان يعبر عن إحساسه تعبيرًا فيه تدليل على ذاته، وهو أشبه التعبير بالغناء البشري. فإذا تركنا حلقة الحيوان ومضينا إلى ما بعدها في سلسلة التطور والارتقاء وهي حلقة الإنسان رأينا هذا التعبير الذي يحاوله الحيوان في انحصار يتضح عند الإنسان وينفرج حتى ليسخر له الإنسان الأرقى حواسه جميعًا يجمع

أصوله بها ويطلقه فيها، ثم يصدره معبرًا عن ذاته كما يفعل البلبل والكروان ولكن في صور أكثر من صورهما، ثم معبرًا بعد ذلك عن غيره، وهو مالا يفعله أحد من الحيوان، لا البلبل ولا الكروان.

ونحن إذا حاولنا أن نجد شيئًا ظاهرًا يميز الإنسان مما عداه من المخلوقات في هذه الظاهرة لم نجد شيئًا. ذلك أنه إذا حسبنا النطق يميز الإنسان فالببغاء ناطقة، وإذا حسبنا الحياة الاجتماعية تميز الإنسان فالذئب والقرد والوعل حيوانات اجتماعية، وإذا حسبنا الإحساس يميز الإنسان فقد رأينا الحيوان بل والنبات يحسان، وإذا حسبنا العقل فالحيوان يعقل وإن أنكر العلماء، وهكذا فإننا نعجز في التفريق بين الحيوان والإنسان إلا باثنتين! هذه الظاهرة التي سجلناها، وظاهرة أخرى هي الدين... على انه يمكن بسهولة تامة أن نتصور النبات والحيوان والجماد معهما متدينين جميعًا إذا اعتبرنا أن الدين هو الإسلام وهو نهج النظم الطبيعية التي تؤدي إلى السلامة، وإذا لحظنا أن الأديان لم تلزم الإنسان إلا بعد أن انحرف عن نهج النظم الطبيعية التي كان يجب عليه أن ينهجها لتسلم حياته من الأضرار وأمراض البدن والروح، لم يبق أمامنا من شيء يميز الإنسان على سائر الكائنات غير هذه الظاهرة التي ذكرناها.

فما هي هذه الظاهرة؟

إنها الفن!

وهذه الظاهرة تسلك حين تسري في الإنسانية مسلك كل ظاهرة من ظواهر التطور والارتقاء. وقد رأينا ظواهر التطور والارتقاء تبدأ في الدنيء من الخلائق على صورة يسيرة غامضة، ثم تزدهر وتتضح حتى تتميز تميزًا تامًا واضحًا ملموسًا فيكون هذا التميز طابعًا لهذا الفريق من الخلائق ويكون هذا الفريق أنضجها وأرقاها في هذه الناحية

وكذلك الفن. نواته موجودة في البشر جميعًا لأنهم الحلقة الحيوية التي اختصتها الطبيعة به وهيأتها له. والدليل على ذلك أن الناس جميعًا يستجيبون للفن أو هم على الأقل يطربون للموسيقى. وما كانوا يملكون إلا هذا ما دام في الحيوان ما يغني كالكروان والبلبل، وما دام فيه ما يستجيب للصفير (وهو ضرب من الموسيقى) كالثعبان. وليس غناء الكروان والبلبل واستجابة الثعبان وطربه للصفير إلا بشيرًا بالفن أو بأنغامه على الأقل بشرت به الحياة الخلائق في الحيوان، وحققته تحقيقًا تامًا في الإنسان؛ غير أن الناس ليسوا سواء في تكوينهم الفني، وليس في هذا عجب لأن الناس ليسوا سواء في شيء من الأشياء، ولأن طبيعة الحياة أن تتشابه في العموميات، وأن تختلف في التفصيلات ليثبت لذوي الأبصار أن هذه الخلائق لا تصنع في مصنع فيه آلات وفيه قوالب وإنما تخرجها إرادة فنان يأبى أن يتكرر حين يتوحد سبحانه من فنان!

فإذا راق لنا أن نؤمن بهذا وأن نعتبر الفن علامة الإنسانية التي تسمو بها على الحيوانية والتي لا يمكن الإنسان أن يكون إنسانًا إلا إذا اتصف بها... إذا آمنا بهذا لزم أن يكون أقرب الناس من الفن أنضجهم إنسانية. ولزم أيضًا أن نتوقع لهذه العلامة الإنسانية أن يتزايد وضوحها وتمكنها حتى تشمل البشر جميعًا، وعندئذ تبتدئ بشائر الميزة الجديدة التي يريد الله أن يطبع بها الحلقة المقبلة من حلقات التطور في الخلائق. ومن يدري أي شيء سيكون هذا الطابع، وأي ميزة ستكون هذه الميزة؟! لعلها ميزة العقل الذي يطالبنا به الله لا عقل العلم الحديث.

فإذا كان الأمر كذلك كان ما يسعد الفن هو ما يسعد البشرية، وكانت كل محاولة يراد بها التقليل من شأن الفن محاولة مجرمة تعرقل التطوّر البشري.

فهل تنهج الإنسانية في حياتها الحالية نهجًا فنيًا يسعدها ويرقى بها؟ أو هي قد انحرفت عن طريق الفن إلى طريق آخر لا يمكن أن يقيد بها مهما كان صالحاً ومهما كان فيه خير لنواح بشرية غير ناحية الحس الروحي؟

إن الإنسانية قد انحرفت إلى هذه الطريق منذ أمنت بالحضارة والعلم اللذين يحتضنان المادة وإنه من الخير لها أن تفيق وأن تعود إلى حياة الحس الروحي فينتعش فيها الفن وتنتعش فيها الروح وترقى، وهذه سنة الله لو أردنا أن نتبع سنته.

الحب والفن والله

معراج غاندي الفنان

يصف القرآن أهل الجنة فيقول: (دعواهم فيها سبحانك الهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين).

ويعرف الإنجيل الله فيقول: (الله محبة).

ويروي الأستاذ فتحي رضوان في كتابة عن غاندي أنه لما كان في جنوب أفريقيا يجاهد الإنجليز في سبيل الهنود وكرامة إنسانيتهم كان في اجتماع، وفيما هو يغادره مصطحبا سيدة إنجليزية ألفته السيدة يتسلل من جانبيها إلى ركن مظلم، ورأته في الركن يواجه شبحا ورأته يمد يده إلى يد الشبح يأخذ منها شيئا ذا نصل براق، ورأته يخفي ذا النصل، ثم يتأبط الشبح فيخرج به من الظلمة إلى النور يسايره ويحادثه ويبساطه ويوداعه، ثم يعاهده ويستوثقه أمرًا جللًا ثم يحييه ويفارقه فينصرف الشاب الهندي مطمئنا مؤمنا معتزًا بما فيه من كبرياء المستشهد بعد أن كان الشبح المتخفي المتلصص النازع إلى الجريمة. فراع السيدة هذا الذي رأته وسألت غاندي فقال لها: أحسست أن هنديا كامنًا لي يريد القضاء عليّ لأنه حسب في السوء والغدر وخيانة الهنود، فسعيت إليه، وأنا مملوء بحبه كما أحب كل الهنود... اتجهت إليه وأنا في هذا الحب، فما مس حبي الغل في نفسه حتى نوره فتألق حبا، فتعارفنا وتفاهمنا فتآلفنا، وتفارقنا ونحن أخوان في حب الهند والذود عن الهند.

معجزة من معجزات الحب أيد الله بها غاندي ونجاه بها من كيد كان فيه الردى والهلاك، ولم تكن معجزة كهذه لتقع بين سمع إنسان وبصره من غير أن تفعم نفسه وتشغلها باستدراكها متحسسة متفهمة تواقة إلى تحصيلها بعد ما أعلن صاحبها أنها تيسرت له بتدريب روض عليه نفسه فكان هذا الإعلان إغراء بالمعجزات تباح لمن يريده، فدار بين السيدة وغاندي حديث تقصت فيه السيدة الحب وتعلمته من أستاذه الجديد، فكان مما علمه إياها أنه قضى زمنًا ينام في مسارح العقارب والثعابين، وإنه كان يأمن عدواتها، يؤمنه حب لها كان يطوي نفسه عليه، وكانت تحسه نفاثات السم فتسالمه وتتجاوزه.

معجزات أخر تناسب من روح غاندي في نومه. فأي رجل هو؟

إنه من أولئك الذين تحيتهم سلام... وإنه من أولئك الذين يحققون في الأرض وصية الإنجيل ودعوته إلى الحب الذي يقول إنه هو الله. فأي رجل هو؟

ليس في تاريخه ما يدل على أنه عبقري العقل كما يعرف الناس العباقرة. كان في صباه تلميذًا متأخرًا متهيبًا منقبضًا عن الدرس واللعب. وكان في شبابه طالبًا مجدًا مثابرًا شغالًا يعوض بالدأب والجهد ما تفوته عليه قلة الذكاء، وكان بعد ذلك في بدء اصطناعه المحاماة حيران متواضع الأمل، راضيًا كل الرضا بأيسر النجاح لو يؤاتيه من أشق العمل، فهو يستفتي المجربين عن طرق النجاح كاليائس منه، ثم يطرب ويسعد عندما يبشره أحدهم بأن له التوفيق ما كد وانكب على عمله بالعناية والإخلاص.

فهل كان غاندي على هذا غبيًا متراجع العقل حين كان في صباه التلميذ المتأخر المتهيب المنقبض عن الدرس واللعب، وهل كان في الحق قليل الذكاء حين كان في شبابه طالبًا شغالًا لا يعرف فيه

أساتذته ولا زملاؤه العقل المتألق الخطاف ويعرفون عنه الدأب والجد، وهل كان بعد ذلك المحامي الخائر الضعيف الجبان حين كان يسائل المجربين عن طريق النجاح في المحاماة وحين رضيت آماله أن تتواضع فتقعد عند تحصيل الرزق الهين والعيش التافه؟ هل كان غاندي هذا الإنسان الرخيص؟

الأدلة والدلائل من حياته تنفى عنه هذا. بل إنها تثبت له عكسه ونقيضه، فغاندي اليوم هو الرجل الأول بين رجال الإنسانية الروحية، وليس هو الرجل الخير بين رجال الإنسانية المادية. فلو كأنه ما حسبت له إنجلترا حسابًا وما رهبت جانبه، فهي لا تخشى القسيسين ولا الرهبان بل إنها لو أمكنها أن تصرف الناس اللذين تنزل بلادهم عن الاشتغال بأمور دنياهم ما ترددت في ذلك وما تأخرت عنه، وما امتنعت عن الإنفاق على الأديرة والمعابد تحشر فيها الناس زاهدين حالمين، لتفرغ لها الأرض ترتع فيها تأكل وتشرب وتلعب وتعيث فيها تحضيرًا وتمدينًا... أما وهي تخشاه، وتتقيه، وتتملقه حينًا وتقسو عليه حينًا، فلا بد أنها تعرف فيه خطرًا خطيرًا تخاف أن يكتفها وأن يخنقها بهذه الخيوط الدقيقة التي يغزلها من القطن والصوف بمغزله الصغير الذي لا يزيد ثقلًا ولا حجمًا على لعب الأطفال...

لا يمكن أن يكون غاندي هذا قريبًا من الغباء ولا الغفلة؛ وإنما هو ذكي يتسامى ذكاؤه على ذكاء الناس، وعاقل يتعالى عقله على عقولهم. وليس في هذا عجب ولا فيه خرق لنظم الطبيعة. فنحن إذا تأملنا نفس غاندي، رأينا الرفعة والسمو متحققين فيها مؤكدين في الناحيتين اللتين تكملان النفس الإنسانية إذا أضيفتا إلى العقل، وهاتان الناحيتان هما الخلق والحس. فسيرة غاندي تثبت أنه من أرفع الناس خلقًا، ومن أشدهم استساغة لمعاني الشرف والنبل والوفاء والبر والصدق والعطف

والتضحية، وغير هذه من الفضائل... فقد كان في الهند وفي إنجلترا وفي إفريقيا الجنوبية، مثلًا ساميًا للإنسان الفضيل الذي يأسر بالفضل أهله وذويه، والذي يعجز خصومه عن أن يتهموه بنقيصة خلقية، وعن أن يصفوه برذيلة. هذا على الرغم مما يرويه هو من عيوب نفسه وزلاتها. فقد اعترف على نفسه بأنه كان يسرق من أبيه ما يشتري به الدخان، كما سجل على نفسه أنه اقترف الزنا بإيحاء من صديق شقي كان يغريه بالفساد في أوائل أيام الشباب... فهذه الخطيئات العابرة لم تكن في الحق أكثر من محاولات صبيانية أراد غاندي أن يتذوق بعض الطعوم من لذائذ البدن عن طريقها فما تذوقها حتى عافها سريعًا، لأنه رأى فيها تعبدًا لغير الطلاقة والانطلاق. فعاد وصلح؛ ومنذ أن صلح وهو - فيما يعلم الله وفيما تقول حياته المكشوفة الصريحة -لا يقترف من الذنوب إلا هفوات الأولياء الصالحين.

هذه هي أخلاق غاندي! فهو بها أقرب من نعرف من الأحياء إلى الكمال، وهو إلى ذلك بإحساسه أقرب من نعرف من الأحياء إلى الكمال أيضًا. فقد مكنه الله من أن يصفي نفسه، وأن ينقيها حتى ليبلغ من صفائها ونقائها أن تعكس على النفوس أنوار إحساسها فتغيرها وتملأها بأمان النور وبهجته. وهذه مرحلة من الإضاءة الروحية يبلغها الإنسان بعد أن تتم له استضاءة نفسه هو بالإحساس الصادق والاستجابة لصدق الإحساس، وليس أدل على ما نقوله من هذا الحادث الذي طعن فيه غاندي بالحب ذلك الذي أراد أن يطعنه بذي النصل، فقتل فيه النزوع إلى الشر واعزم على الجريمة بعد أن جمع لها إحساسه وإرادته وإيمانه، وبعد أن دبر لها وقفته وخفيته وأعد لها سلاحه، وبعد أن هانت عليه فيها حياته وفرط لها في شبابه!

غاندي إذن هو أكمل من نعرف من الأحياء خلقًا وأنضجهم حسًا. فإذا صدق أنه قليل الذكاء ضعيف العقل لأنه احتسبه في التلاميذ من المتأخرين، ولأنه كان من الشبان الشغالين، ولأنه كان من المحامين الحيارى التائهين، فإن أكبر ما كان يمكن أن نتصوره يصل إليه من مراتب الرقي البشري هو أن يكون شيخًا لطريقة من طرق التعبد والتدين اللذين يتطلبان في الصالح من أشكالهما هذا الصفاء في الحس، وهذا الكمال في الأخلاق، وقد مهدت الحياة لغاندي أن يكون هذا الشيخ، ولكنه أباه، وإن أنكر عليه شعبه هذا الإباء، وإن قدسه أهل ملته ورفعوه إلى ما يطاول مرتبة الأنبياء. ذلك بأن شعبه إذا لم يكن مفطورًا على تقديس المصلحين الأتقياء، فهو على الأقل مأخوذ بهذا التقديس متدرب عليه، فلو أن غاندي شاء أن يكون زعيمًا من زعماء الدين لكان هذا الزعيم، ولما أنكر عليه الزعامة أحد، ولكنه عدل عن هذا إلى ناحية أخرى من نواحي الحياة تستلزم الكفاح العقلي والانتصار فيه، كما يسعدها التفوق الحسي والسلطان الخلقي. ولقد تم لغاندي النصر في هذه الناحية بشهادة بعض الكبار من رجال الإنجليز الذين قارعوه في الهند والذين وصفوه فقالوا: إنه رجل يمتاز في تكوينه على غيره من الرجال... وليست مغالبة الإنجليز الكبار بالأمر الهين، ولا الانتصار عليهم بالأمر المتاح لكل إنسان، والإنجليز حين يغالبهم الناس وحين يكافحون هم هؤلاء الغالبون لا يكافحونهم بالإحساس ولا بالأخلاق وإنما لهم في المكافحة سلاح آخر هو العقل، ويكاد العقل الإنجليزي يكون في أرقى مراتب العقل البشري، فإذا غلبهم غالب بسلاح العقل فلا يمكن أن يقال إنه قليل الذكاء أو إنه متقهقر العقل، ولقد غلبهم غاندي في مواقع كثيرة فلا بد من أن يكون أقوى منهم عقلًا وأشد ذكاء.

وإنه كذلك! وعلى هذا يتم له الانسجام النفسي القائم على أساس من النسب النفسية الرفيعة المتألفة من الحس الأنضج، والخلق الأكمل، والعقل الأوفر.

وهذا النوع من العقل هو الذي أردت أن ألفت إليه نظر القارئ في حديث اليوم. فقد رآني القارئ في أحاديث سابقة نافرًا من الزي الأوربي الذي يتزيى به العقل الحديث، والذي ينزع إلى العلم المادي والحضارة المادية نزوعًا يكبت في الإنسان إحساسه ويخمد أخلاقه. وقد رآني القارئ في حديث الأسبوع الماضي أرجو للإنسانية أن ترقى فيتحقق لها العقل الذي يطالبنا به الله فتحله محل هذا العقل الأوربي الذي لا يصدق فيه أسمه إلا من حيث إنه غلل الحس البشري وكتف الأخلاق كتفاً لا يسمح لها بالسمو إن لم يهبط بها إلى الحضيض.

عقل غاندي هو بشارة من بشائر الرقي الإنساني التي تسارع إلى الظهور في بعض مراحل التطور البشري، ولو لم تتأهب الإنسانية لإحسان استقبالها وإحسان استنباتها.

فما هي ميزة هذا العقل وما هو طابعه؟

إنه العقل النافذ الهادئ المنطلق إلى هدف يناديه من السماء والذي يدرك حقائق الأشياء وما بين الأشياء من علاقات منذ أن تعرض له هذه الأشياء، والذي يلهمه الإحساس الصادق فلا يخطئ في تقديره ولا تكييفه إياها، والذي تقوده الفضيلة إلى إحسان الموزانة بين الحقائق وبين الأشياء فيعرف أيها يأخذ لنفسه وأيها يدع، وأيها جدير بالاهتمام وأيها حقيق بالإهمال، وأيها لازم لتقويم كيان الفرد، وأيها لازم لصلاح المجتمع، وأيها بعد ذلك حشو للعقل يتخمه ولا يغذيه.

هذا هو العقل الذي زان الله به غاندي، وهو عقل ممتاز سام يدل على غاندي كما يدل عليه إحساسه وكما تدل عليه أخلاقه فهو عقل

خاص نادر لأن غاندي رجل نادر، وهو بطبعه غريب على هذه الحياة وهذه الحضارة، غريب على علومها وعلى الأجواء التي يجول فيها عقلها، ولذلك فإنه يكاد يصعب عليه أن يصاحب العقل العادي وأن يماشيه، وإنما هو ينفر من ذلك العقل العادي بطبيعة تكوينه، والناس الذين يعتبرون الحساب، وعلوم الرياضة (المتسحلفة) مقياسًا للذكاء يرون هذا الاختلاف بين عقل غاندي وبين عقلهم ويأبون أن يتلمسوا الضعف في أنفسهم، وينسبون الضعف والتأخر للعقل الخارق العجيب الذي يحيرهم والذي يرونه كالعاجز عن مجاراتهم، وهو في الحق مستقيم يتجه إلى هدف خاص ينزع إليه صاحبه بإحساسه وأخلاقه، فلا يلتوي على نفسه ولا يتعقد ولا يتعثر مثلما تتعثر العقول المتحضرة حينما تجمع علمها من المتناثرات من الحقائق لا يحدوها في هذا الجمع غرض ولا تريد من سبيله أن تصل إلى هدف ولا أن تؤدي به رسالة، ولا يهمها إذا كان هذا الذي تعلمه شيء يستحق أن يعلم أو أنه لا يستحق ذلك.

وهذا هو أشرف ما يدعيه العلماء لأنفسهم فهم يقولون إنهم يطلبون العلم للعلم، وهم حين يدعون هذا يحسبون أنهم يردون به على أولئك الذين ينتقصون قيمة علمهم ويتهمونه بأنه سعى إلى خدمة المادة في الحياة، أو أنه سعى إلى خدمة الشر. فإذا صح هذا الذي يدعونه ولم نقس عليهم قسوة من يتهمونهم بمختلف التهم لم يكن علمهم إذن إلا ضربًا من الفضول أو التجسس على قوي الطبيعة. والفضول سخف، والتجسس رذيلة.

أما العلم الذي يصل إليه العقل الفضيل الحساس فليس فيه من الفضول شيء ولا من سخف الفضول، وليس فيه من التجسس شيء ولا من رذيلة التجسس، وإنما هو علم يطلبه صاحبه لأنه يحبه، ويرفض ما عداه لأنه لا يريد شيئًا غيره، وهو يسعى إليه لأنه يشعر أن فيه كماله،

وأن في الوصول إليه راحته وأنه قبل هذا وذاك يرضي إحساسه وأخلاقه وينسجم معهما.

وهذا هو العلم الذي يبدو حين يطالع الناس وفيه من نفس صاحبه إحساس صاحبه وأخلاق صاحبه، كما يكون فيه من عقل صاحبه. فأي شيء يشبه هذا العلم؟ إنه يشبه الفن. وهو يشبه الفن من حيث أنه تعبير عن نفس صاحبه، ومن حيث إنه يحقق حاجة من حاجات صاحبه الروحية، وقد تشمل هذه الحاجة مطالب مجموعة خاصة من المجموعات البشرية وقد تشمل مطالب البشرية بأسرها.

هي إذن رسالة علمية عقلية، وهي قائمة على أساسين من الحس والخلق إلى جانب ما تقوم عليه من أساس العقل. وليس كل العلم هكذا، ولا كل العقول التي تجري وراء العلم هكذا. وإنما هي نفوس الفنانين التي تنحرف لضرورة من ضرورات الحياة عن إنتاج ما اصطلح الناس على اعتباره من الفنون الجميلة إلى أداء رسالات هي في ظاهرها غير هذه الفنون، وهي في حقيقتها فنون جميلة بل إنها أجمل الفنون. ذلك أنه إذا كان جميلًا أن ينشئ إنسان لحنًا أو قصيدة أو تمثالًا أو صورة فأجمل من ذلك أن ينشئ إنسان نفس إنسان آخر، والأجمل الأجمل أن ينشئ إنسان جيلًا من النفوس في جيل من الناس على صور من خياله. وليس أجمل من أن تقوم رسالة فنية على أساس من الحب يطوى المؤمنون بها نفوسهم عليه ويهبونه لأعدائهم كما يهبونه لأصدقائهم: فتحيتهم سلام وغايتهم محبة، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

الفن والحرية

مظاهر الحياة في الإنسان ثلاثة، يرجع إليها كل ما يصدر عنه من أفعال وأقوال وحركات وسكنات. وهذه المظاهر هي الحس والعقل والخلق. والإنسان الوسط يستطيع أن يلحظ في غيره بسهولة تامة النقص الذي يعتري ناحية أو أكثر من هذه النواحي الثلاث. فيحكم عليه بأنه بارد الحس، أو ناقص العقل، أو معوج الخلق. وليس يهمنا ما يقال من أن الحكم في هذه الأحوال لا يكون إلا تقديريًا، وإنما الذي يعنينا هو أن الحس والعقل والخلق موجودة في كل إنسان، وإن تفاوت وضوحها، ووضوح اتجاهاتها في الناس، وإن اختلفت معاييرها فليس ينفي وجود القمح أن يكيله ناس بالإردب، وأن يزنه ناس بالقنطار...

ولما كان الكمال البشري يستدعي رقي الإنسان في نواحيه جميعًا بحيث تنسجم هذه النواحي فيه وتتوازن وتتضافر فتخطو به خطوة جديدة في طريق التطور والارتقاء تلبية لنداء الطبيعة التي تريدهما، لزم أن يكون كل عمل من أعمال الإنسان صادرًا عن حس مرتق، وعقل مرتق، وخلق مرتق. فإذا اختل التوازن بين الحس والعقل والخلق في أي عمل من أعمال الإنسان عاب هذا الاختلال العمل وأنقص قدره.

ونحن إذا نظرنا إلى هذه النواحي الثلاث رأينا لكل ناحية منها طريقًا خاصًا من طرق الرقي الإنساني تسعى فيه. فالحس طريقه الفن، والعقل طريقه العلم، والخلق طريقه الفضيلة.

وأكمل الناس من غير شك هو الذي يرقى في معراج التطور بحسه وعقله وخلقه، وأقل منه كمالا من يرقى في هذا المعراج بناحيتين

فقط من نواحيه الثلاث، والأقل كمالًا من يرقى في هذا المعراج بناحية واحدة. وأغلب الناس غير متوازنين، بل إن أغلبهم تنصقل في نفسه ناحية واحدة فقط من هذه النواحي فتضيء ما حوله ولكن بلون نورها هي، بينما يتخافت إلى جانبها النوران المنبعثان من الناحيتين الأخريين. وهكذا كان في الناس فنانون لا صلة لهم بالعقل ولا بالعلوم إلا ما يرد عنهم اتهام الناس إياهم بالجنون، وفنانون لا صلة لهم بالعقل ولا بالخلق، ومنهم من يرميه بالفسق إلى جانب الجنون. وهكذا أيضًا كان في الناس علماء لا صلة لهم بالحس فهم باردون، وعلماء لا صلة لهم بالحس ولا بالخلق، ومنهم من يرميه الناس بالجشع إلى جانب البرود. وهكذا أخيرًا كان في الناس فضلاء تنبعث الفضيلة من أنفسهم فينالها من يكرههم كما تصيب من يحبهم لا يحبسونها ولو أوذوا، فلا هم عقلاء يحذرون كما يحذر غيرهم من العقلاء، ولا هم يحسون الشر فيما يحسون، وهؤلاء من بين أصحاب الفضيلة هم الأتقياء الزاهدون المضحون المظلومون.

وكل فرد من هؤلاء الأفراد الخارقين في نواحيهم الخاصة، والمتسامين فيها على مستوى الجمهور يعتبر عبقريًا في ناحية وإن أحصت عليه الإنسانية النقص في الناحيتين الأخريين، فما تزال العبقرية في نظر الناس ضربًا من ضروب الشذوذ، أو هي في الحق كذلك ما دامت تنحو إحدى نواحيه فقط.

فإذا أنكرنا على الإنسان أنانيته وطالبناه بان يرعى خير الإنسانية في كل عمل من أعماله وعلى الخصوص في تلك الأعمال التي تتصل بغيره وتؤثر فيه فإننا لا نملك إزاء الفنانين إلا أن نطالبهم بأن تتضافر نواحيهم الثلاث في إنتاجهم الفني كما نطلب ذلك من العلماء، وكما نطلب ذلك من أهل الفضيلة. فالفن أو أكمل الفن هو ما أرضى

العقل والخلق إلى جانب ما يرضي الحس، كما أن العلم أو أكمل العلم هو ما أرضى الحس والخلق إلى جانب ما يرضي العقل، وكما أن لفضيلة أو أكمل الفضيلة هي ما أرضى العقل والحس إلى جانب ما يرضي الخلق.

هذا إذا راعينا أن الفنون والعلوم والفضائل هي أهداف الإنسانية التي تلح في سبيل الوصول إلى استكمالها موحدة منسجمة متزنة. فإذا لم ندقق كل التدقيق في هذا، فإنه يجوز منا أن نبيح للفنان أن يحاول السير في طريقه بالحس وحده، وللعالم أن يسير بالعقل وحده، وللرجل الفاضل أن يسير بالخلق وحده.

ولكن للإنسانية مثلًا عاليًا تنزع إليه وتريد أن تلحقه وإن اختلفت صوره في أذهان الناس. ونحن إذا ما حاولنا أن نستخلص من بين هذه الصور الصورة التي نعتقد أنها أصدق صور الكمال فإننا عندئذ سنستطيع أن نتصور إلى جانبها صورة للإنسانية تكون هي أقرب صور.

الإنسان من الكمال، ويكون هذا تبعًا لمدى تحققه صورة المفرد من نواحي الكمال المطلوبة في صورة الإنسانية الكاملة. وسنرى كيف يمكن أن يتم التوازن بين حس الإنسان وعقله وخلقه في هذه الصورة العالية التي نكتشفها. وسنرى هل يتم هذا التوازن إذا كان للإنسان من حسه ومن عقله ومن خلقه مقادير متساوية، أو أن هذا التوازن يمكن أن يتم باختلاف في مقاديرها لدسم في بعضها وخفة في بعضها أو لضرورة تستوجب بعضها ولجواز يمكن به الاستغناء عن بعضها في بعض الأحيان.

سنختلف.

فقد اختلف الناس في هذا منذ أحسوا، ومنذ عقلوا، ومنذ كانت لهم أخلاق، وسيظلون مختلفين في هذا إلى أن يشاء الله فيكونوا

أمة واحدة، وهم الآن أمم. ولكل أمة منهم مثل، وكل أمة منهم تنزع إلى تحقيق مثلها جادة حينًا ومتكئة حينًا، ومتناومة في اغلب الأحيان.

فإذا سألني سائل عن أمتي، ومثلي الذي أنزع إليه مؤمنًا به، فأنا من أمة محمد. الفن عندي ما يحقق المثل الأعلى الذي رسمه محمد بدينه للحياة، والعلم عندي هو ما يحقق هذا المثل، والخلق عندي ما يتفق وروح الإسلام.

ولست أقهر إنسانًا على أن يدخل في أمتي، ولا على أن يتدله بمثلي الأعلى، ولكني أقولها بعد تأمل أعتقد أنه قد يكفي متعجلًا مثل من أبناء هذا العصر العجول... كلمة فيها من القدم رزانة الشيخوخة ومن الأبدية عنفوان الشباب، وهي أن المثل الأعلى الذي رسمه الإسلام للإنسان والصورة النقية التي رسمها للإنسانية هما صورة أرقى حي في أرقى صورة للحياة، فما كان عبثًا ما قال الله من أن محمدًا هو خاتم النبيين والمرسلين، وأن الإسلام هو ختام الأديان. ونحن إذا أنعمنا النظر في الإسلام رأيناه يشمل كل الأديان الساعية إلى الله، وأنه يبرئ الله مما ألحقه به الناس من الباطل والزيف، وإذا صدق هذا اصدق معه أن أسمى المثل الإنسانية العليا ليس إلا بعض المثل الإسلامي الأعلى، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نجعل الإسلام حكمًا على أعمال الإنسان الروحية كلها سواء منها الحسية والعقلية والخلقية، فإذا لم يرض بعض الناس عن الإسلام حكمًا فلهم أمثلتهم العليا يحكمونها كما يشاءون فيما يشاءون فكل ما يملكه عاجز ضعيف مثلي في مقام كهذا هو أن يقول لهم: قبل أن تستبعدوا الإسلام تدبروه.

فإذا تدبروه فهم معي مسلمون. فإذا أسلموا فهم أمة وسط، وما داموا أمة وسطًا فعليهم أن يراعوا العقل والخلق في فنهم فيجعلوا لهما فيه نصيبًا، وعليهم أن يراعوا الحس والخلق في علمهم فيجعلوا لهما فيه

نصيبًا، وعليهم أن يراعوا الحس والعقل في فضائلهم فيجعلوا لهما فيها نصيبًا. وهذا يحدث عفو خاطرهم بدون تدبر وبدون اختيار إذا كانوا مسلمين. فالإسلام هو دين الفطرة، كما أن الفن الصحيح السليم هو فن الفطرة، وكما أن العلم النافع هو علم الفطرة الذي يعلمه الله الناس سواء أكانوا أميين أم كانوا قارئين كاتبين، وكما أن الخلق القويم هو خلق الفطرة الذي يصدر عن الإنسان عفوًا من غير تدبير ومن غير اختيار.

وبعد أن رأينا للفطرة هذا الجلال وهذا الخطر، فإنه قد يعارضنا هنا سؤال له محل من التفكير، فقد يقول لنا قائل: أليس من فطرة الإنسان أن ينزع أحيانًا إلى ما تستنكره الأخلاق، والى ما يزور عنه العقل، فإذا لبى هذا النزوع بالفن كان فنه فطريًا، ولكنه مع هذا لم يكن متمشيًا مع الإسلام الذي وإن كان دين الفطرة فهو يرسم قيودًا، ويقيم من الأخلاق حراسًا على هذه القيود؟ وجوابنا على هذا السؤال هو أن النزوع بالفن إلى ما تنكره الأخلاق ما ينكره العقل ليس نزوعًا فطريًا، وإنما نزوع فيه شيء من النقص يعتري صاحبه إذ ينسى غيره، وإذ ينزع بالفن إلى تلبية إحساسه والتعبير عنه، فهو بهذا الفن يرضي نفسه وحدها، وفي ساعة عاجلة من ساعات حياته هو، فهو لا يحس بمستقبله ولا يفكر فيه، ولا يحس صلته بغيره ولا يفكر فيها، ولا يحس آثره في غيره ولا يفكر فيه.

ونحن لا نستطيع أن ننكر أن هذا الضرب من الفن... فن. ولكنه فن جامح ينظمه صاحبه من حبات نفسه ليرضى به هو وحده. ونحن إذا تأملنا ألوان الفن التي ينكرها العقل لم نجد غير الخرافات الفنية، وهي لا تؤذي الإنسانية في شيء إلا إذا حاول فنان خداع مقنع بالحيلة أن يحمل الناس على أن يؤمنوا بأنها حقيقة واقعة، ولم يظهر في الدنيا فنان

من هؤلاء إلا وخرج بخداعه عن دائرة الفن إلى دائرة النصب والاحتيال. وإذا تأملنا ألوان الفن التي ينكرها الخلق لم تجدها إلا لمامات تعرض لنواح من الحياة يكاد يعرفها الناس جميعًا، ويكادون يتذوقونها جميعًا، ويكادون يستطيعون أن يعبروا عنها جميعًا تعبيرًا لا يقل صدقًا ولا روعة عما يعبر به الفنانون عنها. فإن لم يتأت لجمهور الناس بالفعل التعبير عن هذه النواحي المبتذلة من الحياة التي يتعفف الفن الإسلامي عنها، فهم يستطيعون هذا التعبير بالقوة. وهذا هو ما يغرينا بالمضي في الحرص على اتباع الإسلام حتى في الفن؛ فهذا الذي نخسره من الفن بهذا الحرص تافه وهين ما دام جمهور الناس يستطيعونه، والفنان يطلب منه شيء أكثر مما يطلب من عامة الناس، وهو الكائن الحي الناضج الحياة الذي يتوقع منه الناس أن يكشف لهم بإحساسه المرهف من حقائق الحياة ومباهجها وجمالها ما لا يستطيعون هم أن ينتهوا إليه بحسهم، كما أنهم يحبون من علمائهم أن يهدوهم من حقائق الحياة ومنافعها إلى ما يعجزون هم عن أن يصلوا إليه، وكما انهم يحبون من الهداة الأتقياء ذوي الفضل أن يرسموا لهم ما ينبغي أن يكون، وما ينبغي إلا يكون.

وما أجل هذا الذي يجتمع له هذا كله فيكون هاديًا بفضائله وعلمه وفنه.

فإذا لم يتيسر هذا لرجال الإنسانية عفوًا فان الإرادة كفيلة بتحقيقه. ولست اقصد بالإرادة أن يعتزم الفنان أن يحقق في فنه الأخلاق الفاضلة، ونفسه بعيدة عن الأخلاق الفاضلة. فيخرج فنه متكلفًا سخيفًا يشعر كل من يتصل به بأنه فقد ميزته الأساسية الأولى، وهي أن يكون تلبية لنداء الطبيعة والفطرة، وإنما الذي اقصده هو أن يبدأ الفنان

بتحقيق الفضيلة في نفسه هو. فإذا أبدع فنًا بعد ذلك كان الفن صورة نفسه، وكان الفن فاضلًا.

وطبيعة التطور والارتقاء تطالب الفنانين بهذا، كما أنها تطالب به العلماء، وكما أنها تطالب به أصحاب الأخلاق والفضائل. ذلك أن الحياة الروحية للإنسان تريد أن تسمو وأن تتقدم الخطى إلى الامام، وطريقها إلى هذا الرقي هو نفوس الناس أنفسهم، وما دام في الإنسان إرادة فلابد من أن يكون لهذه الإرادة لزوم في تحقيق التطور والارتقاء بدليل أنها لا تزال موجودة في نفس الإنسان، وأن لإنسان لا يزال يمارسها في كل أعماله تقريبًا، وما دام الأمر كذلك فانه قد حق علينا أن نريد ترقية أنفسنا، ثم أن نعمل على هذه الترقية. أما الإرادة فأمرها بيدنا، وأما العمل فطريقه التدريب، وكما أن للعقل تدريبًا يساعده على بلوغ العمل، وكما أن للخلق تدريبًا يساعده على بلوغ الفضيلة، فإن للحس تدريبًا يساعده على بلوغ الفن!

وقد ارتضى كل فنان لنفسه مثلًا أعلى يريد أن يرقى إليه وأنا اخترت الإسلام من هذه المثل لمن يعجبهم اختياري.

أما أولئك الذين لا يريدون أن يرقوا فلهم أن يعربدوا بفنهم وبعلمهم، وبأخلاقهم ما شاءت لهم حرية التائه الضال.

الفن هو الإنتاج الروحي

يقول علماء البلاغة والتربية والمنطق وغيرهم من العلماء الذين يتصدون لدراسة العلوم المتصلة بالفنون أو العلوم التي من فوقها فنون: إن الفن هو التطبيق العملي للقوانين الخاصة بموضوع ما. فإذا كان موضوع البلاغة هو جمال الكلام فإن فن البلاغة هو التطبيق العملي للقوانين التي يحصل الجمال للكلام باتباعها. وإذا كان موضوع التربية هو تنشئة الأحداث على وجه من الصلاح أو على أوجه الصلاح كلها فإن فن التربية هو التطبيق العملي للقوانين التي يتم صلاح الأحداث باتباعها على وجه من الوجوه أو على أوجه الصلاح كلها؛ وإذا كان موضوع المنطق هو ربط الكلام على الحق الصادق حتى يطابقهُ فلا يزيد عليه ولا ينقص عنه ففن المنطق هو التطبيق العملي للقوانين التي يتحقق باتباعها هذا الربط وهذه المطابقة وبهذا التفصيل وبهذا التيسير أباح العلماء لأنفسهم ولتلاميذهم أن يستضعفوا الفنون وأن يستسهلوها وأن يعدوها، ما داموا قد وجدوا هذا التعريف الذي استنبطوه لها شيئًا، يمكن أن يحققه كل إنسان، وأن يمضي في تحققيه ما شاء له تهاون هذا التعريف الذي يمنع عن الفن ما يلزم لحدوثه، اللهم إلا أن يكون تطبيقاً عمليًّا للقوانين... وبهذه الإباحة كثر الكتاب الذين يطبقون قوانين التربية، وكثر المجادلون وتفاقم عدد المحامين الذين يطبقون قوانين المنطق. ومع هذه الكثرة فلا يزال الكتاب المبدعون قليلين، ولا

يزال المربون المثقفون نادرين، ولا يزال المجادلون والمحامون الساطعون يعدون في الجيل على أصابع اليد أو على أصابع اليدين فلو كان الفن حقاً هو التطبيق العملي للقوانين لكان كل من يعرف الطريق إلى هذا التطبيق فناناً كما كان من يعرف الطريق إلى التطبيق الخاصة بالأعداد حاسبًا، وكما كان كل من يعرف الطريق إلى تطبيق القوانين الخاصة بعناصر المادة كيميائيًا.

ولكن الأمر ليس كذلك. فبعض ما يدرس على الناس في ثوب الفن ليس فنًا، وبعض ما يساق إلى الناس مجردًا من ثوب الفن هو في الحقيقة فن. ولا بد أن يكون القارئ قد سمع لحنًا من الألحان قال عنه صاحبه ومن يروجون له، إنه موسيقي وجعلوا دليلهم على قولهم إن فيه تطبيقاً عمليًا لقوانين الأصوات والأنغام في الوقت الذي لم يستشعر حين سمعه إلا هذا التطبيق العملي وحده لهذه القوانين دون أن يدفع هذا اللحن إلى نفسه عاطفة ينقلها من نفس صائغه، أو خيالاً ينبعث من روحه، ويعبر عن إحساسه وذوقه وذاته. هذا بينما لا بد أن يكون القارئ قد راعه يومًا شراب أو عطر ألفه كيميائي ممن تنفذ نفوسهم وأذواقهم إلى تطبيقهم العملي لقوانين المادة وعناصرها. وكما أنه لا بد أن يكون قد سمع عن نسبة أينشتين، فأحس ما قيل عن غموضها وتعقيدها وتساميها أنها ليست تطبيقاً مجردًا لقوانين الأعداد وإنما هي حسبة فيها شيء من روح أينشتين نفسه لم يصل إليها إلا لأنه يتجه في تطبيقه لقوانين الأعداد اتجاهًا خاصًا به هو، مرجعه إحساسه الذي قاد تفكيره.

فإذا سلمنا بهذا استدعى الإنصاف أن نحكم على ذلك الموسيقي الذي لا يضع في لحنه إلا التطبيق العملي لقوانين الصوت والأنغام بأنه غير فنان. وعلى هذا القياس كان غير فنان كذلك كل من يتصدى لأي فن من الفنون وليس معه إلا ما اكتسبه من معرفة القوانين الخاصة

بهذا الفن، ومعرفة طرق تطبيقها. كما أن الإنصاف يستدعي إلى جانب هذا أن نصف بالفن كل من ينتج إنتاجًا فيه من نفسه وذوقه كأينشتين الذي ابتدع النسبية وككل كيميائي يبتدع شرابًا أو عطرًا فيه من ذوقه.

والنتيجة اللازمة لهذا هي أن ينهار هذا التعريف الذي وضعه علماء البلاغة والتربية والمنطق وأمثالهم للفن. فهو تعريف غير جامع مانع كما يقولون هم، لأنه يسمح للأدعياء بالدخول في زمرة الفنانين، كما أنه يحرم فنانين صادقين من الاستمتاع بحقهم الطبيعي في الإنصاف بالفن بينما هم جديرون بأن يتصفوا به وما دام هذا التعريف قد انهار فقد لزم أن نبحث عن تعريف آخر نقيمه مقامه ويكون فيه الجمع والمنع اللذان تتطلبهما صحة التعريف أما أنا فأحب أن يكون تعريف الفن هو هذا العنوان الذي رصدته على رأس هذا الحديث وهو أن الفن هو الإنتاج الروحي. ولست أرى من عيب لهذا التعريف إلا أنه يسمح لكثير من الأعمال البشرية التي اعتاد الناس ألا يحسبوها بين الفنون بأن تكون فنونا. فهو يسمح للنجارة إذا كان فيها من روح النجار وذوقه الخاص أن تكون فنًا، كما يسمح لصيد السمك إذا كان فيه من وسيلة خاصة ترجع إلى ذوق الصياد وتلهمه إياها روحه أن يكون فنًا. وهكذا فليس من عيب في هذا التعريف إلا إمكان تعميمه على الأعمال البشرية جميعًا وقد لا يكره هذا التعميم إلا الفئة الخاصة من الفنانين الذين يبدعون تلك الفنون التي اصطلح الناس على تسميتها فنونًا جميلة. فهؤلاء وحدهم أو بعضهم هم الذين يحبون أن يقتصر الإنصاف بالفن عليهم فلا يكون النجار فنانًا، ولا يكون صياد السمك فنانًا، ولا يكون أحد من الناس فنانًا إلا من كان أديبًا أو موسيقيًا أو ممثلًا، أو رسامًا، أو واحدًا من هؤلاء الذين يسبحون في (السنوات العلى) لا لشيء إلا اعتادوا التعالي على البشرية بأدبهم وموسيقاهم وتمثيلهم ورسمهم غير أن هذا في الواقع

نوع من الأرستقراطية القاصرة، أو المقصورة يكرهه الفن الصحيح. والفن لا يكرهه لأنه ديمقراطي بطبعه أو لأنه بلشفي، وإنما يكرهه لأنه دون الأرستقراطية التي يحبها لنفسه. فالفن متعصب كل التعصب لأرستقراطية الروح، وهو يفخر بأن ينسب إلى نفسه كل ما انتسب إلى الروح من أعمال البشر، حتى ولو كان نجارة أو صيد سمك، ولكنه يأبى أن ينسب إلى نفسه كل ما خلا من الروح حتى ولو كان لحنًا أو شعرًا أو رسمًا.

والفن في هذا لا يحيد عن الحق. وأشرف للفن أن يحتضن النجارة وصيد السمك متى جمعنا الروح والذوق، من أن يحنو على كلام سخيف منظوم ولكنه ميت، ومن أن يدخل إلى حظيرته ألحانًا روعي فيها أن تكون تطبيقا عمليًا لقوانين الصوت والنغم، ولكنها ما تزال جامدة كأنها الصوت ضغط وتركز حتى تحجر! ...

ولا أظن أهل الفنون الجميلة إلا مقتنعين بهذا الرأي، وما أظنهم بعد اليوم إلا آخذين به، فهم مقربون إليهم كل من تنفذ روحه إلى عمله، وكل من يسري من نفسه إلى عمله لونه الخاص يطبعه ويلونه، فيكون عمله تعبيرًا عنه يعرف به. وهم مبعدون عنهم كل أجرد النفس، قاحل الحس، مجدب الروح والشعور، وإن قضى حياته يعزف على الأوتار، أو يسود الصحائف بالحبر.

وقد يعنينا أن يؤمن الفنانون بهذا الرأي مثلما يعنينا أن يؤمن به الجمهور، وأن يأخذ به النقاد أخذًا شديدًا، وأن يعدلوا عن قياس الفنون إلا بمقياسه، وأن يشيع قياسهم لبقية الأعمال البشرية بهذا المقياس. فإنهم إذا فعلوا هذا فإنهم سيبرئون الفنون من طفيليات كثيرة تلتصق بها وتدعى النسبة إليها، كما أنهم سيعودون بالحق فيعترفون لكثير من الأعمال البشرية الفياضة بالروح بأنها فنون.

صحيح أنه مقياس قاس، ولكنه في الوقت نفسه مقياس عادل، إذ يرد إلى كثيرين من أصحاب الجهاد الروحي اعتبارهم الإنساني بعد ما ظلوا الأحقاب الطويلة وهم لا يحصون بين الناس إلا على أنهم صناع أو عمال. زد على ذلك أنه سيكشف لنا الأقنعة عن وجوه كثيرة متنكرة: لها أرواح ولها فنون ولكنها تتكلف في الحياة فنونًا غير فنونها فتعيش فيها ميتة بدون أرواح لأن أرواحها منصرفة إلى ما تصبو أليه وكي يتصور القارئ قسوة هذا المقياس فليطبقه على بعض الأعلام من الذين يقال عنهم في مصر إنهم فنانون فلنأخذ في الأدب مثلًا الأستاذ أحمد أمين، ولنأخذ في الموسيقى مثلًا الأستاذ محمد عبد الوهاب، ولنأخذ في التمثيل مثلًا الأستاذ جورج أبيض، ولنأخذ في الرسم مثلًا الأستاذ محمد ناجي الذي كان ناظرًا لمدرسة الفنون الجميلة العليا إلى عهد قريب.

أما الأستاذ أحمد أمين فقد أثبت عليه الدكتور زكي مبارك في مقالاته الأخيرة بالرسالة أنه أستاذ يكتب ولكنه لا يسري من روحه شيء في كتابته، فأنت لا تعرفه حين تقرؤه إذا كان راضيًا أو كان غاضبًا، وأنت لا تشعر به إلا هادئًا دائمًا وفاترًا. وحسبه هدوءًا وفتورًا ما سجل عليه الدكتور زكي مبارك مظهره وهو أنه عاش وقتًا طويلًا في الواحات فلم يعرف الناس انه عاش في الواحات إلا يوم أعلنت هذه الحقيقة الغريبة على صفحات الرسالة في الجدال الأخير. بل حسبه هدوءًا وفتورًا وبعدًا بفنه عن الروح أنه كان قاضيًا ومع هذا فإنه لم يكتب قصة واحدة من قصص الحياة التي عرضت له وهو في القضاء. وهذا دليل على أنه يعيش في دنيا، ويكتب في دنيا أخرى. وهذا يستدعي واحدة من اثنتين: فإما أن يكون الأستاذ أحمد أمين بروحين يعيش بواحدة ويكتب بالأخرى ولا صلة مطلقًا بين الواحدة والأخرى، وإما أن

يكون كما هو الآن متنكرًا يعيش ويكتب فلا تعرفه على حقيقته ما عاش أو كتب.

والأستاذ محمد عبد الوهاب لا يخلو له لحن من نص موسيقي يستحسنه في موسيقى سيد درويش أو في الموسيقى الغربية؛ ولا معنى لهذا إلا أن يكون الأستاذ عبد الوهاب عاجزًا عن إطلاق روحه بالتعبير الموسيقي ذي العاطفة أو الخيال على وجه من الحسن يرضيه، أو أنه عاجز عن التعبير الموسيقي أصلًا. فإذا أضفنا إلى اضطرابنا هذا في أمره أنه كثيرًا ما يخطئ في التصوير الموسيقي فيصور الفرح بأنغام الحزن، والحماسة بأنغام الخلاعة، والأنين بأنغام الطرب، عزز هذا لدينا سوء الظن به وقادنا هذا إلى الحكم على فنه بأنه مقطوع الصلة بالروح، وإلا كانت روحه مجنونة مختلطة الأحاسيس تضطرب إذ تشعر وإذ تعبر عن شعورها وهو ليس كذلك، وإنما روحه هي المنصرفة إلى شيء آخر غير الإبداع الموسيقي لأنها لم تخلق له. فالأستاذ محمد عبد الوهاب فنان متنكر مثل الأستاذ أحمد أمين والأستاذ محمد ناجي الذي يقنع في فنه بأن يرسم خطوطًا تشبه ما يراه من الخطوط في الخارج، وأن يصبغها بألوان تشبه ما يراه من الألوان في الخارج - لا يمكن أن يزيد في اعتبار الفن (الرسم) على أنه نقاش أمين - إذا كان أمينًا - يغني الفنان الذي يحتاج إلى نسخ كثيرة من الصورة الواحدة على آلة من آلات الطباعة، زد على ذلك أنه يحتاج دائمًا إلى شرح صوره بكلام وإشارات يتقنها أكثر مما يتقن التصوير، ويصل بها إلى إقناع جمهوره الذي يدعوه إلى مشاهدة صوره أو الذي يبيع له صوره، بجمال هذه الصور وروعتها، إذ يقعد هذا الجمهور عن إدراك هذا الجمال إذا اكتفى بالنظر إلى هذه الصور. فالأستاذ ناجي هو أيضًا مثل صاحبيه فنان متنكر: يحترف شيئًا لا يتقنه، ولا يتقن شيئًا لا يحترفه.

أما الأستاذ جورج أبيض الذي لم يتقن إلى اليوم إلا الأدوار الثلاثة أو الأربعة التي تعلمها أيام كان طالب بعثة التمثيل المصرية في باريس وهي عطيل ولويس الحادي عشر والملك لير ومضحك الملك فيما أظن، وقد أتقنها جميعًا بالأسلوب الفرنسي التلحيني الذي تعلمه في فرنسا والذي يصرخ في مشاهديه بين كلمة وأخرى، وبين كل حرف وآخر بأنه تمثيل ليس فيه من الطبيعة ولا حتى من التطبع شيء... الأستاذ جورج أبيض الذي انحصر فنه في هذا وحده يحرجنا كثيرًا إذا طالبنا بأن نعترف له بأنه فنان فيه روح نافذة معبرة...

تظهر في تمثيله...

وقد يسألنا سائل كيف نجح هؤلاء الأساتذة في حياتهم على الرغم مما تنكره عليهم جميعًا من صلة فنونهم بأرواحهم. ونحن نجيب عن هذا بأن ثلاثتهم: أحمد أمين ومحمد عبد الوهاب ومحمد ناجي قد نجحوا لأن لهم أرواحًا تسري في أعمالهم ولكن من طريق التجارة والإعلان لا من طريق الفن، وعلى هذا الأساس يتحقق رأينا ويصبح هؤلاء السادة الأفاضل فنانين تجارًا معلنين، وإن كانوا فنانين في هذه الفنون الجميلة التي تصدوا لها، والتي عرفهم بها الناس.

أما سر نجاح الأستاذ جورج أبيض فلا شك أنه رضاء الله عنه، فهو رجل طيب ما كان الله إلا ليجبر خاطره.

وأخيرًا، فهكذا يقسو مقياسنا، ولكنه هكذا يرحم حتى هؤلاء إذ يعتبر كلا منهم فنانًا فيما يسر له...

الحرب والفن

الشعوب المحاربة بطبعها هي الشعوب التي تسكن الصحاري والمراعي، وما يشبه الصحاري والمراعي من الأرض القاسية على أبنائها التي لا تجود عليهم برزق كاف أو رزق منتظم، فيحملهم الفقر على هجرة أرضهم والإغارة على أرض غيرهم لينهبوها ويعودوا إلى أرضهم، أو ليغتصبوها ويستوطنوها سادة لأهلها. فإذا اطمأنوا في أرضهم الجديدة فإنهم على مر الزمن قالعون عن طبعهم داخلون في طبعها فلا يبقى لهم من نزوعهم إلى المحاربة إلا ما سمحت به أما وهم على طبعهم الميال إلى الحرب فإن فنونهم تكون مما يلائم حياتهم. وهم في حياتهم رحالة، فقراء، مقاتلون؛ وقلقهم الدائم الذي يضطرهم إلى الهجرات المتتابعة لا يخلق عندهم الفنون التي تحتاج إلى أدوات ثقيلة، والى مكان تسكنه. لهذا لم يكن عند القوقاز تماثيل ولا صور، ولهذا لم يكن عند العرب موسيقى مما يستلزم عزفها الأدوات الثقيلة التي تزحم المحارب في المحارب. ولهذا لم يكد يكون عند الشعوب المحاربة من الفنون إلا الشعر والغناء والرقص أما فقرهم فيصبغ روح الفن نفسها، فهو يخلق فيهم حبًا للمال كما يخلق فيهم زهدًا فيه. فهم يحبونه لأنه دليل على البطولة الواجبة للحصول عليه لأنه لا يستخلص إلا بالحرب والمجاهدة؛ وهم يزهدون فيه لأنه ليس دليلًا على شيء من هذا، فقد يبذل الكريم ماله للمحتاج حتى يفتقر فلا يأسف على ضياعه ولا يمكنه أن يعلن حسرته عليه إلا إذا أراد أن يعرض بأهله وأن يتهمهم

بالتخلي عنه حتى ليستشعر الذل، أو إذا كان هذا الفقر نتيجة لكارثة لم يكن للإنسان يد في صدها كالطوفان أو الحريق.

ودأبهم على المقاتلة يشارك هذا الفقر في صبغة روح الفن كذلك، إذ يخلق لهم مثلًا عليًا من البطولة، والشجاعة، والكرم والسماحة، والمروءة، والعزة، واحترام الكبير صاحب التجارب مهما هرم وضعف، واحترام الصغير الضعيف، واحترام المرأة العاجزة، إلى غير ذلك من أخلاق الفتوة والفروسية.

ومن أبرز ما تخلقه الطبيعة في نفوس هؤلاء المحاربين: شدة الإيمان بالقضاء والقدر، وبإسراع هذه الحياة إلى الذهاب، وبهوان شأن هذه الحياة نفسها؛ فيخلق هذه في فنونهم إلى جانب عنفها الأصيل، روحًا من المرح والمجون والاستخفاف الذي يشبه الطيش أحيانًا، تشجيعًا لهم على الحرب، وتعزية لهم بين الحرب والحرب.

ويظهر هذا في الشعر، كما يظهر في الغناء، وكما يظهر في الرقص أما الشعر، فتكاد لا تخلو قصيدة جاهلية مما يدل على طبيعة العرب الأولى من ذكر النساء والخمر، والعبث... فوق أساسها القائم على الفخر وتعداد المآثر، ودلائل البطولة، وأيام النصر وأما الغناء فلم تجد به الطبيعة على العرب إلا لينفس به أفراد عن خوالج ذواتهم. وذلك أن الطبيعة في بلاد العرب تكاد تكون بكماء لا تعلم الآذان إلا حسن الإصغاء إلى الصمت، وذلك على خلاف أوطان القوقاز التي تشارف البحور من بعض أطرافها، وللبحور أصوات، والتي تنطوي على الجنات الصغار في بعض أنحائها، وفي هذه الجنات مياه وأطيار وأشجار ودواب، ولكل هذه أصوات، والتي قد تهب فيها على هذه الجنات نسائم، وقد تهب رياح، وللنسائم همسات، وللزوابع صرخات؛ وقد تعلم القوقاز من شدو الطبيعة هذا غناء أوفر مما تعلمه العرب، فكان لغنائهم ألوان

للأفراد، وألوان للجماعات، وألوان أخرى لشتى المباهج والأحزان، وألوان طاوعتهم في التعبير عن أنفسهم وما في أنفسهم من الحماسة والفخر والبطولة... وإلى جانب هذا، فإن في غناء القوقاز ما يقوم دليلًا على حبهم للنساء والخمر والعبث وأما الرقص ففيه هذا كله أيضًا... فهو رقص بالخناجر والسيوف. وهو ليس إلا تمثيلًا للحرب، فيه من عنفها وحدتها كل عنفها وحدتها، لا يخففها شيء إلا ما يذكره المحاربون دائمًا وهم في (أوقات الفراغ) من جمال النساء، وحلاوة الخمر، وبهجة العبث.

فالراقص العربي والراقص القوقازي يكران ويفران، ويضربان ويطعنان، ولكنهما مع هذا يتثنيان ويتخلعان رشاقة وتلطفًا إرضاء للمرأة، كما يرتشفان الهواء وهما يرقصان ثم يترنحان سكرًا أو تمثيلًا للسكر، كما يهزلان ويخلطان عبثًا ومرحًا ومجونًا.

هذه هي فنون الحرب في الشعوب المطبوعة على الحرب وهي منطلقة بفطرتها في براح الأرض.

وعندما تستقر هذه الشعوب تبدأ فيها فنون الاستقرار، فينشأ الرسم والنحت والخط والعمارة والتمثيل... ولعل أقرب مثل لهذه الشعوب هو الشعب التركي، فإنه لم تنشأ عنده هذه الفنون الأخرى إلا عندما اطمأن في أوربا، أما قبل ذلك فقد كان الشعب كله جيشًا، والجيش لا يملك أن يستقر لفن ما. ولم يظهر النحت في الحضارة التركية العثمانية لأنها كانت حضارة إسلامية، ولأن المسلمين ظلوا زمنًا طويلًا وهم يكرهون النحت لصلته القديمة بالوثنية الجاهلية التي أقام العرب فيها الأصنام ليعبدوها محاكاة لما كانت تفعله المدنيات التي كانت تطوق جزيرتهم. فالنحت ليس من فنون المحاربين، ولذلك فإننا لا نراه

عند القوقاز الذين لم يتسرب إليهم مثلما تسرب إلى العرب من رشح المدنيات.

وعندما تحارب الشعوب المستقرة بعضها بعضًا، أو عندما تصد هذه الشعوب غارة الغائرين عليها، تكف العمارة، ويكف النحت. وقد كان للرسم أن ينام أيضًا لولا أن الطباعة تمهد له الانتقال الذي يلائم الحرب. وقد كان للتمثيل أن يهدأ كذلك لولا أنه ينقلب دعايات حربية. أما الشعر والغناء والرقص فهي فنون الحرب التي تستطيع مصاحبتها ومعاشرتها في كل حين.

والعمارة تكف لأن الحرب تهدم القائم المبني فيما مضى، وهذا لا يشجع على البناء الجديد مادام البناء عرضة للهدم، والنحت يكف لأن صاحبه لن يجد عندما ينشغل الناس بالحرب من يزوره ليقرأ السلام على تمثاله، والرسم ليس من فنون الحرب الطبيعية لاستلزامه المكان والأدوات الثقيلة، وكذلك التمثيل، بل إن التمثيل يزيد على الرسم امتناعًا في الحرب لأنه يستلزم بطبعه كثيرًا من الهدوء والاستسلام إلى حادثات الزمان ليستخلص منها موضوعات، والهدوء في الحرب منعدم، ولا حوادث في الحرب إلا هذه المآسي ذات اللون الواحد والطابع الواحد، وهي مما يحسه الأفراد العاديون إحساسًا لا يمتاز عليه إحساس الفنانين امتيازًا كبيرًا، وهي مما يعبر عنه الناس في كل ساعة بأقوالهم وأفعالهم فهم في غنى عن ترديده وترجيعه في رحاب الفن ولكن الرسم أنقذته المطبعة فمكنته من الحياة في الحرب، والتمثيل استعانته الدعاية فأعانها وإنه لقدير على نجدتها.

والرسم والتمثيل فنان، وهما لا يستطيعان متى تيقظا أن يستعصيا على دوافع الحياة ومؤثراتها فلا بد أن يخضعا لما تخضع له فنون الحرب من هذه الدوافع وهذه المؤثرات. ولا بد أن تدب إليهما ما

تخلقه الحرب في الأحياء من الحماسة والفخر بالبطولة والفتوة وسائر فضائل الحرب، كما يجب أن يشيع فيها الميل إلى النساء والخمر والعبث. فهذا الموكب من الأحاسيس هو الذي تتجند له البشرية في الحرب والعالم اليوم في حرب، فهل ستنطبع الفنون بهذا الطابع الذي تبصمها به الحرب؟

قد كان العالم في حرب منذ ربع قرن. ولقد حدث أن تأثرت الفنون بالحرب، فتوقفت العمارة والنحت، وانتعش الشعر بروح الحماسة التي استطاعت بقدرة الله أن تصل حتى إلى مصر وإلى أمير شعرائها المترف المرحوم أحمد شوقي بك فقال:

بني مصـــــــر مكانكمو تهيًا فهيـا مهـدوا للملـك هيـا

خـذوا شمس النهـار لـه حليـًا ألم تـك تـاج أولكم مليـا؟

... ومع أن الشعب لم يكن يفهم هذا الكلام (النحوي) فقد أساغه في لحن صاغه له فرد من أفراده كان فقيهًا يقرأ القرآن في المقابر، وكان فقيرًا يستعين على الحياة في محنته بدهن الجدران وطلائها، وكان يغني في المواخير حيث كان يستطيع أن يجد من لا يتكبرون على الاستماع إليه وهو المرحوم الشيخ سيد درويش الذي غنى هذا النشيد بين عشرات الأغاني الملتهبة الأخرى وكما انتعش الشعر بهذه الروح الحماسية: سواء منه العربي والمصري الدارج، فقد انتعش الغناء بها في العالم كله وفي مصر أيضًا بفضل سيد درويش كذلك، ولم يبرأ الغناء في العالم كله، ومصر محسوبة في العالم، من الإسراف في ذكر النساء والخمر والعبث أما الرقص فقد جن جنونه في الدنيا، وكف الراقصون عن التانجو والفالس والفوكس تروت، وعفرتتهم

الشارلستون وأمثالها من الرقصات المجنونة المكهربة التي انتشرت في العالم على أثر هدأة الحرب، والتي أخذها العالم عن الجنود الذين اقتبسوها من زملائهم المحاربين الزنوج الذين كانوا يجمعون من المستعمرات، فرأوا فيها ما كانت تنزع إليه أجسامهم من الترنح والنزق. وقد مهد لهذه الرقصات الشعواء عند الناس حال النشاط الخارق وتوتر الأعصاب الذي استولى عليهم في الحرب أما الرسم فقد سخرته الحرب، فكان من أقوى وسائل الدعاية فيها، وازدهر منه الكاريكاتير الذي يحتمل سخرية الخصوم بالخصوم، والذي ينفسح لكل خيال يحلق إليه الرسام.

ومع هذا فلم يخل رسم الحرب من النساء والخمر والعبث، فقد انتشرت في الحرب العالمية الماضية صور النساء العاريات، والرجال العراة، كما ذاعت نكات السكارى المصورة وغيرها من النكات...

وكذلك التمثيل فقد احتضنت منه الدعاية جانبًا كما احتضن منه المجون جانبًا، فشارلي شابلن، وريجيدان، وكشكش بك، والبربري عثمان، كلهم من مواليد الحرب، وقد كانوا جميعًا في تمثيلهم يؤدون واجب الدعاية لأوطانهم وجيوشهم، كما كانوا جميعًا في يروحون عن الناس بتهريجهم. وإذا كانوا قد مثلوا شيئًا بعد الحرب فإن طابع الحرب ظاهر فيه إلى مدى بعيد، فالعالم لم يستطع أن يتحول بشعوره عن حالة الحرب إلا بعد وقت طويل من خمودها.

والذي يتابع روايات شارلي شابلن يرى أنها أخذت تتخلص شيئًا فشيئًا من التهريج المناسب للحرب، وتذهب شيئًا فشيئًا إلى نقد الحياة الإنسانية في جوهر نفسها وفي مظاهر اجتماعها حتى كانت روايته الأخيرة (العصر الحديث) نقدًا عامًا للإنسانية عامة.

ولكن شارلي لا بد أن يعود إلى فن الحرب منذ اليوم. بل لقد أعلن العالم بروايته (الديكتاتورية) التي سيقارع بها ألمانيا وهتلر والتي أعتقد أن أثرها في النيل منهما سيكون أعظم بكثير من حملة تجردها جيوش كثيرة عليهما... فإن هذه الرواية ستكون حملة يقود فيها شارلي شعبه الهائل الذي يكاد يشتمل أفراد الإنسانية جميعًا.

وكذلك من يتابع روايات نجيب الريحاني يرى أنها كانت في أيام الحرب دعاية وبهجة وتهريجًا وعرضًا موسيقيًا اتسع لثلاث زعامات فنية: هي زعامة نجيب الريحاني، وزعامة بديع خيري، وزعامة سيد درويش... ثم أخذ مسرح الريحاني بعد ذلك يهدأ قليلًا قليلًا، حتى مثل الريحاني في السنوات الأخيرة كوميديات تكاد تكون درامات من كثرة ما فيها من الجد إلى جانب الهزل، ومن وضوح الهدف الخلقي الذي كانت تنطلق إليه. فقد كان الريحاني أخيرًا زعيمًا مصريًا اجتماعيًا مصلحًا، هو وشريكه بديع.

وأجد الحق يجبرني على أن أشهد بها لله أن مسرح الريحاني هو البيئة الفنية التي تماشي الحياة الطبيعية في مصر أكثر من غيرها.

ولابد أن يتغير الريحاني في الحرب. ولكنه في هذه المرة لابد أن يرتقي عما كان عليه في الحرب السابقة، ولابد أن ينشر الدعاية والتهريج الأصيلين بين درر من موسيقى زكريا أحمد وفن الجد، وإن له في شارلي شابلن أستاذه أو زميله الكبير أسوة فإذا كان حال الفنون في الحرب العالمية الماضية هو هذا الحال الذي رأيناه فسيكون إذن حال الفنون هو هذا الحال نفسه في هذه الحرب العالمية القائمة إذا طال أمدها وتمكنت مؤثراتها من النفوس؛ وستكون هذه هي الحال في فنون الدنيا كلها، فإذا لم تظهر مثل هذه الفنون في مصر فان مصر إذن خالية من الفنانين...

وكل هؤلاء الذين يقولون نحن ونحن... عليهم أن يقروا في المخابئ وعلى أفواههم الكمامات... فهذا هو مجال الفن إذا كانوا يحسون أثر الحرب.

- فإذا لم يكونوا يحسون الحرب؟!

- فقد يحسون القيامة... فصبرًا إلى يوم يبعثون!

الفن بين (الآميبات) و(الاميبين)

لي صديقة صغيرة غاية ما تريده مني هو أن تسخر بي وأن تحطم كل رأي أبديه ولو كان إعجابًا بها وتقريظًا لها حتى آمنت بأنها دسيسة مسلطة عليّ فلم أعد أحمل كلامها محمل الجد ولو كان تعزيزًا لرأي كنت قد أراه وأصدق عليه. فنحن ما نكاد نلتقي حتى نختلف منذ نتبادل التحية. فإذا قلت لها: (نهارك سعيد) قالت: (وكيف عرفت؟). فإذا قلت لها إن هذا دعاء وليس خبرًا، سألتني: (ومتى كنت من أولياء الله الصالحين حتى تدعوه إلى إسعاد غيرك...؟ أفلا جربت دعائك لنفسك أولًا؟ فمن يدريك أن يستقبل الله رجاءك، من غضبه عليك، بسخطه ولعنته؟).

هذه هي صديقتي المفكرة التي قابلتني أمس وفي يدها العدد الأخير من الرسالة فما رأتني حتى نادتني:

- تعال، الله يخيبك!

- أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقية! ماذا حدث يا هذه؟

- حدث الحدث، ونزلت الكارثة. أهذا كلام تقوله عن استراوس وصاحبته؟

- وماذا كنت تريدين أن أقول؟ اكتبيه في ورقة حتى إذا اتفقنا عليه لا تعودين فتنقضينه...

- ناصح جدًا. من ذا الذي قال لك إن البارونة فشلت مع استراوس؟

- هي التي قالته، وأرجو ألا تسأليني متى قابلتها ولا أين لقيتها، فهي لم تقل لي أنا بالذات، وإنما عبرت بهجرانها لاستراوس عن هذا الفشل الذي تتكرينه.

- ولم لا يكون في هذا الهجر تعبير عن فشل استراوس نفسه؟ ألم يوافق هو عليه؟

- ربما يكون قد وافق عليه، ولكنه لم يسع إليه. ثم إنها هي التي بدأت مناوشته؛ فكان هذا دليلًا على أنها تريده، فهجرها إياه لا يدل بعد ذلك على شيء إلا أنها عجزت عما كانت تريد... فهي التي فشلت، وليس هو الذي فشل.

- بل إنه هو الذي فشل منذ سمح لها بأن تريده ولم تأخذه عزة الرجولة، ولم يبدأ هو بالإرادة وإعلانها.

- وما عزة الرجولة هذه؟

- به! أأنت أيضًا (ستراوس)؟

- فال اللّه ولا فالك! ولكني أريد أن أتفق معك على تحديد معناها حتى لا نختلف بعد في المناقشة.

- عزة الرجولة هي قوة الأمر التي خص اللّه بها الرجل ليتسلط بها على المرأة.

- وما المرأة؟

- والمرأة أيضًا تريد أن نتفق على تحديد معناها؟

- إذا كان لها معنى؟

- داهيتك أسود من الليل! المرأة هي شريكة الرجل في حياته

- بأي حق... إلا حق الضعف؟

- بحق القدرة على النسل. وليس رجل قادرًا عليه بغير امرأة

- كان استراوس قادرًا عليه بغير امرأة. وليس استراوس وحده الذي استطاعه، وإنما استطاعه مثله كثيرون غيره.

- هذا هراء. وإذا كان هناك من أعقب من غير شريك، فإنها مريم العذراء... ولم تكن رجلًا...

- وكانت آيتها: أنه كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا. لم يجد كتابًا، ولم يجد وحيًا، ولم يجد آية أخرى.

- ماذا تعني؟

- أعني أنها رضي الله عنها كانت هبة آل عمران للخبير الرحمن، وأنها اتقته وتبتلت له، فأغناها عما تطلبه كل امرأة من هذه الدنيا وهو الرزق، فيسره لها من حكمته وكرمه، ثم نفخ فيها من روحه، فكانت هذه هي معجزة المرأة الكبرى: أن ينفخ فيها من روح الله... ومع هذا الجلال، فإنها بمشيئة الله لم تعقب من روحه فكرة، وإنما أعقبت المسيح الإنسان (ص).

- وهو كلمة الله!

- المتجسدة! الجسد! ولا تنس أنه رجل، وانه أعقب دينًا جل من دين.

- وهو ابنها؟

- وهل أنكرت أنا هذا؟ ولكن دينه ليس منها!

- الدين من اللّه.

- وكل حق من اللّه، سواء أكان دينًا أم كان علمًا، أم كان فنًا...

- تريد أن تنسب الفنون أيضًا للّه؟ حرام عليك!

- حرمت عليك عيشتك! أليست الفنون هبات من اللّه ومنحًا؟ هل يستطيع كل إنسان أن يكون فنانًا إلا من وهبه اللّه القدرة على ذلك، ومن أخذ نفسه بطلبه... إن اللّه وعد عبده التقي أن يعطيه حتى يرضى...

وقد اتقته مريم (رضى اللّه عنها) فأعطاها رزقًا، واتقاه المسيح فأعطاه دينًا، ويتقيه ناس فيعطيهم فنونًا... ألم تسمعي بالإلهام؟

- ما أكثر الذي نسمعه، وما أقل المعقول فيه...

- ليست مسألة الفنون يا مولاتي شيئًا يفهم بالعقل... إنها كالحب تمامًا شيء يحس... هل تعرفين ما معنى (يحس)؟ كما تخزك الإبرة، وكما تلسعك النار... وكل ما في الأمر أنهما وخز ولسع روحيان... فهل تعرفين ما هي الروح؟

- من أمر ربي.

- ولا شيء غير هذا؟

- القرآن عرفها بهذا، فهل عندك أنت تعريف أوضح منه؟ توقح وقل ما شئت وعليّ وعلى الأزهر الشريف ما بعد ذلك.

- هو ذنبي أن أناقش امرأة إذا قهرتني جمعت على الناس شماتةً وغلا. فإذا هممت أن أصرعها استنجدت وولولت وبكت واستعدت على كل من تأخذ نفسه الرحمة والشفقة بحواء الضعيفة التي سيقتلها الوحش الذي هو أنا... أليس كذلك؟ أني ألقي السلاح يا آنسة.

- إذن فقد فشلت

- كما فشلت البارونة مع استراوس

- لكنها لم تفشل. وإنما كانت في أنوثتها أنصع من استراوس في رجولته. وقد كان عليه أن يتطهر وأن ينقي نفسه ليدركها وليطاول حسنها...

- أما كان استراوس متطهرًا؟ هذا الذي لم تخلبه الأبدان مثلما كانت تستهويه الأرواح من ورائها؟

- ما هذا الكلام الفارغ الذي لا معنى له. أنا لا أعرف إلا أن الله خلق الناس ذكرًا وأنثى. وكل منهما في حاجة إلى صاحبه. وعلى الرجل أن يطلب الأنثى وليس عليها أن تطلبه، بل إن عليها أن تتريث وأن تتمنع، وأن تنتظر حتى تتأكد أنه يريدها حقًا، كما قلت لك أن للرجولة عزة، فإن للأنوثة كرامة، وكرامة الأنوثة تقتضي هذا التريث وهذا التمنع حتى لا يجيء يوم يعير فيه الرجل المرأة بأنها هي التي طلبته، أو أنها هي التي ألقت بنفسها بين ذراعيه...

- ليس هذا كرامة كما تقولين، وإنما هو نفاق

- بل إنه كرامة

- كان يمكن أن يكون كرامة لو أنه كان ممكنًا أن تعيش المرأة من غير رجل، ولكن ما دامت هي تحتاج إليه حقًا فالتريث والتمنع واللف والدوران، وغير ذلك مما تتقنه بنات حواء ليس شيئًا غير الإثارة الجنسية، فإذا خفتت النزعة الجنسية في الرجل لم تعد هذه الصناعة تجدي شيئًا.

- ليست هذه صناعة، وإنما هي طبيعة

- فليكن

- فليكوننّ! والآن قل لي كيف تخفت النزعة الجنسية في الرجل.

- كلما كف عن حياة الحيوان، وكلما استخلص من الحياة الفضائل، ومن هذه الفضائل تلك الكرامة التي تتحدثين عنها، والتي تريدين أن تقفيها على الأنوثة.

- ولكن هذه الكرامة التي أتحدث عنها خاصة بالأنوثة وحدها ولا يمكن أن تجتمع في الرجل هي وقوة الطلب التي تلتهب فيه الرغبة، والتي تدفعه وتحدوه إلى التسلط على المرأة... لا يمكن أن يحدث هذا الذي تقوله إلا إذا كان الرجل (كالأميبة) ينشق جسده.

شقين، ثم ينشق كل شق منهما شقين، فلا ذكر، ولا أنثى، ولا زواج، ولا تناسل... فهل في الرجال (أميبون) يا هذا؟

- فيهم يا آنستي فيهم... كما أن في النساء (أميبات)!

- وما هؤلاء؟

- هن اللواتي بلغن للعالم رسالات. هن اللواتي خلفن لهذه الدنيا آثارًا. هن اللواتي أعرضن عن الرجال كثيرًا أو قليلًا، وتداخلن في أنفسهم، ثم انشققن على أنفسهن فأنجبن أحياء غير البنين والبنات. صحيح أنني لا اذكر منهم ولا واحدة لأني قليل الإطلاع على التاريخ، ولكنك تستطيعين أن تسألي عنهن واحدة من بنات جنسك المثقفات. اسألي الآنسة سهير القلماوي. اسألي الآنسة... لا...

- من هي الآنسة (لا) هذه؟ يابانية هي؟

- عجائب! ألا تعرفينها؟ أستاذتك التي لم يمنعها من دراسة هذا الموضوع معك، إلا أنكما أنثيان تعودتما ألا تمسا الحقائق إلا من بعيد.

- وما لك تحمل عليها هكذا؟

- لأنها (أميبة) ولكنها متكتمة... وأنت (أميبة) مثلها ولكنك مترددة!

- لا تقل هذا... إني أموت إذا خلته حقًا.

- وهل في الحق ما يفزع؟ الحق جميل، وهو من عند الله فأحبيه يا مكروبتي الصغيرة... ولا تكوني مثل بارونة استراوس!

- آه منك! لقد طوحت بنا إلى موضوع لم يكن يخطر لي مطلقًا أن أندفع إليه. وما دمنا قد مسسناه، فأظنك لا تمتنع عن المضي فيه إلى آخره... هل تصلح الحياة بين (الأميبة) و(الأميب)، كما تصلح بين والمرأة والرجل؟

- إما أن تصلح صلاحًا ما بعده صلاح... وإما أن تستحيل استحالة ما بعدها استحالة... ولا وسط بين الحالتين... والدرس الواحد في هذا الموضوع بعشرة جنيهات، فهو موضوع لم يطرقه إلى اليوم أحد.

- يا لك من مادي مظلم! عشرة جنيهات مرة واحدة!

- وعلى أي حال فإني أرضى منك الآن (بسيجارة)... أشعليها ولكن بعد أن تمسحي عن.

شفتيك هذا (الأحمر) الذي تكذبين به على الناس وعلى نفسك...

- يا لطيف! هل أكلت اليوم مسامير تنفخها في كلامك فتخرق بها الآذان والأفئدة؟

- يا ما أكلت المسامير والزجاج والنار... وتجيئين أنت في آخر الزمن لتهزئي بالسحار الذي علمته الأفاعي الصدق والرحمة، لنا الله معًا.

- هل هذا الكلام موجه لي أنا؟

- لك أنت، لكما أنتما، لكن أنتن، لي أنا، لنا نحن... ألا تحفظين بقية الضمائر؟

- لا ريب أنك مجنون؟

- ولم لا؟ ربما كانت البارونة تقول هذا عن استراوس! أما هو فلا ريب أنه قال هذا عنها.

- فأيهما كان المجنون؟

- الاثنان معًا!

- لماذا؟

- لأنهما افترقا، ولم يكن يصلح لها غيره، ولم يكن يصلح له غيرها. وما كانت لتهجره لو أنها قرأت مقال الأسبوع الماضي الذي أسخطك، فقد كانت (أميبة) لا يعجبها كل رجل، وكانت فيها قوة الإبداع الفني والانشقاق على نفسها، وإن كانت لم تمارسها لظنها أنها امرأة.

- بدأ الغرور يركبك

- أعتذر. وأستغفر الله. وأمسح الأرض بوجهي ورأسي بين يدي جلاله وعزته، وأعود فأقول إنهما كانا يتفقان لو أنهما رأيا نفسيهما كما أراني الله إياهما... ألم نقل إنهما كانا (آميبين) كل منهما ينشق

على نفسه فنونًا، أو لم أقل لك إن من (الأميبين) من يصلح (للأميبات) كل الصلاح. لقد كان هذان من هؤلاء.

- كيف؟

- الرجل يا آنستي ابن رجل وامرأة ففيه من الرجولة والأنوثة، وهو لم يكن رجلًا إلا لأنه ورث من أبيه أكثر مما ورث من أمه. فلو تعادل الذي ورثه منهما كان خنثى، وكذلك المرأة، وفي الرجال من تبلغ رجولتهم تسعين في المائة من حيويتهم وهؤلاء (حيوانون) أكثر منهم أناسا، ولعل راسبوتين كان من هؤلاء، فالتاريخ يروي أنه كان يعصف بالنساء عصفًا، ورجل مثل هذا لا تشبعه المرأة إلا إذا بلغت أنوثتها تسعين في المائة من حيويتها هي أيضًا، وهذا الصنف من الرجال والنساء هم الذين يصفهم أهل هذه الأيام بأنهم أصحاب السكس أبيل. أما الرجل الذي لا تزيد رجولته على ستين في المائة مثلًا فلا بد له من امرأة ليس فيها ما يزيد على ذلك من الأنوثة وهذان يتحابان ويتقاربان...

- وكيف تعرف هؤلاء الرجال... هل يظهرون للأعين؟

- نعم. فيهم من ملامح النساء... استدارة الأطراف، طراوة الصوت، دلال المشية، واستدارة الأعناق أيضًا... وبروز الأثداء... والنساء الأميبات فيهن من ملامح الرجال غزارة شعر الشاربين، وضئولة الأثداء، وعنف المشية... وهناك علامات غير هذه...

- ومتى لا يتحاب (الأميبان) ولا يتقاربان...

- عندما تشتط الأنوثة في الرجل، أو الرجولة في الأنثى. أو الاثنتان معًا... عندئذ يتنافران.

- وماذا أيضًا؟

- فكري برأسك هذا قليلًا... ولا تقولي (ماذا وكيف) أفأن لم تسألي لا تتفهمين؟

- لقد دخت... دوخك الله أنت واستراوس

- أما أنا فقد دوخني الزمن... وأما استراوس فقد دوخه الفن....

شيء ليس في الكتب...

... وقابلتني مرة أخرى صديقتي التي قدمتها إليك في الأسبوع الماضي وكانت كعادتها غاضبة، ولكنها في هذه المرة كان غضبها بالغًا نهايته من قبل أن تراني، وقد رأتني قبل أن أراها فلم أنتبه إليها إلا بعد أن وكزتني وهي تقول:

- أهكذا يكتب الناس في الصحف السيارة ما يدور بينهم وبين صديقاتهم من أحاديث، حتى إذا قرأها من يعرفونهم ويعرفونهن وقفوا على ناحية من تفكير فتاة تحب أن يعرف الناس عنها أنها مقطوعة الصلة بالرجال وأحوال الرجال ونفوس الرجال؟ ... أم أنت آليت على نفسك تخويف العرسان؟ حقاً إنك قليل الذوق!

- عفوك يا آنستي عفوك، فما أقصد إلى شيء من هذا، وإنما أدعو الله لك بالتيسير كما أسأله لك الصون. ثم أنتهزها فرصة لأسألك ما هو الذوق؟ هذا الذي تقولين إن نصيبي منه قليل...

- هو فضيحة جديدة تزفها بأجراسها للرسالة. سأشكوك للأستاذ الزيات!

- ليس للأستاذ الزيات شأن في هذا. فأجيبي وقولي: ما هو الذوق؟ أم أنت تقولين مالا تعرفين؟

- لا أعرف هه! فما هو الذوق يا ذواق؟ ...

- وأنا أيضًا لا أعرف

- إذن ففيم كانت هذه الأستاذية المنفوخة في سؤالك؟

- كانت في السؤال يا آنستي... أما تعرفين أني أستاذ في الجهل، والسؤال سألته بحثًا عن المعرفة؟ وهلا تحبين أن نتعرف الذوق معًا؟

- أتعرَّف الذوق معك أنت؟ وهل أنت تريد أن تعرف الذوق...؟

- بنعمة الله أردت. وإني أراك لا تعرفينه فقد وقفت عن تعريفه، فلم لا نتعرفه معًا... إنه شيء ليس في الكتب!

- لولا أنك مر!

- يا توفيق الله! من هنا نبدأ. أنت تصفين إنسانًا بأنه مُر، بينما الإنسان شيء لا يؤكل ولا يشرب حتى يعرف له طعم فكيف سولت لك نفسك هذا الخلط؟

- وأنا مالي! أتريد أن تحاسبني على اللغة أيضًا؟ هم الناس يقولون هذا عندما يريدون أن يصفوا إنسانًا بأنه... بأنه مر!

- إذن فأنت مقلدة في هذا... وسنفرض أيضًا أن كل من يصف الإنسان بالمرارة مقلد في وصفه... ولنمض إلى أن نلتقي بأول من وصف إنسانًا بهذا الوصف... ولنسأله: كيف سولت له نفسه هذا الخلط؟

- سيقول إنه تشبيه

- ونحن أيضًا نقول إنه تشبيه... ولكن كيف نشأ هذا التشبيه في ذهنه، وكيف قامت عنده هذه العلاقة بين الإنسان وبين المرارة وهي طعم من الطعوم لا يمكن أن يصل إلى الذهن إلا في أعصاب الجهاز الهضمي؟

- ما للجهاز الهضمي وما نحن فيه؟

- ليس للمرارة مدخل إلى الإنسان إلا من هذا الطريق... من الجهاز الهضمي وحده فلن نعدل في تفهم الذوق عن هذا. وسنبدأ بتقدير

حقيقتنا الأولى، وهي أن أول من وصف إنسانًا بأنه مر لابد أن تكون أعصاب جهازه الهضمي قد أحست المرارة منه فعلًا... وعلى هذا القياس يكون أول من وصف إنسانًا بأنه حلو قد أحست أعصاب جهازه الهضمي فيه بطعم السكر فعلًا. وهكذا.

- إذا وجدت إنسانًا معك يوافقك على هذا الكلام، فإني أعاهدك أن أقوم لك مدى الحياة خادمة، وعلىَّ دخانك! إن هذا الذي تقول لا يصح إلا عند نيام نيام حيث يأكل الناس بعضهم بعضًا فيتذوق بعضهم مرارة ذبيحته أو حلاوتها!

- وأنت لا يصح الذي تقولين، إلا إذا كان عقل الإنسان آلة مضطربة لا نظام لها ولا قانون، ولكن للعقل نظامًا وقانونًا، أفإذا قال هذا علماء النفس آمنت، فإذا قلته أنا تستهزئين؟

- لأنك تريد أن تخرج منه إلى نتيجة مضحكة!

- ليس ذنبي، ولا ذنب ما أقوله إنك تضحكين، اسكتي، ولنمضي... والله المعين.

- أنا معك... فماذا تريد أن تقول؟

- أريد أن أعود فأصلح ما قلت لأنه كلام سخيف

- ليتك تريد أن تعرض نفسك على طبيب حكيم. أما قلت لك إن الذي تقوله ليس شيئًا غير كلام المجانين...

- لا يا آنستي، إنه كلام معقول معقول، وكل ما في الأمر أنه سخيف، فلو أننا برأناه من السخف لصلح. ومن يدري فربما أصبح حقيقة علمية فيما بعد. اسمعي.

- هاأنا ذي سامعة. وإني لا أسألك يا رب رد القضاء وإنما أسألك اللطف فيه.

- المعروف أن الجهاز الهضمي لا يرسل إلى المخ إشاراته إلا بعد أن تؤثر فيه مؤثرات كيميائية... أليس كذلك؟

- إنه كذلك

- ونحن نريد الآن أن نعرف: ألا يمكن أن يرسل الجهاز الهضمي إلى المخ إشاراته هذه بغير وجود هذه المؤثرات الكيميائية؟

- يمكن هذا... عندما يتذكر الإنسان طعمًا من الطعوم

- ليس هذا التذكر إلا استعادة داخلية تلقائية تحدث في المخ وتسترجع بها صورة لحالة فاتت... فهو من نوعها... ولكنه على أي حال يفيدنا دليلًا أو قرينة على أنه من الممكن أن يتصور الذهن أو أن يدرك طعمًا من الطعوم بدون حاجة إلى المؤثر الكيميائي.

- حسن. وهل تحسب أن هناك مؤثرًا غير هذا المؤثر الكيميائي؟

- ولم لا؟ ألا يمكن أن يكون هناك مؤثر كهربائي مثلًا؟

- تريد أن تقول إننا عندما نرى إنسانًا ممن نصفهم بالحلاوة مثلًا، يجري منه تيار كهربائي فيدخل هذا التيار إلى أفواهنا أولًا، ثم تمضغه أسناننا، وتلوكه ألسنتنا، ثم ينزلق في المريء إلى المعدة، وفي أثناء هذا ترسل أعصاب الجهاز الهضمي إشارات إلى المخ تدل على أن هذا الإنسان حلو؟!.

- لست أريد أن أقول هذا بالضبط، وإنما أريد أن أقول شيئًا يشبهه. على أني لا أرى ما يمنع من إقرار هذا الذي تقولين، وتعززه عندي مشاهدات فطرية ليس من الحكمة أن ننكرها أو أن نغفلها.

- وما هي مشاهداتك هذه؟

- سأذكرها لك، ولكني أرجوك ألا تشمئزي منها فالحق لا يعرف الاشمئزاز ولا التقزز... لا تؤاخذيني... ألم تبصقي يومًا على إنسان رذل؟ أو في موقف رذل؟ ثم... ألم يسل لعابك يومًا استجابة لحلاوة... طفل أو طفلة... أو موقف حلو؟!. أجيبي...

- ما هذا (القرف)؟

- عدنا إلى تردد النساء ووجومهن عن الحق؟ أجيبي... ألم يحدث لك شيء من هذا؟ أما أنا فقد حدث لي كثيرًا، كما أني أعرف أناسًا كثيرين حدث لهم مثل هذا، وإني أعفيك من الإجابة عن هذا السؤال وأفرض أنك مخلوقة عجيبة لا تخضعين للقوانين التي تسري على غيرك من الأبشار... وأسألك لماذا يحدث للناس ما عداك طبعًا... هذا الذي ذكرناه؟ هل هو تأثير كيميائي أيضًا؟

- لا أظن!

- إذن فهو غير التأثير الكيميائي، وأنا أقول إنه تأثير كهربائي. صحيح أنني لا أستطيع أن اثبت هذا إثباتًا علميًا يقوم على أساس من التجربة الدقيقة... ولكن...

- ولكن هذا الكلام لا يمكن أن تقوم له قائمة إلا إذا أثبته

- وأنا لا يعنيني كثيرًا ولا قليلًا أن تقوم له قائمة، فلا أنا متعلق به ولا أنا حريص عليه... بل إني أحب أن أمحوه لأثبت مكانه شيئًا آخر أحبه أكثر مما أحب الكهرباء، وهو الروح.

- ولماذا لا تقصد إلى ذلك رأسًا ما دام هذا هو غرضك؟

- لأن الحديث عن الكهرباء في هذا الزمن أيسر قبولًا عند الناس من الحديث عن الروح، وقد يجد من يقتنع به في سهولة بل إنه قد يجد من يحاول إثباته... وربما وجد من يثبته.

- فأنت تخادع محادثك وتتملقه

- بل إني أستدرجه... دعيني من هذا، وعودي بنا إلى ما كنا فيه...

- وفي أي شيء كنا؟

- كنا نتحدث في (كهربات) الناس

- ياله من موضوع!

- إنه لا يزال أشتات موضوع ولما يتجمع... والآن نريد أن نعرف... ألا تختلف الكهرباء في المعادن والعناصر؟

- إنها تختلف... فنحن إذا دلكنا الكهرمان بالصوف أو الحرير انبعثت منه الكهرباء، ولكنها لا تنبعث منه إذا دلكناه بالقطن مثلًا...

- حسن. إن في هذا ما يشبه ذلك السر الذي يوفق بين ناس وناس، وينفر ناسًا من ناس. وقد يكون في هذا أيضًا سر الإذن الذي أباح به الإسلام للرجل أن يتزوج من أربع نساء.

- إن هذه قفزة عجيبة أريد لها توضيحًا...

- ألا تستطيعين أنت أن تذهبي وحدك إلى هذا التوضيح؟ الرجل كالكهرمان، والنساء كالصوف والقطن، ولكنهن أربع والصوف والقطن اثنان.

- ولكن النبي محمدًا تزوج أكثر من أربع...

- إنه النبي محمد الذي كانت كل كلمة من كلماته درسًا، والذي كان كل عمل من أعماله حكمة... وهو قد أحب خديجة حبًا، وأحب عائشة حبًا، وأحب زينب بنت جحش حبًا، وهكذا...

- ألا ترى أننا ابتعدنا عما كنا فيه... عد بنا إلى الكهرباء

- لا أريد أن أقول شيئًا بعد هذا... إلا أنه قد أصبح من السهل على هذا الأساس الذي وضعناه أن ندرك السبب في اتفاق مشارب الناس وفي اختلافها. والاتفاق هو الذي يحشد بعض الجماهير وراء بعض الفنانين إذ تجد الجماهير في الفنان قائدًا يقودها إلى ما تحبه وترتاح إلى الإحساس به، وينأى بها عما تكرهه وتتقزز من الإحساس به. وهذا هو ما يسمونه الذوق؟

- ولكن علماء النفس أدركوا هذا السر قبل أن تدركه أنت، وقالوا إن الناس أمزجة، وقسموا أمزجة الناس إلى أربعة: اللمفاوي، والسوداوي، والدموي، والصفراوي. وأرجعوا نشأة هذه الأمزجة إلى إفرازات تفرزها غدد خاصة في الأجسام. ولقد أعانهم علماء الطب والتشريح على مذهبهم هذا فأثبتوه لهم، وأنت تلقي كلامًا على عواهنه وتريد مني أن أصدقك وأن أعرض عن كلامهم من غير برهان تسوقه؟

- لا يا آنستي... أنا لم أطالبك بشيء من هذا. ولكني أذكرك بما يكون قد غاب عن ذاكرتك، وهو أن الفلاسفة الأقدمين قد قسموا أمزجة الناس إلى طبائع أربع أيضًا فقالوا إن من الناس من هو ترابي، وإن منهم الهوائي، وإن منهم المائي، وإن منهم الناري... وقد أندثر تقسيم الفلاسفة القدماء ولم يعد أحد يأخذ به وحل محله كلام أطبائك وعلماء نفسك!

- ولعلك تريد أن تقول إن مذهب حضرتك هذا هو الذي سيحل محل مذهب الأطباء وعلماء النفس؟

- العفو! ولكني أعود إلى السؤال الأول الذي بدأنا به هذا الحديث والذي جرنا إلى هذه النهاية المربكة... كيف وصف الواصف الأول إنسانًا بأنه حلو أو أنه مر بينما هو لم يذق له طعمًا؟

- إنه تشبيه

- بهذا أجبت في بادئ الأمر. فهل تريدين أن ندور؟ ...

معضلة بين الفن والقانون

قابلتني، وكنت أنا في هذه المرة المهموم فسألتني مشفقة:

- مالك؟

- إني متألم لصديق توشك نكبة أن تحل به ويلزمه العيش أن يمهد لها السبيل كي تحل به.

- أعوذ بالله! ومن صديقك هذا؟ أأعرفه؟

- تعرفينه، ويعرفه الكثيرون. هو محمود حسن إسماعيل الشاعر، والموظف بوزارة المعارف.

- محمود إسماعيل؟ وماذا جري له؟

- عينه اليسرى ضعيفة -فيما تقول الوزارة -وهو الآن يعالجها ليقويها لينجح في الفرصة الأخيرة من فرص الكشف الطبي، لتجدد الوزارة عقده وتثبته في وظيفته...

- فهل أصابها سوء وهو يعالجها؟

- يقول إنها تتقوى

- وأي شيء في هذا؟

- أن يمتنع الشعر على محمود!

- إيه؟ ولماذا

- لأن عينه اليسرى هي التي يرى بها الشعر ما دامت على هذه الحال.

- أما قلت لي هذا من الأول؟! حسبت ما يهمك جدًا. وماذا يا سيدي؟

- لا شيء، أما يكفيك هذا؟ كم هم الشعراء في مصر الذين يشبهون محمودًا في مصر الآن ومن قبل.

- يا سلام؟! أإلى هذا الحد تكبره؟

- هذا رأيي. وقد قلته له في وجهه، وأنت تعرفين قلة ما أقتنع بالناس، وندرة ما أصرح.

بهذا الاقتناع... وأنا كما قلت لك دائمًا أعجز العاجزين، وأضعف الضعفاء.

- ولكني لا أرى محمودًا كما تراه...

- فليكن رأيك فيه ما يكون. ولكن التاريخ سيشهد بأن الشعر العربي في مصر بدأت تكثر فيه التسابيح، والأنغام، والتهاويل، والطهارات، والأشعة، والضفادع، والثيران، والغربان، والنخيل، والبقول، والزهور، والأرواح، والأطياف، والمعازف، والمزامير، والمباسم، والمشاعل، والساقي، والأكواخ، و. و. و. من بعد اليوم المبارك ٢٣ يناير سنة ١٩٣٨.

- وهل استصدر محمود في هذا اليوم مرسومًا من القصر الملكي باستعمال هذه الألفاظ في الشعر، وطواف الشعراء حول ما يحيط بها من المباني؟

- نعم. لقد فعل محمود هذا

- لو لم أكن نسيت مسدسي في البيت! كيف حدث هذا يا أخانا؟

كان هذا اليوم المبارك هو ثالث أيام زفاف الفاروق، وكان جلالته قد أسعد محمودا والفن بالشرف الأسمى إذ دعاه إلى عابدين ليرتل بين يديه من أغاني الروح على أثر إعجابه به في حفل سمعه فيه، وكان هذا الحفل من حفلات الجمعية الخيرية الإسلامية، وقد هذه الدعوة حضرة صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا رئيس الوزارة السابقة ورئيس الجمعية الخيرية الإسلامية، والظل الأول الذي أظل محمودًا، كما شهدها حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي سابقًا، ورئيس الوزارة اليوم. وكانت هذه الدعوة هي هذا المرسوم، وقد تلاه محمود في عابدين... إنه الشعر الذي طاب للملك... والملك عارف، والملك عبقري، والملك ناقد فذ.

- ما أبرعك صديقًا!

- في اختيار أصدقائي لا في رفعهم بالباطل

- فمحمود إذن له قيمة...

- قيمة خطيرة. ولو أن ملكًا في غير مصر فعل هذا الذي فعله الفاروق أعزه الله في شاعر لبدأت الحكومة، وبدأ الشعب يدرسان هذا الشاعر، فالملك لا يدعو كل شاعر، والملك لا يفعل ما يفعل عبثًا، فهو يعرف أنه رأس الدولة، انظري إليه... من الذي أعلن عنه رضاه من رجال المسرح بعد أن استعرضهم جميعًا... أليس هو نجيب الريحاني؟ ... ومن في رجال مسرحنا مثل نجيب الريحاني؟ ... وانظري... ألم يغن عبد الوهاب في القصر.

- فحياه جلالته حين سمعه بكل ما في الملوك النبلاء من أدب ورقة...

- إنك بدأت تفهمين... يخيل إليّ أنه ليس في مصر من يحس ويتذوق ويفهم مثل فاروق الأول... تربية فؤاد الملك الذي اعتلى العرش بعد ما اختبر الحياة مع الملوك ومارس الحياة في صميمها بين أفراد الشعوب... فعرف بعد ذلك كيف يملك وكيف يحكم وكيف يعد للعرش من بعده ملكا يتغلغل بالإدراك في تلافيف وطنه... ومحمود الشاعر الذي قدره الفاروق والذي يهتف الجيش اليوم بنشيد من شعره، تساومه الآن وزارة المعارف ووزارة المالية في فنه، لا بد أن يفقده إذا أراد أن يبقي موظفاً... فهل يصح أن يحدث هذا؟ كلا! فلا بد أن يعفي من الكشف الطبي.

- ولكن أحدًا لم يطلب منه أن ينزل عن شعره!

- إنهم يريدون منه أن يقوي عينه اليسرى... وقد قلت لك إن عينه اليسرى هذه هي التي يرى بها الشعر.

- وكان يجب أن أقول لك أنا إن هذا هو كلام المجانين

- أرجوك ألا تصدري حكما على شيء قبل أن تبحثيه وتدرسيه... لقد عرض محمود عينه هذه على ثلاثة من أطباء العيون الممتازين في مصر هم الدكتور محمد صبحي وقد سمعت من الكثيرين أنه أقدر أطباء العيون في مصر، والدكتور محمد بكري وهو مدير مستشفى العيون بروض الفرج... مدير المستشفى... والدكتور إيليا ناشد وهو عضو كلية الجراحين بإنجلترا... بإنجلترا لا بمدغشقر... وقد قرر هؤلاء الفحول الثلاثة أن عينه اليسرى هذه سليمة، وأن أعصابها قوية... فهي إذن ليست ضعيفة...

- إذن فقد كان يجب عليها أن تنجح في الكشف الطبي

- هذا لو أنها كانت كبقية العيون التي ركبها الله تركيبًا يمكنها من رؤية علامات الكشف الطبي.

- وهل هي مركبة تركيبًا آخر فليست مثل عيون الناس؟

- أسمعي! هل تصدقين النبي محمدًا أو أنت تكذبينه؟

- معاذ الله أن أشك في قوله

- الحمد لله. كان محمد رسول الله يقول إنه كان يسمع الوحي سمعًا... وكان يوحي إليه في الموقعة الحربية، وكان يصاحبه في مواقعه الحربية جنوده وأنصاره فلا يسمع الوحي أحد غيره. فهل كانت أذن محمد كآذان بقية الناس؟ أجيبي؟

- كان محمد نبيًا

- وكان بشرًا مثلنا بتقرير القرآن وتقريره هو نفسه... فتكذبين القرآن؟

- حاشا الله...

- إذن فهو لا يختلف في شيء عن تكوين البشر... ومع هذا فقد كان يسمع ما لم يسمعه جيرانه والملتصقون به... فلا بد إذن أن يكون من تكوين البشر حالات خارقة نادرة يستعصي على الآلات وأجهزة الكشف الطبي قياسها...

- كأني أريد أن أوافقك وأن أقول إن هذا كلام معقول

- هو معقول لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فمحمد الرسول كان بشرًا وكان نبيّا له أذن تسمع ما لم يكن يسمعه الناس... وكذلك كان موسى. وكذلك في جهة أخرى كان بتهوفن الموسيقى الأصم. وكذلك كل موسيقى آخر يلتقط الأنغام من الجو. موهبة

السمع فيهم واحدة وإن كانت تتشكل بأشكال مختلفة... ومحمود حسن إسماعيل شاعر، وله عين يرى بها ما لا يراه بقية الناس... هذا أمر لا عجب فيه...

- لو كان لديك دليل مادي غير هذه الاستنباطات

- الدليل موجود... وهو في شعر محمود... أقرئيه تجدي تسعين في المائة منه على الأقل كلها صور بصرية... إنه يشبه حتى المسموعات بالمرئيات... إنه يرسم معانيه صورًا كل صورة منها يمكن إن توضع في إطار... إن شعره كله يمكن أن يترجم إلى رسوم... فكيف يتاح له هذا إلا إذا كان يرى هذا الذي يصفه... لا تقولي إنه يتكلف هذا... فالمتكلف لا يستطيع أن يستمر وأن يتجدد وأن يفيض مثلما يفعل محمود... إنه يرى هذه الأشياء حقا... أقرئي شعره!

- فليكن هذا حقًا... فكيف نحكم بأنه يرى هذه الأشياء بعينه اليسرى لا اليمنى...

- لأنه يغمض عينه اليسرى حين يكتب... أنا أعرفه... وقد رأيته كثيرًا وهو يسبح وراء خياله... كما رأيته كثيرًا وهو يكتب... ورأيته يغمض عينه اليسرى كلما كتب شعرًا.

- قد تكون عادة!

- لا. بل إنه يغمض عينه اليسرى ليسترجع هذه الصور التي يصفها وليراها في وضوح... ويفتح عينه اليمنى ليرى بها القلم والورق و(اللكي سترايك).

- يا لها من خرافة!

- إنها ليست خرافة... وإنما هي رأي... ومع أنه رأيي فأني لا أريد أن أقطع به، فإن كنت قد تعلمت شيئًا فإن أساتذتي الذين علموني لا يزالون بحمد الله موجودين على قيد الحياة...

وهم جميعًا طوع أمر وزارة المعارف , ووزير المعارف رجل من رجال التربية وعلم النفس فهو عالم ومعلم قبل أن يكون سياسيًا ووزيرًا... ووكيل المعارف رجل من المجتهدين وممن لهم آراء جديدة في فنه، وممن لن تقف عقولهم عند القديم المقرر... فهو يرحب بالدراسات الجديدة من غير شك... فهذا وزير عالم وهذا وكيل مجتهد، والأستاذ عبد السلام القباني المتفنن في دراسات النفس وتجارب التربية موجود في معهد التربية للمعلمين وهو وكيله، والدكتور عبد العزيز القوصي أستاذ علم النفس بالمعهد موجود أيضًا وأظن أن الرسالة القيمة التي نال بها إجازة الدكتوراه في علم النفس على يد سبيرمان كبير الأساتذة الإنجليز كانت خاصة بالعين، والبصر، والنظر... وهذه وزارة المعارف من أولها إلى آخرها بمن فيها من علماء النفس، والمربين والأدباء والفلاسفة... وهذه حالة شاذة يصح أن تدرس... فلماذا لا تدرس؟ هي عين يقولون إنها ضعيفة، ويقول الأطباء إنها قوية، ويقولون إنها لا ترى علامات الكشف الطبي، وأقول إنها ترى صورًا لا يراها الناس ويصفها محمود بالشعر... فكيف تحكم حكمًا صحيحًا في هذه المعضلة إلا بالدرس... أليس الدرس هو الطريق الطبيعي المنطقي الوحيد الذي يستطيع الإنسان به أن يصدر حكمًا في مسألة من المسائل؟ فإذا لم نسلك هذا الطريق الوحيد مع شاعر رضى عنه الملك وينشد جيشنا شعره... فمع من نسلك طريق المنطق والعقل والطبيعة... إن المسألة أخطر مما تتوهمين!

- ولكن كيف تدرس هذه الحال؟

- أنا لا أعرف كيف... فلست دكتورًا في علم النفس، ولا أنا شيء ما... وإنما هذه فكرة خطرت... أنا ذهبت إلى وزارة المعارف ومعي إنسان في (زكيبة)، وقلت لها يا وزارة المعارف خذي هذا الإنسان وأدخليه في مدرسة من مدارسك الابتدائية، فهل ترفضه الوزارة، أو تقبله قبل أن تخرجه من الزكيبة فتعرف إذا كان صبيًا أو صبية... وهل هو أو هي مستوف أو مستوفاة لشروط الدخول في المدارس الابتدائية... أو أمره غير ذلك... كذلك موقفي الآن مع وزارة المعارف وفي يدي محمود إسماعيل... أفلا يجب عليها أن تتعرف ما هو؟ ... قبل أن تفصله أو تثبته أو تطالبه بتقوية عينه... أو...

- وما لوزارة المعارف وهذا كله... إنها تريد موظفين بعيون قوية.

- اللهم يا رب عفوك... إن في الموظفين من ليست لهم عيون قوية ولا عيون... قوية...

- وماذا يضره لو أن عينه تقوت؟

- إنها لن تتقوى يا إنسانة... إنها مخلوقة هكذا... هذه هي قوتها. فهل يرضي مصر لو فشل محمود في تقوية عينه أن تلفظه وزارة المعارف فيسرح على الأبواب يقول: (الحمد لرب مقتدر) إن المسكين يضع على عينيه اليوم مناظير زاعمًا أنها وسيلته إلى تقوية عينه وهو يخدع نفسه أحيانًا فيزعم أنها تقوت.

- ولماذا تقول إنه يخدع نفسه؟

- له شهر وأكثر وهو بهذه المناظير الثلاثة. واحد معتم للشمس، وواحد مكبر لتقوية عينه اليسرى، وواحد زجاج على اليسرى ليكشفها فترى، وسواد على اليمنى ليمنعها من الرؤية تمكينًا لليسرى من التدرب على النظر... ومنذ عصب عينيه بهذه المناظير قد كف عن الشعر. ألست

تقرئين (الرسالة) على الدوام؟ ألم تلحظي أنه احتجب منذ خمسة أو ستة أسابيع؟ ... لقد كان يكتب قصيدة للإذاعة فكتب منها سبعين بيتًا إلا شطرًا واحدًا وقف عن كتابته منذ طلسم عينيه بهذه المناظير. إنه الآن لا يرى ما كان يراه من قبل وهو يعاني أزمة نفسية قاتلة، ولا عزاء له في هذا كله إلا أن يردد دائمًا قوله: (إن عينه تقوت)، وهو يقولها كلما عجز عن رؤية شيء واضح. في سبيل الوظيفة والخضوع للنص الحرفي القديم في القانون سيختل عقل شاعر شاب فذ كان يكفيه ما يلاقيه الشباب من إنكار الشيوخ وبطشهم في هذا الزمن... فكيف ننقذه...؟

- أكتب في هذا الموضوع؟!

- ومن أنا حتى أكتب فيسمع كلامي؟!

- إنك إنسان ما... ولكن الكلام الذي تقوله معقول. والذين بيدهم الأمر كلهم عقلاء... وأصلبهم وهو وزير المالية أشدهم إيمانًا بالعقل، فهو مهندس وبالعقل وحده استطاع أن يكون وزيرًا للحربية ثم وزيرًا للمالية... وهو مهندس... ولم يستطع هذا إلا لأن له عقلًا ناضجًا... ثق بأنه سيكون في صفك...

- إنك تشجعينني

- أكتب واطلب من وزارة المعارف أن تؤلف لجنة من علمائها لدراسة هذا الموضوع...

- طيب. على الله...

وهأنذا كتبت... فمن يكتب عن معضلتي أنا؟

ملامح الأرواح

- هل سمعت أن شارلس لوتون سيمثل هتلر للسينما؟

- قرأت ذلك ومن يومها وأنا مشتاق لمشاهدة لوتون في هتلر

- أظن أنه لم ينجح

- لماذا؟

- لأن لوتون طويل عريض، وهتلر ضئيل الجسم

- وأي شيء في هذا؟ إن الذي سيمثله لوتون من هتلر نفسه لا بدنه -ولكن هذه الصورة الحاضرة في أذهاننا والتي نعرف بها هتلر لا يمكن أن يمحوها لوتون بتمثيله، وسيذكر الناس عندما يرونه أنه ممثل يمثل، بل قد يرى بعض الناس أنه ممثل أغتصب دورًا ليس هو أهلًا له.

- هذا يخيل إليك. وقد يكون الذي تقولين حقًا إذا كان الممثل ضعيفًا... ولكن لوتون. ألم تريه في هنري الثامن؟ لقد كان هو هنري الثامن.

- لأنه يشبه هنري الثامن كثيرًا في جسمه، وعلى الخصوص في وجهه...

- صحيح! فكيف رأيت هاري بور في بتهوفن؟ هاري بور طويل عريض هو أيضًا وكان بتهوفن ضئيل الجسم مثل هتلر، ومع هذا فلا أظن أحدًا من النظارة أحس شيئًا من الكذب في بتهوفن الذي أخرجه

هاري بور... اللهم إلا أولئك الذين يذهبون إلى السينما ليعرضوا على الناس أجسامهم وأزياءهم...

- قد يكون التوفيق أتيح لهاري بور في بتهوفن، لأن هاري بور ممثل وبتهوفن موسيقي، وليس عسيرًا على الفنان أن يدرك الدخائل في نفس فنان مثله، فإذا حاكاه ومثله كان كمن يحاكي نفسه ويمثلها...

- واللّه إنها فكرة لم أكن أتوقع أن تجول في ذهنك، وإنها لجديرة بالتأمل والدرس، وإنك لجدير بالمكافأة عليها... خذي هذه النكلة...

- شكرًا. سأعلقها على باب البيت تعويذة وحجابًا دون إبليس...

- بل أعيديها فقد وجدت الرد... هات... إن هتلر أيضًا ممثل

- رحت في داهية! هل أنت ممن يؤمنون بهذا الذي يدعيه من أنه فنان؟!.

- ليس هذا قصدي، وإنما الذي أقصد إليه هو أن الناس جميعًا يمثلون.

- آه. هذه فكرة أخرى. ولكن ألا ترين أن فكرتك هذه لو كانت صحيحة لما ارتفع سعر التمثيل.

في الدنيا، ولما كان أجر الممثل المجيد آلاف الريالات ومئات الجنيهات في الدور الذي لا يستغرق منه إلا الساعات القليلة...

- الحق معك

- إذن فرأيك غير صحيح...

- لماذا؟ أفلا يستطيع الحق أن يكون معك وأن يكون معي في الوقت نفسه؟

- يستطيع. قادر على كل شيء...

- ولا قادر غيره... والتوفيق بين الذي تقولين وبين الذي أقول يسير. فأما أن كل الناس ممثلون فهذا حق. وأما أن أندر الناس هم الذين يستطيعون أن يمثلوا فهذا حق أيضًا، فالناس كالأواني: كل آنية تصلح لأن تعبأ بما يملؤها، فإذا امتلأت لم تعد تصلح لأن تمتلئ مرة أخرى، إلا إذا فرغت. ومن الناس من يملك نفسه يملؤها ويفرغها وهؤلاء هم الممثلون المجيدون، ومنهم من امتلأت نفسه مرة فاكتظت وجمد حشوها فيها فلم يعد ميسورًا أن تفرغ وأن تملأ. ومن هؤلاء محمد عبد الوهاب فهو يمثل على نفسه وعلى الناس دور الأستاذ الموسيقار مطرب الملوك والأمراء والعظماء وقد (عقد) هذا الدور في نفسه فكلما مثل دورًا ظهر فيه بمظهر الأستاذ الموسيقار مطرب الملوك والأمراء والعظماء مهما تطلب منه هذا الدور الجديد شيئًا من البؤس، أو شيئًا من الخيبة، أو شيئًا من اليأس. زيدي على ذلك أن الصورة التي رسمها عبد الوهاب لنفسه في خياله صورة متكلفة ليس فيها من الحقيقة شيء، فقد عرف الناس هنا في مصر مطربًا كان الملوك والأمراء والعظماء يطلبونه حقًا ويسعون إليه ويكرمونه كل التكريم ولم يكن فيه شيء من هذه الأرستقراطية التي يلبسها عبد الوهاب فيتعثر في أذيالها، ذلك هو المرحوم عبده الحامولي تؤكد الروايات أنه كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

- وهل لا يأكل عبد الوهاب الطعام ويمشي في الأسواق؟

- حاشا لله. وإن أكل فتنازل، وإن مشى فكما كان يمشي هرون الرشيد.

- إني لا أحب فيك هذا التعصب على عبد الوهاب. وإن الذي تأخذه عليه يمكن أن آخذه على شارلي شابلن نفسه، لشارلي أيضًا

لوازم تبدو في كل أفلامه: قبعته وعصاه وشارباه ومشيته وحذاؤه وتلعيب فمه ومسحه الحذاء في البنطلون وهزة كتفيه.

- صحيح صحيح... ولكنك نسيت أن شارلي يمثل في كل أفلامه شخصًا واحدًا هو ذلك المتشرد الحائر الذي يطارده المجتمع في أغلب الأحياء، ولا يعطف عليه إلا في أقل الأحيان. وروايات شارلي شابلن كلها يمكن أن توصل وأن تعرض على أنها حوادث حدثت لهذا المتشرد. وعلى هذا الأساس فإنه ليس عجيبًا أن يلزم هذا المتشرد حركات وسكنات وإشارات خاصة هي هذه التي تقولين عنها.

- طيب. ونجيب الريحاني الذي تشهد له بالتفوق. أليست له هو مواهب أيضًا لازمة لا تخلو منها رواية من رواياته هي هذه (المطة) التي يختم بها أكثر جمله وعباراته.

- صحيح أيضًا. ولكنك أيضًا نسيت أن هذه (المطة) هي من آثار كشكش بك في نجيب الريحاني، فقد كان نجيب مثل شارلي يمثل شخصًا واحدًا هو عمدة كفر البلاص، وكان هذا العمدة لا ينجو من مأزق حتى يقع في مأزق، وكانت الحيرة والدهشة و(اللخمة) تأخذه من أول الرواية إلى آخرها، وكان يستغيث، وكان يلوم، وكان يسترحم، وكل هذا يستدعي منه هذه (المطة) فلزمته ولكنه بدأ يتخلص منها فهي لا تعاوده الآن إلا نادرًا.

- ولم تلجأ إلى هذا التعسف ولا تقول إن لكل ممثل أسلوبه الخاص به.

- لأن موضوعنا هذا لا صلة له بأسلوب الممثل. وإنما أسلوب الممثل شيء آخر.

- هو الطريقة التي يتذوق بها الممثل الناس، والتي يعرض بها بعد ذلك هؤلاء الناس.

- وكيف يتذوق الممثل الناس؟

- للأرواح ملامح كما للأجسام ملامح، ومن الممثلين من ينعم النظر في هذه الملامح حتى يحصرها كلها، ومنهم من يروعه بعضها فيقف عنده ولا يعود يرى غيره، أو يرى غيره ولا يهتم به. والممثل بعد أن يشبع من التمعن في هذه الملامح الروحية يبدأ فيرسمها في نفسه هو، ويشكل روحه بشكلها ويكون تمثيله بعد ذلك إبرازًا لها، وأقدر الممثلين على هذا من لم تكن لروحه هو ملامح قوية ناتئة تستعصي تغطيتها على الماكياج الروحي، وهؤلاء الممثلون القادرون هم الذين تكون نفوسهم شديدة الشبه بنفوس الأطفال فهي بريئة صافية تعيش على الفطرة والحق، ولعلك قد لحظت أن الأطفال أقدر من غيرهم على تقليد الناس وتصوير نفوسهم والمظاهر الواضحة التي تنثرها نفوسهم على أجسامهم... ولو كان الناس كلهم يعيشون على الفطرة وعلى الحق لكثرت بينهم أوجه الشبه، بل ربما كانت أشكالهم تتوحد فلا يكون بينها خلاف، والذي يعزز هذا الرأي هو ما نراه من توحد أشكال الحيوانات التي من فصيلة واحدة - ولا أقول ألوانها - فهذا التوحد لا مرجع له إلا أن الحيوانات تسلك في حياتها المسلك الفطري الحق.

- فكأنك تقول إن اختلاف ملامح الوجوه في الناس يرجع إلى اختلاف الملامح في أرواحهم.

- هو هذا. وإن كنت لا أنكر آثار البيئة والوراثة وغيرهما

- ومعنى هذا أن الذي يسيطر على حياة الإنسان نفسه وليس بدنه وغريزته الجنسية كما يقول فرويد.

- لو كانت الغريزة الجنسية هي التي تسيطر على حياة الإنسان لما اختلفت أشكال الناس، وإنما الغريزة الجنسية نفسها تخضع لذوق الإنسان والذوق عامل نفسي لا بدني.

- ولكنك قلت مرة إن له مرجعًا يرده إلى كهرباء الجسم

- وقلت لك وقتها إني أستعمل كلمة الكهرباء حيث أريد أن أقول (الروح) وإني أختارها لأضمن ارتياحك وارتياح الناس إليها فهي عند أهل هذا العصر أقرب إلى العقل من كلمة الروح...

- فهل تريدني أن أعرف الروح على أنها كهرباء؟

- يصح ولكن على أن تكون كهرباء لها إرادة ولها عقل ولها عواطف ولها ذاكرة ولها أمل ولها صلة بالماضي ولها صلة بالمستقبل ولها كل ما للحياة من مميزات تسمو بها على الجمود والموت.

- ملامح الأرواح التي تتحدث عنها هي ملامح هذه الكهرباء...

- ولم لا؟ فهناك إنسان قوته ألف شمعة، وهناك إنسان قوته خمس شمعات، وهناك إنسان كهرباؤه مائة فولت وهناك إنسان كهرباؤه عشرون. وهناك إنسان كهرباؤه مستقاة من دينامو، وهناك إنسان (ببطارية)، وهناك إنسان كهرباؤه صواعق، وهناك إنسان كهرباؤه شرر... وهناك وهناك... وكل هذا يحسه الممثل المجيد ويستطيع أن يقلده...

- فإذا قصرت قوة الكهرباء في الممثل عن قوة الشخص الذي يريد أن يمثله فماذا يصنع؟

- لا يمكن أن يحدث هذا إلا إذا أراد الممثل أن يقلد طفلًا صغيرًا... وكلما كان أصغر كان تمثيله أصعب.

- ومعنى هذا أن في الطفل كمية من الكهرباء أوفر مما في الكبير...

- لا. وإنما معناه أن درجة وضوح الروح في الطفل أكبر منها في الكبير. فالطفل إذا فرح ظهر عليه الفرح فياضًا جارفًا، وهو إذا غضب لم يمكنه أن يكتم غضبه وإنما أرسله قويًا عنيفًا وهذا شيء لا يقوى عليه إلا هو أو ممثل فيه من هذا الوضوح ما في نفوس الأطفال. وهذا الوضوح الذي يستوجبه التمثيل، وهذه البراءة التي تستلزمها المحاكاة هي التي تحول بين النساء وبين النبوغ في هذا الفن... إلا النادرات النوادر منهن...

- ولماذا؟

- لأن النساء لا يعشن على الفطرة مطلقًا وإنما كل منهن تمثل في حياتها دورًا خاصًا.

- بل أدوارًا

- لا... لو أن النساء كن يمثلن أدوارًا مختلفة لقلنا إنهن قادرات على التمثيل، ولكن هذه الأثواب المختلفة التي تبدو عليهن إنما يلبسنها في دور واحد يظللن يمثلنه طول الحياة وهو دور حواء.

- وهل سيطلب المسرح منهن أو السينما أن يمثلن دورًا آخر

- نعم، والمشكلة هنا أصلها أن الذين يؤلفون الروايات رجال، والرجل مهما ألم بنفس المرأة ومهما أحاط بها فهو لا يرضى أو لا يستطيع أن يظهرها في تأليفه على صورتها الطبيعية، وإنما يكتب لها عادة صورة أقرب إلى الروحانية من صورتها، وهذه الروحانية أمر صلة المرأة به صلة بعيدة ولذلك فإنها لا تدركها الإدراك التام ولا تخرجها الإخراج الصحيح.

- فهو عيب الرجال الذين لا يطبقون أدبهم على الواقع...

- إنه العيب الذي ينزعون إليه بأدبهم وفنونهم محاولين به أن ينقذوا الحياة من شر الواقع...

- ولكن لماذا نقول إن صلة المرأة بالروحانية صلة بعيدة

- لأن المرأة تبدأ في صناعة التمثيل من سن مبكرة فالتمثيل عونها على الإغراء، وهو ستارها، وهو سلاحها... وكي أثبت لك ما أقول أسألك كم مرة مثلت النساء في السينما مريم العذراء وجان دارك مثلًا وكم مرة مثلت النساء في السينما كليوباترا؟ إن مريم العذراء لم تمثلها إلى اليوم ممثلة وجان دارك مثلتها ممثلة فرنسية لشركة باتيه منذ خمسة عشر عامًا على ما أذكر... أو أكثر... أما كليوباترا فقد مثلتها ممثلات كثيرات وفي أوقات مختلفة...

- وعلى أي شيء تستدل بهذا؟

- أستدل به على أن النساء أقرب إلى كليوباترا منهن إلى جان دارك ومريم العذراء.

- ولكن لمريم العذراء قدسية لا تحب شركات السينما أن تمسها.

- لقد مثلت شركات السينما المسيح نفسه...

- طيب... وجان دارك هذه لم تكن امرأة وإنما كانت رجلًا...

- إنها التي بذلت نفسها في سبيل وطنها... أنا معك لم تكن امرأة.

٣٨٨

- حقك اليوم أن أبخرك... كتاب في يدك، وتقرأ في الطريق؟

- ليس هذا كتابًا، وإنما هو دليل المعرض الدولي لفن التصوير الشمسي الذي تقيمه الآن جمعية محبي الفنون الجميلة... هل لك أن تصحبيني إليه لعلنا نرى شيئًا جميلًا؟

- يسرني هذا... هيا... فهي فرصة قد أقتنع فيها بأن التصوير الشمسي فن.

- أو لم تقتنعي بذلك إلى اليوم؟

- أحيانًا أقتنع، وأعود في أغلب الأحايين فأشك، وتجئ أحيان أنكر فيها إنكارًا.

- ما دمت تقتنعين أحيانًا، ولو قليلة، فإن هذا يدل على أن التصوير الشمسي فن، أما هذه الأحيان التي ينبعث فيها الشك من نفسك، والتي ينبعث فيها الإنكار، فلذنب فيها ليس ذنب التصوير الشمسي، وإنما هو ذنب المصورين الشمسيين، ولكي يتضح لك هذا عودي بالذاكرة إلى الصورة التي أعجبتك، والى الصور التي لم تعجبك، وحاولي أن تلمسي الفروق بين هذه وتلك لترى أنها كانت إصابات من مصورين وإخفاقات من آخرين... فبين المصورين من يطوف بآلته يلتقط الصور لكل ما يراه، وهذا يشبه في الشعراء الدكتور زكي أبا شادي الذي لا يستعصي شيء على شعره، فهو يستطيع بقوة الله أن يقول الشعر في الزهرة، وفي السحابة، وفي النملة، وفي البلاطة، وفي القمر، وفي القلقاس وفي كأس الخمر، وفي (كوز حمام)، وفي

الراقصة الرشيقة، وفي (الترسة) المتثاقلة، وفي الزمرد والياقوت وكلورور الصوديوم وبيكربونات الصودا وهناك نوع آخر بين المصورين للواحد منهم محل يذهب إليه الناس ليصورهم بالأجر، وأغلب هؤلاء يشبهون الكتاب العموميين الذين يكتبون للناس ما يريدون كتابته بالأجر أيضًا، والذين يكتبون فيما يكتبون فرحًا وحزنًا، وبشرى وإنذارًا وحوادث وأخبارًا من غير أن تهتز في أنفسهم خلجة ولا عاطفة، وأقلهم تطيب لهم بعض الوجوه فيخرجون لها أحسن الصور... وفي الكتاب العموميين أيضًا من يفعل مثل هذا إذ تطيب له بعض الموضوعات فينطلق قلمه بأحسن ما يكتب... وهناك نوع ثالث بين المصورين له اتجاه خاص، فهو لا يصور كل شيء، وإنما يصور ما يروقه فقط، وإنما تتجذب نفسه إلى معان خاصة يرتاح لها، ومن هذه المعاني ما قد يُسعد ومنها ما قد يغذي الألم في نفس الفنان ويسقيه، وهؤلاء المصورون يشبهون كل فنان من أولئك الذين يمتاز الواحد منهم بطابعه الخاص وبلونه النفساني... وفي هؤلاء المصورين جميعًا الصادقون، وفيهم الكاذبون، وفيهم الهادئون، وفيهم المتكلفون وفيهم الجادون، وفيهم الساخرون... وللتصوير الشمسي بعد ذلك عالم كما أنه لكل فن عالم، وفي عالم التصوير الشمسي تجار يبيعون ويشترون، وفيه سماسرة يروجون، وفيه ناس طيبون يستهلكون، وفيه أدعياء يتحككون بالفن ويقتنون الصور، ويتأنقون في صنع (براويزها) وهم أبعد ما يكونون عن الفن، أبعد ما يكونون...

- كأني بك تريد أن تقول شيئًا في نفسك ولكنك تمسكه

- وهل خلَّيت شيئًا لم أقله؟ إلا أني معجب برئيس مجلس شيوخنا الذي يهتم كثيرًا بالفنون الجميلة، وبهذه الروح الطيبة التي يرعى بها الفن كل من المسيو مارسيل فنسينو رئيس البنك العقاري المصري،

ورينيه قطاوي بك مدير شركة وادي كوم امبو ويوسف قطاوى باشا الوزير السابق، والدكتور على باشا إبراهيم، وحافظ عفيفي باشا، وسعادة محمد طاهر باشا رئيس لجنة الرياضة الأهلية، وفؤاد أباظة باشا المدير العام للجمعية الزراعية الملكية والمسيو نوس مدير شركة السكر، والمسيو ريشارد موصيري الوكيل المفوض لبنك يوسف نسيم موصيري (أولاده وشركاهم)، وسائر أولئك النبلاء الذين يعطفون على الفن... ليس في نفسي إلا أن أنتهز هذه الفرصة لأشكر فيها هؤلاء الرجال الكبار باسم الفن. فهم من غير شك يضحون كثيرًا من وقتهم الغالي، والغالي حقًا في سبيل التهذيب الروحي يرقون عن طريقه بأبناء هذه البلاد.

- هل تعرف أن هؤلاء لو اهتموا بالفنانين الذين تؤثر فنونهم في الشعب تأثيرًا قويًا لأجدوا على بلادهم خير جدوى. ولأزدهر الأدب والتمثيل والموسيقى و.

- اللّه حبب هؤلاء في التصوير الشمسي، وللفنون التي تتحدثين عنها قضاء آخر عند اللّه هو مقدِّرُه، فاشكري اللّه على ما قُسم. واسكتي الآن فقد وصلنا...

- اللّه... تعال هنا... عند (٤١) إنها فتاة حلوة رائعة، أليس كذلك...

- من غير شك... و(٢٨) أيضًا رائعة... وأظنك ترين الفرق واضحًا بين هذه وتلك. (٤١) فتاة مليحة أعجب بها مصورها (عزام جمال)، ولا ريب أنه شاب عذب القلب فيه كثير من أخلاق الصبيان... و(٢٨) شاب في أواخر الشباب أعجبت به مصورته (آسيا)، وهي لا ريب فتاة عاتية، فإذا كانت رجلًا متنكرًا باسم مؤنث، فهو رجل فيه رحمة وفيه حنان ولين...

- وهل تعرف أنت (عزام جمال) و(آسيا) وتعرف أخلاقهما؟ ...

- لا يا روحي... وإنما نفساهما في هاتين الصورتين... فالذي اختار هذا الوجه الصبوح الضحوك المنبسط الذي لا تجاعيد فيه ولا حزون تصوره هذه الصورة، لا بد أن يكون من عشاق الصباحة والضحك والانبساط والصراحة والوضوح... وإلا فلماذا اختار هذا الوجه وصوره؟ ... أما (آسيا) فقد صورت هذا الشاب المتكسر الشباب الذي يطل الشقاء من إحدى عينيه ويطل الصبر من الأخرى، فلا بد أن تكون من اللواتي يستهويهن الشباب المولَى واللواتي يطربن إذا رأين في عيون الناس صبرًا وشقوة، وهذا لا تحبه إلا نفس الأنثى العاتية. فإذا طرب له رجل فبالرحمة يطرب له، وبالشفقة يستجيب إلى صبره، وبالتعزية يواسي شقاءه.

- ولم لا يكون الرجل قاسيًا عاتيًا هو أيضًا يحب أن يرى في عيون الناس الصبر والشقاء.

- هذا لا يكون إلا في الرجال الجلادين، وأنا لا أظن أن الذي صور هذه الصورة هو (عشماوي) متنكرًا باسم آسيا. من يدري... تعال إلى (٣٨) هذه... امرأة تنظر من النافذة مهتمة متلهفة هذه الصورة روماني اسمه افرامسكو ويسمنها (انتظار).

- ليت هذا المصور ذاد هذه المرأة عن النافذة قبل أن يلتقط هذه الصورة... فقد كانت عندئذ تظهر صورة ساكنة لبيت ساكن...

- ولكنه يخيل إلى أنه هو الذي دعاها لتقف في النافذة هذه الوقفة، ولتطل هذه الإطلالة، ولتهتم هذا الاهتمام، ولتتلهف هذه اللهفة...

- وأنا يخيل إليّ هذا أيضًا، وهذا هو ما يفسد عليّ الاستمتاع بهذه الصورة، ذلك أن هذه السيدة عند ما أرادت أن تلبي دعوة هذا المصور لبتها بإخلاص شديد جدًا له هو، فقد مطت نفسها في النافذة مطة ثعبانية، ثم نثرت في وجهها من علامات الاهتمام ما لا يمكن أن يبدو على وجه إنسان إلا إذا كان يرقب موكب الملائكة يوم الحشر، وتلهفت تلهفًا لا يمكن أن يتلهفه إنسان إلا إذا كان يرقب انشقاق السماء ليلة القدر حسبما يقولون ويروون... ومع أنها أدت هذه النوازع هذا الأداء المكبر، فإنها لم تستطع أن تخفي ما كان يجب عليها أن تخفيه وهو شعورها بأنها تعمل هذا كله كي يصورها الأستاذ أفرامسكو.

- إذن فهذه صورة فاشلة...

- يؤلمني أن أقول هذا... ولكني أعتقد أن في هذا تعزية كبيرة للأستاذ أفرامسكو، فهو دليل صادق جدًا على أن هذه الشابة مطاوعة له مخلصة لفكرته تود له من صميم قلبها أن ينجح... وهذا أمر من غير شك يرضيه...

- من يدري مرة أخرى... فلربما كان يريد أفرامسكو أن تفوز صورته بإعجابك وإعجاب غيرك من النقاد، ولو كان ثمن هذا الفوز روح هذه التي تقول إنها مخلصة... الست تعرف أصحاب الفن وسخفهم... من منهم جازي المخلصة إلا بكارثة...

- خذا موضوع آخر لا أوافقك فيه على رأيك هذا على الرغم من أن بعض الظواهر قد تؤيده... ولكن هذا ليس وقته... تعالى... سأختار أنا لك صورة...

- تعالى، انظري إلى هذه... (٣٨٨) ...

- انتظر لأرى من صاحبها... إنها من رسم سيدة أسمها مدام رايفون وهي من لندن، وقد سمت هذه الصورة (صورة). فقط... وهي صاحبة (٣٨٩) أيضًا وقد سمتها (عيد)...

- عظيم... وهل تعجبك (٣٨٩) هذه؟ فيها جمال حقًا ولكن (٣٨٨) أبدع، وهي من غير شك أبدع ما في هذا المعرض...

- ولكن لا يزال أمامنا جزء من المعرض لم نره لعل فيه ما هو أبدع من هذه الصورة.

- قد يكون هناك ما يساويها. ولكن لا أعتقد أن هناك ما هو أبدع منها... فقد قالت المصورة في هذه الصورة كل ما يمكن أن يقال.

- ولكني أرى في هذه الصورة تكلفًا كالذي رأيته أنت في صورة التي تنظر من النافذة...

- خسئ ما ترين... أين هو التكلف؟ ...

- الصورة صورة شاب لا شك في أنه أوربي، ومع هذا فهو يلبس ملابس المماليك الأتراك أو الشركس، طربوش يوناني أو عثماني كبير كطربوش تمثال إبراهيم باشا، وقميص من الحرير، وصديري مفتوح، وحزام حرير يطل منه خنجر، و(سروال) ارتفع إلى مادون ركبتيه بقليل من أثر جلسته، فظهر جزءان من ساقيه... ثم هذه (البلغة الفاسية) التي أظن أنه كان يجب أن يكون مكانها (مركوب) أحمر أو أخضر ليماشي هذه الملابس التي لم يكن أهلها يعرفون (البُلغ) وأخيرًا هذه الجلسة نفسها على هذه القطعة المخروطة من الخشب التي لا طبيعة فيها ولا صناعة والتي لا تشبه جذع الشجرة، والتي ليس مثلها كرسي، التي تكاد تكون صنعت خاصة لهذه الصورة... أو هناك تكلف بعد هذا كله؟.

- هذا الذي تسمينه تكلفًا هو ما أسمه أنا إخراجًا... فصاحبة هذه الصورة لها خيال تحبه حققته فيها بهذا الأسلوب الذين ترين. فاختارت هذا الفتى الذي فيه ملامح خيالها المحبوب والذي تتعسفين كثيرًا إذ تؤكدين أنه أوربي، لأنه قد يكون كما تقولين وقد يكون شرقيًّا أيضًا، وهو كما ترين ممن يشهد الرجال لهم بالحلاوة والعذوبة، فما بالك بشهادة النساء؟ جبهة عريضة لم يغطها هذا الطربوش العميق الضخم وإن كان أخفى منها جزءًا وهي جبهة تدل على الذكاء والذكاء محبوب، وعيناه دعجاوان تنبعث منهما نظرة مرتاحة متأنقة كأنما تنتقي وتختار، وأنفه دقيق منتظم جميل، تناسق بتناسق نفسه واعتدل باعتدال مزاجه، ووجنتاه بارزتان بروزًا خفيفًا ينفي عن وجهه تراكم اللحم وغلظ الجلد، وعن روحه ثقل الظل وجمود الحس، وفيه واسع ولكنه يبدو كالضيق لأنه مكون من ثلاثة مستقيمات: واحد منهما متقدم والآخران منكسران عنه بزاويتين إلى الوراء فكل منهما في جانب والفم الواسع ترينه دائمًا للمغنين والمتحدثين ذوي اللباقة وحسن التأثير، كما أن له أذنين مرتفعتين غير صغيرتين تفتحتا للسمع والإصغاء وشفتاه لا هما رقيقتان قاسيتان ولا غليظتان بربريتان، وذقنه صغير طري كذقون الأطفال الأصفياء، وأصابعه طويلة دقيقة خلقت للترفه والعبث وفي إحداها هذا الخاتم المرصع باللآلئ والياقوت استغراقًا منه في جو النساء واصطناعًا منه لما تحبه النساء، وصدره قد انكشف عن القميص فبدا شعره كما بدا الشعر في ساقيه، والشعر في الرجل خشونة تنجذب إليها المرأة الناعمة... وهذه الملابس الشرقية التي تسخرين منها هي حلم من الأحلام يتردد في نفوس أهل الغرب، كما يتردد في نفوس الشرقيين الأمل في مشاهدة باريس وفيينا وبوخارست... وهذه القطعة من الخشب التي تعيبينها هي القاعدة التي أقامت المصورة عليها هذا الموضوع كله بما فيه من الفكرة والعاطفة

والخيال بهذا الأسلوب الواضح المستقيم، والذي لا أظن أن غيرها يشاركها فيه إلا من كان مثلها منساقًا في فنه إلى طبيعته وفطرته. وهذه هي المرتبة العليا من مراتب الفن.

- وما رأيك في (٣٨٩)؟

- هي غطاء لهذه الصورة الجريئة الحلوة، فالسيدة رايفون لم تشأ أن تعرض (٣٨٨) وحدها لئلا يفهم أن لها اتجاهًا نفسانيًا خاصًا فجاءت بهذا (العيد) كما تسميه، وصورته فتاتين أسبانيتين بينهما شاب جميل المظهر حقًا، ولكنه كالدمية البلهاء، حتى إذا رأى الناس هذه الصورة رأوا فيها طهارة تجري مع التقاليد والعرف والآداب العامة، وتمحو أثر الصورة السابقة أو ما يمكن أن يكون لها من أثر، ولعلها جعلت (العيد) تاليًا لصورة هذا الفتى تجيء بعدها في الترتيب لهذا الغرض نفسه، ولعلها أمسكت عن تسمية صورة الفتى بأي اسم من الأسماء تكتما أيضًا...

- وهل الفن عيب يتكتمه الناس؟

- ليس فيه من عيب، ولكن ناسا يخشون ما فيه من الحق وناسًا يسيئون تفهم هذا الحق، وناسًا يتخذون الحق سلاحًا يقتلون به الفنانين في نظر الجمهور قتلًا باطلًا وبهتانًا... على أي حال... إنك فتاة وتستطيعين عني أن تشيعي قبلة الإعجاب إلى صاحبة (٣٨٨) ...

أعوذ بالله إنه (مكياج)!

- ما هذا التخطيط؟ أردت بالأمس أن تلحن فأخفقت، واليوم تصور وتريد أن تكون رسامًا؟

- أبعدتموني عن الألحان وقلتم كلامًا معناه: (أسكت)، فهل تريدون اليوم أن تخطفوا من يدي الريشة فلا أصور... خذوها أيضًا!

- لا تُغَنِّ ولكن لا تغضب، وارسم وسنرى في رسمك رأيًا. فما تريد أن ترسمه. فكرة؟ أو إنسان؟ أو عاطفة؟ أو عاصفة؟ ...

- لا لا... إنسان، كل ما أعرفه عنه هو أنه (كاتب من الكتاب) كتب فصلًا في عدد الرسالة الأخير يوازن فيه بين نفسه وبين سيدنا أيوب.

- إذن فستكون صورته أشبه الصور بالصورة التي نتخيلها لسيدنا أيوب.

- لا. بل ستكون صورة أخرى. لأن هذا الكاتب نفسه أراد أن تختلف صورته عن صورة أيوب اختلافًا كبيرًا.

- وأنى لك ذلك؟

- من كلامه هو فهو يقول: (أيوب فقد الثروة والعافية ولم يفقد اليقين، وأنا فقدت الثروة والعافية واليقين. أضاع الله من أضاعوني! وأيوب استطاع أن يعاتب ربه بقصيد رنان وهو في أمان من ثورة الجمهور، فظفر بالخلود في عالم الفكر والبيان، وأنا لا أملك معاتبة ربي بسطر واحد خوفًا من رئيس التحرير، وخوفًا من شيخ الأزهر، وخوفًا من محكمة الجنايات، وأين فجيعة أيوب في دنياه من فجيعتي في دنياي؟

كان الدينار لعهد أيوب يمون الرجل شهرًا أو شهرين، وأنا في عهدي يهان فيه الرجل إن اكتفى بالدينار يومًا أو يومين، فمن يسلطني على دهري فأسجل رزاياه على نحو ما صنع أيوب؟ وكانت الأرض لعهد أيوب بلا رسوم ولا حدود فكان المجاهد ينال منا ما يشاء كيف شاء، وهي اليوم مقسمة تقسيما يصد المجاهدين أعنف الصدود) ... وهو قبل ذلك يقول للذين أضاعوه – فيما يظهر -(لقد أفلحتم في زعزعة اليقين الذي كنت أفزع إليه حين تكرثني صروف الزمان، فأين أنتم لأشكو إليكم ما جنت أيديكم؟ وأين السبيل إلى ترميم البناء الذي كنت أستظل به من قبل أن أنخدع بالبرق الذي أزغتم به فؤادي...؟) فهلا ترين أن هناك خلافًا بين الذي يقول هذا الكلام وبين أيوب؟

- أنا لم أقرأ سفر أيوب

- هو رجل أعطاه الله كثيرًا، فابتلاه الله، فصبر، فرفع الله البلايا عنه وفاز. فاختاري له ما تشائين من صوره، وانظري معي في هذه الصورة الجديدة فقد يحتمل أن تشبه إحدى صور أيوب.

- وأين هي الصورة، فأني لا أرى في الورقة غير خطوط

- الصورة لا تزال في الغيب وسنستدرجها معًا... ولنبدأ بتصوير الرجل الذي فقد الثروة والعافية واليقين... هذا الرجل ما مظهره؟ وكيف نرسمه؟

- نرسمه أول كل شيء في أثواب من فقد الثروة، وهي ليست أنيقة ولا غالية، وهو بعد ذلك هزيل ضعيف لا قوة فيه ولا صحة، ولا بد أن تظهر الحيرة في عينيه ما دام قد فقد اليقين. وقد يكون بدل الحيرة جزع، وقد يكون بدل الجزع حذر، وقد يكون بدل الحذر قسوة، وقد يكون بدل القسوة غيرها من سائر النزعات التي تستولي على من فقد اليقين...

- بعد أسبوع واحد سأنشئ أنا وأنت استديو نصور فيه العفاريت... وما رأيك في قوله: أضاع الله من أضاعوني؟ أهي كراهة منه لمن أضاعوه فنرسمها على وجه، أم هي اعتذار عن فقدانه الثروة والعافية واليقين؟ ... فهو يريد به أن يغفر الناس له مظاهر هذا الفقدان؟

- أظنها كراهة، وأظن هذا الرجل مجنيًا عليه، وأظنه لو تمكن من الذين أضاعوه لأضاعهم...

- وأنا يخيل إلي أن قوله هذا لا هو كراهة ولا هو اعتذار فقد نسيت أن أقرا عليك من كلامه قوله للذين أضاعوه: خذوني إليكم في ملاعبكم وملاهيكم، عساني أنسي جاذبية البؤس في صحبة قلمي وكتابي!

- عجبًا! ... فهو إذن لا يكره الذين أضاعوه، وإنما يريد أن يكون معهم. فلنرسم إذن على.

وجهه شيئًا من الغيرة... أو لعلها سخرية...

- سخرية ممن؟ من الذين يريد هو أن يكون معهم؟ لا. ليست سخرية. وهو بعد ذلك يريد أن يعاتب الله الذي هو الله معاتبة لا تكون إلا من صاحب حق عند نائل منه، ومع هذا، فهو يخشى رئيس التحرير، وشيخ الأزهر... فكيف نرسم الرجل الذي له حق عند الله، وعلى علمه بهذا يخشى الأستاذ أحمد حسن الزيات، وفضيلة الأستاذ المراغي... كيف يمكن أن نتصور هذا؟ إني لا أتصوره!

- ولا أنا!

- ولا أي إنسان، فأولئك الذين يقرضون الله، ويعطون الله، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وهم يعرفون هذا من تلقاء أنفسهم لأنهم

يعرفون الله ويعرفون أنهم يقرضونه ويعطونه، ويعرفون من هو الله، ومن إلى جانبه رئيس التحرير وشيخ الأزهر...

- إذن فأنت تريد أن تقول إنها ناحية مبهمة في الصورة...

- بل أقول إنها مكياج. وإنها تشبه دعاءه على الذين أضاعوه في الوقت الذي يريد فيه أن يكون مع الذين أضاعوه في ملاعبهم وملاهيهم...

- فكأنه لا أعطي الله ولا أقرضه...

- الله أعلم... وهو يحسب لأيوب من النعمة أنه ظفر بالخلود في عالم الفكر والبيان لما عاتب ربه بقصد رنان وهو في أمان من ثورة الجمهور... فما الذي يبديه هذا الإحساس في وجهه من الإمارات؟

- إمارات الفكر، لا شك، وعلامات عشاق الخلود...

- كلا. فلو سئل أيوب أن يتحدث مرة أخرى عما نال من نعمة الله في عتابه ربه، لذكر أنها هدى ربه، ولما ذكر بيانه ولا قصيده ولا فكره، فما كان أيوب يسعى إلى كلام ينمقه فيحفظه الناس عنه ويروونه له بعد موته، وإنما كان أيوب يتجه إلى الله يطلب منه أن يصلح نفسه، وأن يكشف له عن حكمته فيما ناله من بلوى استعذبها وصبر عليها... فأيوب الذي كانت هذه هي نفسه هو الذي تبدو عليه إمارات الفكر لا شك، وعلامات عشاق الخلود.

- فمكياج هذه أيضًا؟

ولم لا... هذا مقال ظهر في رأس السنة، ورأس السنة عيد يتنكر فيه أصحابه لهوًا وعبثًا... فلنمض مع صاحبنا هذا، فإنه من غير شك لذيذ...

- وهبك وصلت إلى تصويره حقًا... فهل تجرؤ على نشر صورته، وهو رجل لا تعرفه، وقد يغضب عليك وأنت أحوج ما تكون إلى عطف الناس لا إغضابهم...

- ولماذا يغضب (أيوب الثاني) من كلمتين يقولهما كاتب صغير مفضوح مثلي... إنه لو غضب لأكد غضبه لنفسه ما أدعيه من أن صورة أيوب التي يريد أن يرسمها على نفسه إنما هي مكياج...

- إذن فامض هداك الله، وهداه معك، وهداني معكما...

- آمين. لو كنت قرأت سفر أيوب لكنت رأيت فيه أن أيوب لم يتفجع من فقدان الثروة إلا على أنه مظهر من مظاهر غضب الله... ولكن أيوب الثاني هذا الجديد يذكر الفجيعة في الدنيا على أن أفجع ما فيها هو أنها أصابت دنياه فيقول: (وأين فجيعة أيوب في دنياه من فجيعتي في دنياي؟) فبأي الصور تتصورين أيوب الثاني...

- بصورة الرجل الذي تهون فجيعة أيوب في دنياه إلى جانب فجيعته فيها... وأيوب على ما أظن فقد في الدنيا من الفقر والمرض الخبز وأدنأ ما يسد الرمق، كما فقد الملبس وأهون ما يستر الجسد.

- فهل تظنين كاتبًا من الكتاب الذين يكتبون لمجلة رائجة مثل الرسالة تصل به الحال إلى هذا ولا يعاونه صاحب الرسالة وكتابها وقراؤها ولو برغيف وبنطلون؟ أنا لا أظن ذلك... وهذه أيضًا مكياج...

- إن الرجل يتكلم كلامًا يعتمد فيه على النسبة بينه وبين أيوب، وزمانه وزمان أيوب... فأيوب نبي، وعاش في عصر أوفر رغدًا من عصرنا...

- وهذا هو الذي يقوله هو... ولكن لا تنسى أنه يوازن بين نفسه وبين أيوب من ناحية واحدة فقط، وهي هذا الشقاء الذي يفرض أنه قد

مسه، وينسى بعد ذلك لأيوب بقية نواحيه وأولها أنه لم يكن يعرف (المكياج) وهي ناحية أساسية في أيوب وفي كل من يريد أن يكون كأيوب.

- فلندع هذه أيضًا...

- ولنر إلى قوله إن الدينار والدينارين...

- لا لا... فلندع هذه... فإن الكاتب من الكتاب الذي يشعر بأن الإنسان يهان في هذا العصر إذا اكتفى بالدينار في اليوم أو اليومين... فهو من غير شك قد رحمه الله من إهانات يالها من إهانات لو لم يكن ينفق الدينار في اليوم أو اليومين... كان الله في عون الكتاب وغير الكتاب من أبناء اليوم الذين ينفقون الدينار في الأسبوع أو في الشهر أو في العام... إن هؤلاء هم الأيوبون.

- بعدها يا سيدتي قوله: ومن يسلطني على دهري فأسجل رزاياه على نحو ما صنع أيوب؟ فهو لا يسجل على دهره الرزايا إلا إذا سلطه على الدهر أحد، على الرغم من قوله إن الدهر أوجعه وأشقاه... فكيف نصوره أمام الدهر؟

- لو كان خائفًا من الدهر لكان قد سكت على الدهر ولم يناوشه ولم يصارحه العداء، ولو كان هاجمًا على الدهر لما عبأ بالدهر ولما طلب الذي يسلطه عليه ويمكنه منه، فلا هو خائف ولا هو هاجم...

- فماذا يكون إلا أنه صاحب سياسة مع الدهر حكيمة فهو لا يهاجمه على الرغم من عدائه له انتظارًا لمن يسلطه عليه؟ ...

- ولكنه على هذه الحكمة يصارح الدهر بالعداء... وليس من الحكمة في شيء أن يصارح الإنسان عدوه بالعداء وهو عاجز عنه خائف منه...

- فهذه الحكمة أيضًا مكياج أو هذه الصراحة هي المكياج. والله أعلم... على أنه قد خطرت لي الآن صورة مضحكة قد تجتمع فيها ملامح هذا الاضطراب كله: في الريف عندنا ناس يسلطهم الأعداء على أعدائهم... فيكرهون ويعادون ويحاربون ويقهرون؛ تبعًا لما يوحي به إليهم من يسلطهم... وهؤلاء من كثرة تدربهم على التسلط والتسليط أصبحوا يتسامحون فيما ينالهم هم من الأذى فلا يأخذون بالثار لأنفسهم ولا يستردون حقوقهم، لأنه لا أحد يسلطهم إلا على أعدائه هو لا على أعدائهم هم... فما رأيك؟

- ولكن هذه لا يمكن أن تكون صورة كاتب من الكاتب

- إني قلت ذلك... فالمفروض أن الكاتب من الكتاب له رأي خاص وكيان خاص وتفكير خاص؛ وهو يموت ولا يحتمل أن يسلطه إنسان على شيء...

- ولكن كيف ذكرت الريف وأنت لست منه ولم تحل به إلا خطفات؟

- لعل الذي دفع صورة الريف إلى ذهني هو قول صديقنا: وكانت الأرض لعهد أيوب بلا رسوم ولا حدود، فكان المجاهد ينال منها ما يشاء كيف شاء، وهي اليوم مقسمة تقسيما يصد المجاهدين أعنف الصدود... فالأمر الذي لا شك فيه هو أن ذكر الأرض يكثر على ألسنة الريفيين.

- ولكن الرجل ذكر بعد الأرض البحار فقال إنها كانت مصادر خيرات، وذكر السماء وقال إنها كانت مساقط غيث ومذاهب نسيم وهذا هو ما يدعوني إلى القول بأنه كاتب من الكتاب يزن الكلام ويوازن المعاني، أفكنت تريدين أن يسكت عند ذكر الأرض فقط فتكون منه هذه هي الواحدة التي يهمل فيها (المكياج)؟ إنه

كاتب من الكتاب... وهو إلى أنه كاتب يرى نفسه مجاهدًا، وكان يجب أن تكون الأرض بلا حدود ولا رسوم لينال منها المجاهدون -وهو منهم -ما يشاء كيف شاء... إنه يريد الأرض ويريد أن ينال... والآن أرشديني وقولي لي كيف تكون صورة هذا الكاتب الصديق... هل تستطيعين أن تبحثي لي عن (موديل) له أرسمه...

- لا...

- وأنا قد بدأت واعترفت بالعجز، ورسمت هذه الخطوط التي رأيتها في الورقة فلم ترضي أن تقري في البدء بأنها صورة إنسان...

- ولكن هذا الذي رسمته يا شيخ ليس صورة ما. أعوذ بالله

- هي صورة، ولكنها مرسومة بالأسلوب (المودرن)... وكم أحب أن أعرف رأي صاحبها فيها -من غير غضب -وعليه مني السلام ومن الله الرحمة والبركات.

بطلة شارلي

- تحدثت الصحف كثيرًا عن الفلم الذي يخرجه شارلي شابلن الآن، وعينت موضوعه، وقالت إنه سيتناول حياة الديكتاتور هتلر، وزادت بعضها فسردت ملخصًا للفلم. وقد أهتم العالم كله بأنباء هذا الفلم لأنه سيكون الحرب التي يشنها الفن على القوة... ولكن هذا الاهتمام الكبير لم يتجه منه ولا جانب تافه إلى بطلة هذا الفيلم... ألست ترى شارلي مقصرًا في الدعاية لبطلته، وأن الذي يدفعه إلى هذا التقصير أنانية في نفسه.

- يجب عليك أن تعلمي قبل كل شيء أن شارلي ليس هو المسئول عن هذا، فهو فيما أعتقد أبعد الناس عن الدعاية لأنه أقرب الناس من الفن الصادق. ثم يجب عليك أن تعلمي بعد ذلك أن حياة هتلر خالية من المرأة فيما يرى الناس. فإذا علمت هذا وذاك فإني أظنك ستعودين وتعتذرين لشارلي عن اتهامك إياه بالأنانية لأنه لم يقم الدنيا ويقعدها من أجل ممثلة تافهة سيمنحها المجد حين يبيح لها أن تقف إلى جانبه...

- يا سلام! أوليست هذه الممثلة التافهة هي التي سيبلغ بها نصف النجاح الذي ينشده؟ إنه رجل غدار لا وفاء له. وأكثر من هذا أنه يقصر حتى في أيسر المجالات.

- بل إن شارلي متسامح. ويكفيه تسامحًا أنه لا يزال يسمح للنساء أن يظهرن على يديه، وأن يرقين إلى المجد على كتفيه، مع أنه بلغ بالمرأة كل الآلام التي تغمره... إنه رجل غفار، لا حقد عنده وأكثر من هذا أنه يجامل حتى في المعارك التي يخوضها في حياته...

- أية معارك هذه التي يخوضها شارلي في حياته؟

- كل أعماله معارك، وكل رواياته مواقع. وهو ينتصر فيها جميعًا، ويأبى دائمًا إلا أن تكون إلى جانبه في كل نصر واحدة من بنات حواء، ينتشلها من غياهب الخمول انتشالًا وسموا بها إلى آفاق الذكر سموًا، ثم يرى نفسه مضطرًا بعد ذلك إلى أن يتركها وأن يدعو غيرها... فله في كل رواية بطلة...

- إن هذا هو ما أعيبه فيه. فقد كان يجب عليه أن تكون له بطلة واحدة يفهمها تمام الفهم، ويحملها بمقدرته على أن تفهمه تمام الفهم، ثم لا يتركها ولا تتركه، فإذا كان قد عجز عن هذا لسبب من الأسباب فلم يكن عليه أقل من أن يعنى باختيار بطلة من المشهود لهن بالنبوغ تقف أمامه في أفلامه... فهكذا يفعل كل الممثلين الكبار في كل زمان ومكان... فلماذا لا يفعله هو إذا لم يكن الحقد يأكل قلبه، أو إذا لم يكن يخاف أن تكتسحه ممثلة قادرة؟

- وهل تعتقدين أنت أن اللّٰه خلق ممثلة تستطيع أن تكتسح شارلي؟ أنا لا أظن ذلك.

- إذن فلماذا لا يقف أمام ممثلة نابغة؟ أهو أعظم من جورج آرليس، ووالاس بيري، وبول موني، وهاري بور، وشارلس لاوتون...

- ما أبعد الفرق بين هؤلاء وبين شارلي... هؤلاء كل منهم يمثل ذاتًا حدثت في زمن ما وفي مكان ما، أما هو فيمثل النكرة الذي يعرفه كل زمان وكل مكان.

- وهل كان هتلر نكرة حتى يمثله؟

- إنه على الرغم مما فيه من شر فهتلر معرفة، ولكنه أصاب ذيوع تلك النكرة.

- واعتمادًا على شهرة هتلر واهتمام العالم بما يثيره فيه فإن شارلي يهمل بطلته...

- من قال هذا؟ إنه يهدي إلى العالم في كل فلم بطلة...

- إن هذا الجود وهذا الكرم مرجعهما عجزه عن أن يحتفظ لنفسه بواحدة.

- بل هو عجزهن جميعًا عن البقاء إلى جانبه

- معذورات! فهو عجوز شاخ

- وما هذا عند التي تريد شارلي! شارلي الذي تحبه الدنيا ولم تشبع منه ولن تشبع. ألا تقبل امرأة واحدة من عرفهن أن تحتفظ به؟ حقًا إن للمرأة ذوقًا لا أدرك كنهه.

- لعل شارلي الذي تحبه الدنيا غير شارلي الذي تجده المرأة في البيت...

- من غير شك، وإن شارلي الذي تجده المرأة في البيت لهو أروع بكثير من شارلي الذي يعرفه العالم. فهو فنان، وحياته خارج الأستوديو إنما هي تحضير لحياته داخل الأستوديو، فلو أن شارلي وجد التي تحب هذا التحضير كما تحب الوقوف إلى جانبه أمام الكاميرا لوهب لها حياته، ولوهب لها ماله ولوهب لها فنه، ولوهب لها نفسه مختارًا ومجبرًا...

ولكن شارلي لم يجد هذه الفنانة بين اللواتي عملن معه، وبين اللواتي تزوج منهن، فهو معذور إذا تولى بالتبديل والتغيير بطلاته، وإذا فر من زوجاته. فبطلاته يتعشقنه في عمله يردن منه أن يربحن الثروة والمجد، وزوجاته يتعشقن اسمه وجاهه وغناه ويردن منه بعد ذلك أن يكون خارج عمله لهن هن لا لهذه الدنيا التي يستخلص منها مادة فنه.

- أليس هذا حق المرأة على زوجها...؟

- قد يكون من حق المرأة على زوجها أن تستخلصه لنفسها إذا لم يكن زوجها فنانًا صاحب رسالة. أما إذا كان زوجها مشغولًا حتى عن نفسه بما في الكون من آيات وبدائع، وإذا يعيش في هذه الدنيا مباحًا لكل من يريد أن يتذوقه وأن يأخذ منه، فلماذا لا تنكب عليه هي تستوعب كل ما يمكنها أن تستوعبه منه... ولماذا لا تجد في فنه المتعة... لماذا؟ إلا أن تكون نفسها عاجزة عن تذوق الفن والاستمتاع به...

- وهل تريد من زوجة الفنان أو من تلميذته أن تقضي معه الحياة متنقلة من ملحوظة إلى ملحوظة، ومن عبرة إلى عبرة، ومن أغنية إلى أغنية، ومن قصيدة إلى قصيدة... ولا يكون لها منه ذلك؟

- وماذا تريد منه غير ذلك؟

- تريده هو؟

- وأي شيء فيه هو غير ذلك؟

- فيه أنه رجل، وأنها امرأة

- وإنه رجل وإنها امرأة... أو أنكر أحد ذلك؟

- إنه هو الذي ينكره... فهو فيما أظن لا يكاد يقيم علاقته مع صاحبته حتى يحسب أنه قد تم له ما يريد من الاستيلاء عليها، ثم يعمد بعد ذلك إلى ما يرضيه هو لا ما يرضيها هي... فهو يكثر معها من الحديث عما يراه في الدنيا وفي الكون وفي الملكوت... يحدثها عن النجوم والشموس والصراصير والنمل، وقد لا يخطر على باله طول السنين أن يذكر جمالها بكلمة، أو أن يمدح ثوبًا من ثيابها أو أن يطري بعض زينتها ناسيًا في هذا أن المرأة مخلوق لا يطيق الحياة وحده، وأنها

تفزع كل الفرع ما لم تحس التهافت عليها... إنها يا أخي قد خلقها الله لغيرها... خلقها للرجل وهي لا تقوم بذاتها.

- آمنت بالله، وبهذا لحق الذي تذكرين وما أقل ما تذكرين من الحق... ولكن ألا ترين يا سيدتي ويا تاج رأسي أن الرجل إذا تزوج من امرأة كان هذا منه كافيًا يشهد بأنه معجب بها وبذوقها وبجمالها وبملابسها وبزينتها... ثم ألا ترين أنه إذا اختار تلميذة له فوجه إليها اهتمامه وجهوده كان هذا منه كافيًا أيضًا يشهد بأنه راض عنها وعن كيانها بما فيه عقلها وجسمها وعلى الخصوص إذا كانت هذه التلميذة ممثلة ممن يلقن أن يكن بطلات في أفلام شارلي... إني أعتقد أن هذه الشهادة تكفي، وأنه لا داعي بعد ذلك يدعو شارلي أو غيره من الرجال إذا استيقظ من النوم في الصباح أن يقول لامرأته: ما أبهاك وما أروعك؛ وإذا عاد إليها في المساء أن يقول لها: ما أحلاك وما أجملك؛ وإذا صحبها في عمل أو في لهو أن يقول لها: ما أذكاك وما أبدعك... ألا ترين أن هذا لا يمكن أن يكون إلا خداعًا لا طعم له... إنني أرى في الصمت والهدوء علامة من علامات الرضى، وأحسب أن شارلي كذلك، فهو ما دام صامتًا وهادئًا مع زوجه أو تلميذته كان معنى هذا أنه راض عنها، وأظن أنه إذا رأى فيها عوجًا لفتها إليه... وهكذا يجب أن تكون حياة الناس... أساسها التسليم والرضا الصامتان لا تبادل الإطراء والمخادعة...

- إنك تقول هذا لأنك خائب مثلما أن شارلي خائب فأنا منذ رماني الدهر في طريقك لم أسمع منك كلمة واحدة ترضيني ولم أجد عندك إلا الكلام الذي يسمم البدن ويكسر النفس... تذكر شارلي، وتذكر مواقعه الغرامية في أفلامه، وقل لي بالله عليك هل رأيته يومًا عاشقًا لبقًا...

- إذا كانت اللباقة هي صناعة الغرام، فشارلي عاشق غير لبق. أما إذا كانت اللباقة هي الغرام الصادق، فاذكريه يا جاحدة في (أنوار المدينة) كيف عشق العمياء وكيف أخلص لها وكيف كان يضحك الناس من غرامه هذا والدموع يسيلها من مآقيهم تأثرًا له وتفجعًا، ثم اذكريه في (العصر الحديث) كيف أحب المشردة الصغيرة، وكيف كان يحنو على اخوتها ويطعمها وإياهم طعامه هو. وإذا استطعت فاذكريه في (البحث عن الذهب) كيف زين مسكنه لحبيبته، وكيف جلس ينتظرها والطعام أمامه لا يذوقه ولا يمسه، وكيف تخلفت عنه وهو مازال ينتظرها إلى أن غفا، فكان الحب أحلامه، وكانت هي عروسها. فلما أفاق وأدرك أنها تخلفت، جن حزنًا وطاشت أحلامه، ولكنها ظلت عروس أحلامه الطائشة...

إن شارلي من غير شك هو أروع وأخلد عشاق السينما، يقدره حق قدره الذين أحرق الحب قلوبهم وأفنى أفئدتهم، ولكنكن يعجبكن أدولف مانجو المتأنق السمج وكلارك جيبل المتحلي المباهي بقوته... أنتن لا يرضيكن إلا المنازلون... أما العشاق، فلهن منكن الزراية والسخرية... إن شارلي صادق كل الصدق يا هذه، وإن حياته الفنية لهي صورة حقة من حياته الطبيعية...

- وهذا هو ما أريد أن أقول... فكما أنه في حياته الفنية لا وفاء فيه لممثلة زميلة فإنه في حياته الطبيعية لا وفاء فيه لامرأة.

- قلت لك إنه لا يخلص في زمالة امرأة لأنه لم يجد المرأة التي تخلص في زمالته، وهو لا يزال يرتجل بطلات لأفلامه لأنه لا يزال يبحث عن سكنه بين النساء، ولعلك تذكرين أنه جن يومًا فأخرج فلم (الغلام) من غير بطلة امرأة وزامل فيه جاكي كوجان، وقد كان ذلك لأنه جن يومًا فطاش في الحياة لا يقف عند امرأة ولا يرتاح إلى أنثى.

ولعلك ترين أنه قد عدل أخيرًا عن الممثلات الناضجات الأنوثة ذوات التجارب في الرجال إلى ممثلات أخريات صغيرات لم يعرفن الرجال لا الممثلين منهم ولا غير الممثلين، وقد حدث ذلك لأنه في حياته عدل عن تقصي الحب بين النساء ذوات التجارب إلى تقصيه بين الفتيات الساذجات.

- وإلى أين سينتهي شارلي في بحثه هذا يا ترى؟

- أغلب الظن أنه إذا لم يسعفه القدر سريعًا بما يصبو إليه من الحب، فإنه ربما عدل عنه، وعندئذ سنرى شارلي في أفلام لا نساء فيها...

- وهل يمكن أن يظهر فلم من غير نساء؟ إنه لن يكون غير خرافة، فالدنيا ليست الدنيا مما لم تزينها المرأة...

- هذا هو كلامكن، وكلام الذين يضحكون على عقولكن. وإلا فقولي لي من هي المرأة التي كانت في حياة كافور الإخشيدي.

- أولم تجد غير هذا الأغا مثلًا...

- وهل أبرع وأبرز من مثل هذا العبد يشتريه سادته بالمال فإذا هو الملك الحاكم؟

- إن شارلي نفسه مقتنع بأنه لابد لفلمه من بطلة، وأنا أؤكد لك أن بوليت جودار التي.

أظهرها في فلمه الأخير (العصر الحديث) سوف تظهر إلى جانبه في الديكتاتور.

- ومن أين جاءك هذا؟

- روته صحف أمريكا. بعد أن قيل إن بوليت غادرته...

- إذن فلن يكون شارلي أنانيًا كما قلت في البدء

- إنه أناني وأناني وأنا لازلت أشك في إخلاصه لتلميذته الصغيرة.

- أما هو فثقي أنه مخلص كل الإخلاص، وهو لا ريب يرجو السماء والأرض أن تحفظ عليه بوليت، ولكن الشيء الذي أخشاه، والذي قد يخشاه هو أيضًا هو أن تكون بوليت هذه على الرغم مما يبدو عليها من ملامح الطهر والبراءة... امرأة صغيرة قد تنكرت بالطهر والبراءة وركبت بهما ظهر شارلي حتى استطاعت أن تظهر معه في فلمين متتابعين، وهذا من غير شك يعتبر حادثة في تاريخ ذلك الفنان العظيم... وبعدئذ... من يدري إذا ذاع اسم بوليت، واعتبرها الناس نجمة مستقلة لا تحتاج إلى شارلي ولا إلى اسمه في تجارة الفن، وآمن بهذا المخرجون وأصحاب رؤوس الأموال... أتظل على وفائها له فتبقى معه... أم تفر منه كما فرت الأخريات... من يردي... إنها على أي حال تجربة شارلي الأخيرة فيما أعتقد...

هما أحدبان

ما هذه الأرقام التي تحسبها في الورقة؟

- هي تكاليف أحدب نوتردام أحلم بأني سأخرجها في مصر

- بعد أن رأيناها من لون شاني ولاوتون... من يخرجها ومن يمثل لك الأحدب في مصر؟

- هذا شيء لا أفكر فيه إلا بعد أن يعطيني الله هذا المال كله.

- إذن فلن تفكر فيه أبدًا

- ومن يدريك أني لن أفكر فيه غدًا... (غد غيوب وأقدار وأسرار).

- رحم الله شوقي

- وفيكتور هيجو، ولون شاني، وكل من فتح قلبه لله فألقى الله فيه ما شاء من نوره، أتعرفين كم أحدودب هيجو حتى كتب الأحدب، وكم أحدودب لون شاني ثم لاوتون؟

- أما لون شاني ولاوتون فقد احدودبا أو قل هما اصطنعا أنهما احدودبا حينما كانا يمثلان في الأستوديو فقط، أما هيجو فلا أظنه احدودب، لأن كتابة الرواية لا تستدعي أن يمثل الكاتب صورها...

- لم يرد الدنيا أحدب عاش مثلما عاش أحدب نوتردام. فلابد أن يكون هو الأحدب الأحدب، وإنه لكذلك لأنه هيجو لما احدودب. كم في الدنيا من شقي يعيش ويشقى ويفنى، وفي الدنيا شقي يعيش

ويشقى ويخلد... أولئك يغمرهم شقاؤهم ويبعدهم عن ذكر ربهم، وهذا يمعن في الشقاء بالرضا والتأمل بحثًا عما فيه من عبرة ولذة.

- وهل يجد اللذة من يمعن في الشقاء حتى ليحدودب؟ ...

- وأية لذة؟ ألم يقل هيجو على لسان غجري قصد باريس وأراد أن يمنعه عنها حراسها: (ما هذه الأوامر؟ هذه أرض الله جئتموها أنتم بالأمس وجئناها نحن اليوم!) ألم يقل هيجو هذا؟

وكيف كان يمكن أن يقوله لو لم يشعر بأن هذه الأرض أرض الله حقًا، وأنه للناس أن يعيشوا فيها كما يعيش الطير في السماء... والله يرزقهم... وهل في الدنيا شعور باللذة أبلغ من شعور الطلاقة هذا؟ لا ريب أن هيجو كان يشعر باللذة حين كان يشعر بالشقوة ولا ريب أنه عانى في هذا الاضطراب كثيرًا، ولعلك تذكرين أنه عبر عن اضطرابه هذا بلسان الأحدب إذ أفلتت منه معشوقته، ورأى أن عليه توديعها لصاحبها: (رب! لماذا لم تخلقني حجرًا؟!) ... واحتضن صنما...

- فهو كان يرى الحجر أسعد من البشر...

- وهذا الذي يراه كل من عجز، وهو الذي يراه أخيرًا كل من كفر... أما يقول القرآن: إن الكافر سيقول يوم القيامة (يا ليتني كنت ترابا) ؟!.

- وهل كان الأحدب كافرًا؟

- بل كان هيجو مؤمنًا...

- ما لهيجو؟ إنما نحن الآن في الأحدب.

- والأحدب من هيجو، وليس هو وحده الذي منه، وإنما منه أيضًا كل من في القصة وكل ما فيها، فإذا رأيت أنه يضطرب في

الأحدب العاجز حتى ليتمنى أن يكون حجرًا ، فانظري إليه كيف يختم حياة ملك الشحاذين بثقل ينزل عليه من فوقه في الوقت الذي يتزعم فيه ثورة عنيفة فيها ضرب وكر وفر، وفيها موت يراه بعينيه يتخطف الناس من حوله ولا يحسب لنزوله به حسابًا ثم انظري هيجو كيف يغمس في التوفيق شاعر القصة الذي سيق إلى الملك متهمًا بإثارة القلاقل وتهديد الأمن العام بالشعر الحانق فما يزال الشاعر المؤمن بشعره يقنع الملك بوجهة نظره حتى يحكم الملك في قضية الشعب حكمًا عدلًا يضع حدًا للثورة التي لو لم يعمد ملك الشحاذين إلى القوة فيها وانتظر حتى يحق الحق القول الصادق لما لقي فيها حتفه، ولفاز في آخر الأمر بالذي كان ينشد، انظري إلى هذا وانظري إلى غيره تري أن هيجو كان مؤمنًا... وأنه كان ينظر إلى الأحدب نظرته إلى الكافر.

- إذن فقد كان هيجو يكره الأحدب؟ ...

- لا، وإنما كان يرثى له. لأنه لما احدودبت نفسه قدر نعمة الرحمة، وقد نصحه ونصح كل أحدب ألا يطمع في غير ما هو أهله وأن يرضى بما هو فيه، كما نصح ملك الشحاذين وكل من هو معتز بقوته مثله أن يكف عن القوة والاعتزاز بها. كما أظهر رضاه عن الشاعر الراضي الفيلسوف الذي يصبر على حبيبته أن تحب غيره حتى تهتدي إليه وتحبه، كما أنه حذر الناس جميعًا من التراجع عن تلبية حسهم، حين جعل الملك يحكم الخنجرين في أمر الغجرية إذ عصب عينيها وقال لها: اختاري من هذين واحدًا، فإذا قبضت على خنجري فأنت بريئة فإذا أمسكت الآخر فأنت مذنبة، فامتدت يدها أولًا إلى خنجر البراءة ولكنها تراجعت فعانت بعد ذلك ما عانت... كل هذه دلائل إيمان وصبر أضاءا في نفس هيجو... فأضاءا قصته هذه وخلداها... وإلا فما الذي تحسبينه حفظها وأبقاها؟

- أنها مكتوبة بلغة رائعة وأسلوب رائع...

- لا. فما خلدت اللغة وما خلد الأسلوب شيئًا فما هما إلا من أدوات الفن وليسا الفن نفسه... إن ملايين الناس في الأزمنة والأمكنة المختلفة ليحبون هيجو، ومنهم من لا يقرأ ولا يكتب لا الفرنسية ولا غيرها، ولكنه يفهم هيجو من إشارات الممثلين وأصواتهم ويقنع بهذا... إن الناس جميعًا يرون في أحدب نوتردام صدقًا وعدلًا وأحكامًا تجب في مواقف تستوجبها، فالموت لمن يستحق الموت حيث يجب الموت، والهناء لمن يستحق الهناء حيث يجب الهناء... لم شذ هيجو عن العدل في حكم من أحكامه ولم يحاب بطلًا من أبطاله، ولم يعط في دنياه هذه التي جمعها حقًا لغير صاحبه، ولم ينزل بها نكبة على مؤمن.

- وهذا القسيس النبيل الذي عشق الغجرية فكان في غرامه هلاكه، ما ذنبه؟

- ذنبه ضعفه... هذا قسيس وهب نفسه لله، واطمأن بهذه الهبة على حياته ومستقبله، فما له يريد أن يسترد مما أعطى الله شيئًا من نفسه يعطه غانية صغيرة؟ ... ما له يشعر بهذا الضعف، وماله حين يشعر به لا يعالجه بإيمانه وعزمه، وما له حين يضعف عن علاجه بإيمانه وعزمه لا يكون صريحًا في إعلان ضعفه؛ فإما أن يرتد على عقبيه خطوات في طريق تقواه وورعه، فيخلع مسوح القسيس ويدع الكنيسة وينزل إلى الدنيا، كالمؤمن إذا ارتد، يعرض نفسه على غانيته كما يعرض كل رجل عليها نفسه فإذا اختارته سعد فإذا أعرضت عنه كان عليه أن يرضى... كان هذا هو الواجب عليه أن يصنعه ولكنه لم يصنع منه شيئًا، بل طرأ عليه الضعف فلم يرض أن يشهر على هذا الضعف سلاحًا من نفسه وإنما غطاه بستر منها كان غشًا لكل من حسبوه قسيسًا، وكان حجابًا حال بينه وبين التغلب على نفسه... فألم به ما ألم

به من تشتت البال في الموازنة بين مظهره الطاهر، وبين الكامن من اللوثة في نفسه... هذا القسيس كان سليم المظهر ولكنه كان الكافر المشوه النفس، الذي ترجمه هيجو بذلك الأحدب العاجز ببدنه عن إغراء الغجرية... إن هذا القسيس هو أحدب نوتردام أكثر مما كأنه الأحدب... فإن الأحدب قد دلته طويته السليمة إلى حركة بلهاء أراد بها أن يغري فاتنته... إذ غطى لها يومًا البشاعة في وجهه وكشف لها عن عينه الرقراقة الحلوة، ونظر إليها كمن يقول لها ادخلي إلى نفسي من هذا المنفذ، ولو كان في الفتاة حكمة، ولو لم يكن بها من نزق الجمال والصبا طيش وخفة، فلعلها كانت تحبه إن أنعمت التفرس في عينه تلك، ولكنها لم تكن من الحكمة... أو لم تكن من البذل بالرأفة... وعلى أي حال فالذي يعنينا هو أن الأحدب وجد في نفسه شيئًا جميلًا عرضه، ولكن القسيس الأحدب الروح لم يجد عند روحه ما يعرضه على غانيته! إنه قسيس، وكان يستطيع على الأقل أن يكون مثلما كان الشاعر المجنون محبًا على غير أمل، وكان على هذا يستطيع أن يحملها على حبه، وكان بعد هذا يستطيع أن يسلمها (لنوتردام) مادام قد أقام نفسه في (نوتردام) راعيًا... ولكنه لم يفعل شيئًا من هذا وانخذل أمام نزوة من نزوات نفسه... فكان على علمه وعلو شأنه، وسلامة بدنه أشقي حالًا من الأحدب، فقد رضى الأحدب أن يتمنى الجمود والتحجر وأن يروض نفسه عليهما، أما هو فقد أبى إلا أن يشعل النار في الدنيا وأن يضرب الناس بالناس حقدًا وغلًا وعمى عن واجبه وحقه...

- إذن فإن هذا هو الأحدب

- إنه على الأقل الأحدب الأول. وقد كنت أحب أن يمثله لاوتون، فهذا الدور من غير شك معرض لعواطف وتقلبات أكثر من الطارئة على الأحدب الآخر...

- ولكن هذا الدور لم يلتفت إليه أحد هذه اللفتة، وإنما يعنى أبطال التمثيل بالدور الآخر...

- لعل ذلك لأنه أظهر لعيون، ولأن تمثيله يحتاج إلى مكياج بارع يتحدى الممثلون بعضهم بعضًا بإجادته وإتقانه. وهذا عيب من عيوب السرعة الآخذة برجال الفن في هذا العصر، وقد كنت أحسب لاوتون ينجو منها هذه المرة كما نجا منها مرة سابقة في بؤساء هيجو أيضًا... فإنه ترك دور جان فلجان لفردريك مارش ومثل هو دور جافيير البوليس السري، وجافيير كان أبأس من جان فلجان نفسًا وأشقى روحًا وإن كان يظهر لجان فلجان أنه الأبأس... كما أن الناس يحسبون قارع الأجراس في أحدب نوتردام أنه الأحدب بينما ذاك القسيس هو الأحدب...

- ولماذا لا يكونان بائسين، وأحدبين؟ ...

- هما بائسان وهما أحدبان حقًا... ولكن البائسين أحدهما تجسد البؤس فيه وظهر فخف عنه تكاثف البؤس وانحباسه في نفسه، والآخر توارى البؤس بين جنبيه واستتر فهو ينفث سمه في داخله ولا ينتثر من بؤسه شيء خارج نفسه، والأحدبان أحدهما تفجر بالقبح بدنه فانزاح القبح عن روحه، والآخر ازدرد هذا القبح وهو لا يفتأ يجتره فهو غذاؤه ومادة عيشه... هذه هي شجرة الزقوم التي يأكل منها الكافرون لا تطعمهم ولا تسمنهم ولا تغنيهم من جوع، وأسوأ ما فيها علمهم بغصتها، وأسوأ من هذا نهمهم إليها وشغفهم بها... ما كان أروع لاوتون لو أنه مثل هذا الأحدب! ...

- ومن كان يمثل الأحدب الآخر؟

- أي واحد! بوريس كارلوف مثلًا

- ولكن بوريس جامد أصم

- كان أمام لاوتون لا يستطيع إلا أن يتحرك... فبوريس مسكين. كل ما يسندونه إليه من الأدوار شاذة كثيرة الحركة، وما أقل الفرص التي أعطوها ليمثل... فإذا لم يكن بوريس يعجبكم فقد كان على لاوتون أن يمثل الدورين معًا وهذا ممكن في السينما... إنني حسبت حساب هذا مع هذه الأرقام التي كنت أكتبها...

- ولكن هذا عمل شاق قد لا يستطيعه ممثل

- إن لاوتون يستطيعه، ولكنها فكرة لم تخطر له حين كان يدرس الأحدب، فلا ريب أنه أسرع في دراستها أكثر مما أسرع في دراسة البؤساء، فوقع على أحدب المظهر وفاته أحدب المخبر؛ ولا ريب أيضًا أنه وضع في قرارة نفسه نية المباراة مع المرحوم لون.

شاني. ولو كان قد أغفل هذه لكان قد خلص فأخلص فاستخلص...

- يا للرزية! حتى لاوتون تعيبه... فمن يعجبك؟ ...

- لاوتون حينما يصفو... ولاوتون في الأحدب أيضًا... بل لقد راعني أكثر مما راعني لون شاني... ذلك أني خرجت من (لون شاني) وأنا كارهه... كاره الأحدب... بينما قد حببني فيه لاوتون... أو حملني على الترحم له على الأقل.

- إني لا أرى الفرق بينهما محددًا هكذا كما تراه، ولعل ذلك راجع إلى طول عهدنا بلون شاني في الأحدب...

- على أي حال فإني لا أجزم بهذا الفرق بينهما وإنما أجزم به في نفسي، وقد يكون مرجعه اختلاف كل منهما عن صاحبه في تذوق الأحدب وتفهمه، وقد يكون مرجعه اختلاف نفسي بين ما أنا عليه اليوم من القدرة على التذوق والفهم، وبين ما كنت عليه فيما مضى، وقد يكون مرجعه كذلك اختلاف دواعي التذوق والتفهم عندي بين اليوم والأمس.

- وما دواعي التفهم والتذوق هذه...؟

- ربونا على أن يخيفنا (أبو رجل مسلوخة) ... ولم أكن في صباي قد تخلصت مما غرس في ذهني ولم أكن بعد قد أحببت المشوهين والضعفاء والعجزة والمرضى...

- وأنت الآن تحبهم؟

- أحسب ذلك. فإذا لم أكن أحبهم فإني على الأقل أتحبب إليهم...

مدرسة الإحساس

- لا تنهري القطة بهذه القسوة. كوني صاحبة إحساس وكوني ذات رحمة.

- أرحمة بلصة تسرق طعامي؟

- ليس مكتوبًا عليه بلغة تقرأها هي أنه طعامك، وإنما هو عندها رزق يسره الله.

- ولكنها كانت تدب إليه مشفقة حريصة محاذرة متنبهة متلفتة يمنة ويسرة كاللص الذي يدرك حين يعتزم السرقة أنه يعتزم المنكر.

- هي معذورة فقد تعلمت هذا التلصص منا؛ فهي لا ترانا نفترس ما نأكل وإنما ترانا نربي الحيوان والطير ثم ندب إلى فريستنا منهما دبة اللص فنختلس حياته اختلاسًا لا يسبقه صراع، ولا يسبقه إنذار... ولم يكن القط هكذا إلا منذ استأنس، وقبل ذلك كان يفترس، أو يأكل ما يخلفه كبار السباع.

- وهل في القط ذكاء يدرك به هذا كله؟ ...

- إن الأمر لا يحتاج إلى ذكاء، وإنما هو يحتاج إلى إحساس. ألست تدخلين على جماعة من الناس فتعرفين إذا كانوا على حزن أو على فرح، أو على صدق أو على غش؟!.

- قد أعرف ذلك مما أرى في وجوههم من أثره...

- ومن الناس من يعرف وهو مطرق إلى الأرض، ومن الناس من يعرف وهو مغمض العينين والأذنين، ومن الناس من يعرف وهو على البعد لا يتمكن من نظر ولا سمع.

- باللاسلكي؟!

- نعم؛ ففي قلب كل مؤمن جهاز يدله، ومن هذه الأجهزة طويل الموجة، ومنها ما هو متصل بتيار لا ينقطع، ومنها ما يعبأ (ببطاريات) تفرغ وتملأ، ومنها ما يستقبل القريب فقط، ومنها ما يستشف المحطات البعيدة... وهكذا، فالكون كله إذاعات واستقبالات جلّت على ماركوني وإن سلست للأستاذ حسن كامل.

- هذا العجوز الذي ظهر سكيرًا في فلم العزيمة؟ إنه ممثل ممتلئ حقًا ولكني لم أكن أحسب أنه يعلم ما لا يعلمه ماركوني...

- ويعلم ما لم يكن يعلمه فرويد كذلك

- ما شاء الله! لعله اخترع آلتين تتزاوجان وتنجبان البنات من الآلات والصبيان!

- بل تمكن من إيجاد إنسان يعيش من غير غريزة فرويد فيستطيع أن يتحادث مع الطير والحيوان.

- على طريقة سيدنا سليمان؟

- إذا لم تكن هناك إلا طريقة سليمان فهو إذن على طريقة سليمان. وهو إذن يعيش بين دجاجه وأرانبه وإوزه وكلابه ومعيزه ملكا مدبرًا حكيمًا إلا أنه يأكل رعاياه.

- وكنت تريد ألا يأكل منها

- ربما كان هذا أحلى؛ ولكن الذي يصنعه على أي حال حلال؛ فلا ريب أنه للإنسان على ما هو دونه ومن في حماه حق الرعاية بالحكمة وله أن يتقاضاه روحًا وحياة.

- أنت تجعل الذي بيننا وبين الحيوان عشرة أظن لها عندك قوانين وأصولًا.

- الطبيعة فرضت هذه القوانين والأصول، وقد كان القدماء شديدي الاعتراف بها، ولا زال الفلاحون يحترمون هذه القوانين والأصول فيما بينهم وبين ما ينفهم من الطير والحيوان، وإن كنا نحن في المدن قد أنكرنا هذه القوانين إنكارًا استدعى أن تقوم فينا جمعيات للرفق بالحيوان تصيح في آذاننا تطلب له الرجمة كان يجب علينا أن نحسها من تلقاء أنفسنا لولا أننا قد تحجرت نفوسنا وتخشبت من شدة إقبالنا على عشرة الحديد والحجر والخشب... فلم يعد أحد منا يعطف على حيوانه عطفه على ولده الذي في عنقه.

- هذا الذي تطلبه كثير، وهو ليس من الطبيعة في شيء

- لو لم يكن من الطبيعة لذبح إبراهيم ولده

فلو أنك كنت تشعرين بالحياة حولك، لكنت تبادلت الحس مع الحيوان... ولكنت أدركت الحق فيما أقول... ولكن كيف أطلب منك الإحساس بالحيوان وأنت منصرفة حتى عن الإحساس بالناس، وحتى عن الإحساس بنفسك...

- حتى نفسي ترميني بإغفالها والبعد عنها؟ ...

- ولست وحدك هكذا، وإنما أغلب أهل هذا العصر هكذا وأكثرهم ترديًا فيه أهل المدن، وأكثر أهل المدن ترديًا فيه وانطماسًا أولئك الذين يتعلمون في المدارس، وأكثر المتعلمين تخبطًا فيه وانغماسًا

أبناء معاهد الفن في مصر، فهؤلاء يستعرضون صورًا مختلفة للحس، ولكنهم لا يقفون عند واحدة منها وقفة التأمل والتذوق، وإنما هم يحصونها عدًا ويحسبون هذا الإحصاء علمًا، فيخرجون به إلى الدنيا ونفوسهم مشوشة مختلطة حائرة... ومع هذا كله، فمغرورة متكبرة...

- وهذا فيمصر وحدها أو في العالم كله؟

- أظنه في مصر وحدها... فهم في الغرب إذا كفروا لم يكفروا حتى يؤمنوا بكفرهم، ونحن هنا ننتظر حتى يكفروا فنجري ورائهم، فإذا آمنوا آمنا، فإذا كفروا كفرنا ونفوسنا فارغة لا يعمرها إيمان ولا كفر...

- وهل يعمر الكفر النفوس؟ ...

- إذا كان كفرًا خالصًا لوجه الحق كذلك الكفر الذي شاع في أوربا في القرن الماضي وفي سوابقه، إذ تفتحت عيون عشاق الحق هناك على أباطيل رأوا أهل الدين يتمسكون بها، فقالوا لهم تعالوا ندع هذه الأباطيل ونحرر أنفسنا ونفكر بعقولنا، فقال لهم أهل الدين، ليس لنا عقول إذ ردتنا العقول عما وجدنا عليه آباءنا، وإنه لدين آمنا به ولن نحول عنه، فقالوا لأهل ذلك الدين: فليكن إذن لكم دينكم وليكن لنا ديننا، ثم قالوا للناس جميعًا: إنما نحن نسعى إلى الحق بعلومنا وعقولنا، وليس لنا شأن بأخصامنا، ولسنا ندعو الناس إلى جنة أو نار، فالجنة والنار حديثهم، وإنما نحن نقول إن عباد الشمس الأزرق يحمر إذا أضيف إلى حمض، كما نقول إن الهيدروجين أخف من الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون، وإن الأرض مجذوبة إلى الشمس، وإن الشمس تسبح في الفضاء وإن... وليستمع لنا من يريد وليستمع لهم أيضا، فإذا شاء أن يودع عقله بين أيديهم فليستثن عن عقله وهو عندهم حتى إذا جاءنا استحضره... هذه حال حدثت في أوربا، ولأنها حدثت في أوربا فقد

أحدثنا مثلها قولًا في كلية الآداب عندنا وقلنا إن العلم شيء وإن الدين شيء، مع أن ديننا هو العلم نفسه، وهو العقل نفسه، ولم يحدث أن احتضن يومًا خرافة، أو أظل باطلًا... وإن كان بعض أصحاب الغرض قد رشقوا في حواشيه بعض ما ينافيه، مما هو ظاهر للعين زيفه وغرابته عن سلامة الفكرة وحكمة الحق... وقال الغرب يومًا إننا لن نؤمن بشيء حتى نبدأ بالشك فيه وتعقله بعد ذلك إلى نهايته حتى نصل إلى حقيقة أمره، فنراها فنؤمن عندئذ بها، ولم يقل الغرب هذا إلا من ثقل ما كان يراد به أن يحشره في إيمانه من أوهام، وأكاذيب... فقلنا نحن أيضًا مثلما قال الغرب: لن نؤمن بشيء حتى نشك فيه أولًا وبدأنا نشك في أغلى تراثنا حتى لقد شككنا في قصة إبراهيم يومًا.

- وهل اثبت التاريخ قصة إبراهيم؟ العلم لا يرضى إلا بالإثبات العلمي، وللإثبات العلمي شروط.

- وهل أثبت التاريخ أن الأرض كانت جزءًا من الشمس إثباتًا علميًا بالشروط إياها؟ وهل يستطيع التاريخ أن يثبت كل حقائق الوجود؟ إذا كان الأمر كذلك فقولي لي كيف يثبت التاريخ أن هانيبال كان يتنفس مثلما نتنفس نحن مع أن هذا الشيء لم يرد في وثيقة تاريخية واحدة مستوفاة التحقق والتحقيق التي تطلبنها! بل إنه لم يرد في وثيقة أصلًا!

أفتستطيعين أن تشكي في أن هانيبال وأباه كانا يتنافسان لأنه لا وثائق تثبت ذلك؟ فإذا ضاعت منك شهادة ميلادك ظننت أنك ربما تكونين قد انعدمت لأنه لا ورقة رسمية معك تعترف بك؟ حتى لو حلف الناس بوجودك وشهد أهل بلدك بنسبك؟

فتذوقي العلم... وتذوقي الأدب... وتذوقي الفن... وتذوقي الحياة... عيشي على مهل، تفرسي في كل شيء... أيقظي إحساسك، ولا تقفزي

بعقلك إلا بعد أن يرتاح إحساسك إلى ما أنت فيه... فلو فعلت أنت هذا، ولو فعله الناس جميعًا، ولو فعله أهل الغرب على الخصوص، لخفت كوارث البشرية ولهان من مصائبها الكثير... أفلو تريث أولئك الذين يخترعون الغازات السامة والقنابل والبلاوي الزرق الفتاكة بالناس، وحاسبوا عقولهم بضمائرهم واستشعروا ما تجره اختراعاتهم على إخوانهم من ويلات...

أكانوا يبرزونها للناس كالحمى المجنونة، حملها من الجحيم الشيطان أثيم... لو أن هؤلاء العلماء العقلاء تريثوا، وحادثوا أنفسهم لما أطلقوا الخراب من مكامنه عاصفاً يلهف البريء وغير البريء... ولكنهم علماء تريدين أنت أن تكوني عالمة.

- وأي شبه بيني وبين هؤلاء؟

- هؤلاء يجمعون من الحقائق ما يقتل الناس، وأنت تجمعين من الحقائق ما يقعد على الإحساس، وهؤلاء لو أنهم استغنوا عن استغلال حقائقهم لوفروا على الناس هلاكًا لا غناء فيه، وأنت لو أنك استغنيت عن حقائقك التاريخية لوفرت على نفسك هلاكًا لا غناء فيه كذلك...

- وهل أنا هالكة؟

- وأي هالكة يا من لا تعنيك في قصة إبراهيم إلا أن تعرفي إذا كانت قد حدثت أو إذا لم تكن، ولم تحاولي أن تتذوقيها...

مسكينة أنت... ما أحوج أمثالك إلى أن تنشأ لهم مدرسة للإحساس!

نحو التربية الفنية

- هل تستطيعين أن تساعديني على ترشيح صاحب ديوان (الجداول) ليكون أستاذًا في كلية الآداب؟

- ما ديوان الجداول هذا، ومن صاحبه، وأين هو، وما الذي يميزه على غيره حتى تطلب له أن يكون أستاذًا في كلية الآداب عندنا، وأنت تعرف أن للأستاذية فيها شروطًا، منها، أن يكون الأستاذ حاصلًا على الدكتوراه؟

- ديوان الجداول هو مجموعة من شعر إيليا أبي ماضي، وهو به يستحق أن يكون أستاذًا في كلية الآداب، أما الدكتوراه فشهادة يمنحها القارئون الكبار للقارئين الصغار، ولكن إيليا أبا ماضي لم يعد قارئًا، ولا كاتبًا، وإنما هو إنسان ينفذ من هذا الوجود المحسوس إلى ما بعده، ثم يعود إلى الناس يروى لهم ما رأى وما سمع وما أحس وما أدرك... وهو من كثرة تجواله في آفاق الكون ألم بالكثير من دروبه، وأحاط بالكثير من طرقه، فهو يستطيع أن يكون رائدًا لجماهير من التلاميذ تتبعه، يرشد منهم من يسترشد، ويوجه منهم من يحار، ويعلم منهم من يرتبك، ويهدي منهم من يضل... وهذا هو عمل الأستاذ. أستاذ الأدب.

- هذا عمل الفارغ من حياته المستغنى عن عمره وليس عمل أستاذ الآداب.

- ولن يكون الإنسان أستاذًا للآداب إلا إذا فرغ من حياته واستغنى عن عمره، واشترى بهذه الدنيا شيئًا آخر، هو الأدب. والأدب ليس كما تحسبين كلامًا منمقًا مزوقًا لبعض الناس قدرة على

تخليقه، والبعض الآخر عاجزون عنه، وإنما الأدب تربية نفسية يجاهد اليتيم في تقويم نفسه بها، وغير اليتيم يسعد بما يربيه عليه أبوه أو أستاذه. واليتامى مساكين، قليلًا ما يوفقون إلى الهدى وكثيرًا ما يفلت زمام أنفسهم من أيديهم فينطلقون في الحياة ونفوسهم مشردة معربدة تنغمس في الرذيلة حينًا، وتتخبط أحيانًا بين الرذائل والفضائل، ولكنها لا تستقر على فضيلة إلا ما فرضه عليها مجتمع اليتامى المشردين الذين يحيطون بها، وليس يفرض هذا المجتمع كثيرًا من الفضائل، فهو كمجتمعات المشردين والمشبوهين من اليتامى والمساكين الذين ترينهم ملقَين في الشوارع...

- وهل فرغ إيليا أبو ماضي من حياته حقًا وتوفر على تأديب نفسه، فهو إذن قادر على أن يؤدب غيره؟ وإذا كان قد فرغ من حياته حقًا فمن أين يأكل... وكيف يعيش؟

- إنه يأكل كما تأكل الطير في السماء، ويعيش كما يعيش الحر الكريم؛ منذ سنوات وسنوات هبط مصر وأراد أن يستقر فيها، فاتخذ لنفسه محلًا يبيع فيه السجاير والدخان ووقع عليه أنطون الجميل بك فرآه يكتب شعرًا في الدكان، فقرأ شعره فأعجبه فنشره في مجلة كان يصدرها، فقامت قيامة الأدباء والشعراء المصريين عليه فأوسعوه نقدًا، وأوسعوه تجريحًا، وتناولوا ألفاظه ولغته وراحوا يناقشونه في هذه الفاء ما موقعها من الإعراب، وهذه النون لماذا هي مفتوحة وهي في الأصل مضمومة، وهذه الهمزة، لماذا قطعها وهي همزة وصل؟ وتكاثروا عليه، وكان في مصر إذ ذاك أمير للشعراء هو المرحوم أحمد شوقي بك، وكان رحمه الله يستطيع أن يقول كلمة ينقذ بها إيليا من بين براثن هؤلاء الذين ينقدون الشعر بغير ما يصلح نقدًا للشعر، وكان رحمه الله يستطيع أن يقول لهؤلاء النقاد: إني أربأ بالشعر أن يعيبه هذا

الذي تروون مما يعيب اللغة والعروض والنحو وسائر ما يحصل بالقراءة والدرس، وإني أرفع الشعر فوق هذا كله، فهو حديث النفس والنفس من الله وليس لله لسان مما ننطق به. كان شوقي بك رحمه الله يستطيع أن يقف من إيليا هذه الوقفة ولكنه - رحمه الله - كان مشغولًا بشعره هو وبنفسه هو، وبالملك العريض الذي أرسله فيه الزمن، فلم يشعر مطلقًا بالذي حدث لأبي ماضي، ولم يطق أبو ماضي صبرًا على هؤلاء المهاجمين فشد رحاله إلى أمريكا، حيث يتكلم الناس بالإنجليزية، وحيث لا عرب إلا الباحثون عن الرزق، والخارجون من أوطانهم وأيديهم صفر، ثم استطاعوا هناك في أشد معامع الحياة ازدحامًا واصطراعًا أن يجمعوا المال وأن يعيشوا به كرامًا، لا ذل يرهقهم إلا الغربة ولا مستعبد يزيحهم عن الأرض؛ وإنما لكل امرئ هناك ما سعى، ولقد سعى أبو ماضي فأنشأ هناك مجلة اسمها السمير ويقولون: إنه أنشأ متجرًا للدخان والسجاير أيضًا؛ وراح بعد ذلك يتأمل الدنيا ويرنو إلى الآخرة، ويقيد على الورق ما يتكشف له من الحقائق، وما يلمحه من المبهمات، ويسجل على نفسه بلوغها وقصورها، وخيرها وشرها، وهداها وحيرتها أفلا يصلح هذا أستاذًا لأدب النفس؟ فإن كان لا يصلح، فمن ذا الذي يصلح؟!.

- ولكن هذا الذي رويته من حياته يدل على أنه من رجال الدنيا المغامرين الذين يجرون وراء الرزق والمادة من آسيا إلى أفريقيا إلى أمريكا فكيف تقول إن هذا رجل فرغ من الحياة واستغنى عن مادتها؟

- البلبل يطير من فنن إلى فنن يتلقط رزقه، ولكنه لا يقضي كل وقته في البحث عن طعامه، وإنما يقضي أغلبه في الشدو والترتيل فهما طبعه وقد اختص بهما، وليس الأكل من طبعه إلا كما هو من طبع الخلائق، وليس الشدو والترتيل من خصائص غيره إلا من كان

على طرازه من الخلائق. فأبو ماضي لم يجد رزقه في الشام فطار إلى مصر، فوجد فيها الرزق مقدورًا عليه فطار إلى أمريكا، فوجد فيها رزقًا مباحًا طاهرًا قد يكون كثيرًا وقد يكون قليلًا ولكنه نقي غير محسود، فلا عجب إذا اطمأن أبو ماضي هناك... ولكن ثقي أنه يحن إلى الشرق، ولعل أغلب حنينه يهتاج إلى مصر فهو يقول:

وطنان أشـــواق ما أكون إليهما ... مصـــــــر التي أحببتها وبلادي

ومواطن الأرواح يعظم شـــــأنها ... في النفس فوق مواطن الأجســـاد

حرصـــي على حب الكنانة دونه ... حرص الســـجين على بقايا الزاد

بلـــد الجمـــال خفيـــه وجليـــه ... والفن من مســـــــتطرف وتلاد

عرضـــت مواكبها الشـــعوب فلم ... إلا بمصـــــــر نضـــــارة الآباد

- ولكن هذا شعر يسير المعنى قريب اللفظ... أليس له شعر أحلى؟

- له... له كل هذا الديوان الذي في يدي، وله غيره... وبارك الله لصاحب الرسالة الذي ينشر فيها بين الحين والحين شيئًا من شعره، وكم أريد أن أقول أيضًا بارك الله لوزارة المعارف لو أنها عطفت على تلاميذها وطلابها ويسرت لهم شيئًا من هذا الشعر.

- ولكنه لا يزال حيًا يرزق، والدولة لا تخلد إلا من فارق الحياة...

- فأل الله ولا فألك، فوزارة المعارف تخلد كلام الأستاذ الجارم الموظف بوزارة المعارف، ووزارة المعارف تخلد كلام الأستاذ أحمد أمين عضو لجان وزارة المعارف، ووزارة المعارف تخلد كلام الدكتور طه حسين بك مراقب الثقافة بوزارة المعارف، ووزارة المعارف تكاد لا تلتفت

إلا لمن كان في وزارة المعارف، منذ حسنين باشا صاحب كتاب الطبيعة، وعبد الفتاح صبري باشا، وكل ما في الأمر أن الصور تتبدل وتتغير، وأن الكلام يتلون ويتشكل، ولكن الأمر لا يزال كما كان: موظفون يؤلفون كتبًا. ثم يؤلفون لجانًا. فتقرر اللجان الكتب...

- اخسأ. لا تقل عن هؤلاء الأساتذة الإجلاء إنهم أصحاب أهواء ولا مطامع فهم الأدباء الذين في البلد، وهم الشعراء وهم الكتاب، فإذا لم تأخذ الوزارة كتبهم فأي الكتب تأخذ؟

- إن أساتذتنا هؤلاء هم أساتذة الجامعة، فأحرى بهم أن يوفروا أنفسهم للعلم؛ لأنهم على العكس من إيليا أبي ماضي... هو يتاجر في الدخان ليأكل منه وليفرغ للأدب لا يذل نفسه، وهم يتاجرون بالأدب ليأكلوا منه لا يعتزون بأنفسهم، ولا يشكرون الله على ما يسر لهم من وظائف...

- ثق أنك مخطئ، وثق أنهم أرفع نفسًا مما تحسب، وثق أنهم يتجشمون في سبيل تثقيف البلد ما أسأل الله أن يجزيهم عنه خيرًا...

- آمين... أسمعي أبا ماضي يصف الشاعر:

أتقولون إنه مجنون

أتقولون إنه مفتون

أتقولون شاعر مسكين

كم مليك كم قائد كم وزير... ود لو كان شاعرًا مسكينا

عاش ملتن فلم يكن مذكورا

وهو ميروسْ كالشيخ كان ضريرا

ولقد مات أبن برد فقيرا

أرأيتم كما رأى العميان... أفلستم بنورهم تهتدونا؟

- هل هو زاهد؟

- نعم، وهو يقول في الزهد:

قيل: أدري الناس بالأسرار سكان الصوامع

قلت: إن صح الذي قالوا، فإن السر شائع

عجبًا! كيف ترى الشمس عيون في براقع

والتي لم تتبرقع لا تراها؟ ...

لست أدري...

- إذن فهو يسخر من الزاهدين...

- إنه لا يسخر من شيء مطلقاً وإنما هو متطلع إلى الوجود يتعلم الحكمة فكلما تعلم حكمة تفتقت له من ورائها حكمة، فهو لا يزال كلما تعلم علمًا تبين له في نفسه جهل حتى يقول:

إنني جئت وأمضي، وأنا لا أعلم

أنا لغز، وذهابي كمجيئي طلسم

والذي أوجد هذا اللغز لغز مبهم

لا تجادل... ذو الحجى من قال إني...

لست أدري...

- لعله كافر...

- الكافر لا يقول للناس:

لو دخلتم هياكل الإلهام

وسرحتم في عالم الأحلام

واجتليتم سر الخيال السامي

وعرفتم كما عرفنا الله... لخررتم أمامنا ساجدينا

- إذن فهو مؤمن...

- ومسلم في مسيحيته، لو عرفتِه لوافقتني على ترشيحه للأستاذية في كلية الآداب يعلم طلابها الإيمان والحكمة شعرًا، ويؤدب نفوسهم أدبًا، فإذا تعذر هذا أو صعب فلا أقل من أن يعرض على التلاميذ ديوانه.

في معرض مختار

كان الزوار جميعًا في ركن ملتفين حول هدى هانم شعراوي، وسيدتان مفردتان في ركن آخر تحومان حول التماثيل، إحداهما من أصحاب المعرض تشرح للأخرى الزائرة، فعرجت إليهما ووقفت على مقربة منهما أدعي أني أنظر في تمثال، بينما أنا أتسمع إلى ما تقولان، لأرى كيف تتحدث السيدات عن التماثيل...

ووقفنا أمام تمثال (المنجد)... الزائرة تنظر إليه في حيرة كأنها تخاف أن تظهر الإعجاب به، بينما يكون هو مما لا يستحق الإعجاب، وتخاف أن تزدريه، بينما يكون هو من روائع المعرض فوقفت الزائرة ساكتة كأنها مستغرقة في تأمل التمثال، وكأنها ممن لا يتسرعن إلى إصدار الحكم على الأشياء لغرام عندها بالتحقيق والتدقيق، وتقليب أوجه النظر، واستقصاء المحاسن والعيوب، كيلًا يكون حكمها آخر الأمر إلا الحكم الفصل الذي لا يقبل النقض.

ورأت صاحبتها أنها لو انتظرتها، حتى تقول كلمة في المنجد أو تعبره من غير كلام، فإنها قد تقضي الدهر واقفة مع زائرها وهي تمثال آدمي لطيف أنيق (أريستكرات)، ينظر إلى تمثال من حجر متواضع ديمقراط... فقطعت صاحبة المعرض هذه السكتة الباردة وقالت:

- مدهش التمثال...

... فبلعت الزائرة ريقها لأنها سمعت كلمة خرجت من فم صاحبتها وفي نبراتها معنى التأكيد فأدركت أن هذه الكلمة حكم على التمثال، ولكنها لم تلبث حتى زاغت روحها مرة أخرى كأنها لم تفهم ما إذا كانت كلمة (مدهش) هذه مدحًا للتمثال أو ذمًا، وكادت

روحها تتكاسل وتقنع بهذا الزيغ فتظل في التيه الذي انتقلت إليه حتى تستدرجها صاحبتها إلى عالمنا هذا بكلمة أخرى... غير أن الله ألهمها أن كلمة (مدهش) هذه قد مرت بها قبل ذلك فقلبت عينها في محجريها فاستدارتا فبان بياضهما وحده، واتجه إنساناهما إلى داخلها يفتشان في أعصابها وحنايا نفسها عن كلمة (مدهش) هذه ما معناها... وأخيرًا اهتدت، وظهر عليها أنها ذكرت، وأغلب الظن أنها ذكرتها بمجلة من المجلات العصرية التي تكتب أنباء الطبقة الراقية فقد خدمت هذه المجلات اللغة العربية إذ حملت بعض كلماتها إلى أهل الطبقة الراقية هؤلاء.. فلها الشكر...

وكأن صاحبة المعرض أدركت أن زائرتها قد فهمت أخيرًا أن هذا التمثال مدهش، ولكنها إلى جانب هذا أدركت أن هذه الزائرة الصغيرة، لا تزال تريد أن تعرف لماذا كان هذا التمثال مدهشًا، فأسرعت وقالت:

- إنه مدهش لأنه ولأنه حلو...

... وكانت صاحبة المعرض تستطيع أن تقول (بسيط) و(جميل) ولكنها خشيت ألا تفهم الزائرة من كلامها شيئًا، وهي زائرة عليها مظاهر اليسار، وأمثالها وحدهن هن اللواتي يشترين التماثيل ليضعنها في الصالونات لتكون موضوعًا لحديث الزائرين والزائرات ومجال الإشارة إليهن والتنويه بهن في الصحف والمجلات...

وانتقلت الزائرة من أمام تمثال المنجد إلى أمام تمثال بائع العرقسوس وهو تمثال كبير في الحجم الطبيعي وقد صنعه صاحبه من الورق المقوى صناعة اهتم فيها بمظهر التمثال وملابسه وأدواته اهتمامًا كبيرًا.

ورأت الزائرة ألوان التمثال فانبهرت، وكأنها قالت في نفسها لابد أن يكون هذا التمثال هو بطل المعرض فليس غيره تمثال مزوق منمق لابس ملابسه كلها، وليس ينقصه إلا أن يمشي في المعرض يبيع للناس مما يبيع... وهنا تفتفت في رأس الزائرة مسألة جديدة هي هذا الذي يبيعه الرجل... الورقة مكتوب عليها بائع العرقسوس، ولكن ما هو العرقسوس؟ ... بنات الطبقة الراقية لا يعرفن العرقسوس! ... فسألت صاحبتها:

- دي جيلاتي...؟!

وصدمني هذا السؤال فضحكت، وشعرت الزائرة بأني أضحك ساخرًا منها فاصطنعت السعال وأرادت صاحبة المعرض أن تنقذ زائرتها فرطنت إليها بالفرنسية كلامًا قد يكون معناه: لا تعبئي بهؤلاء الشعب. وأدركت أني إذا وقفت بعد ذلك على مقربة منها أو تبعتها فإني سأفسد الشغل على المعرض وأصحابه، وأنا من أول الأمر لا فائدة مني للمعرض ولا نفع فلا أقل من أن أكون غير ذي ضرر. فانتحيت جانبًا أفيض حسرة على متابعة هذا الحديث الشهي الدائر بين هاتين السيدتين... أريد أن أسمعه إلى آخره وأن أعتصر كل ما في أسئلة الزائر من بله، وأن أستمتع بكل اي في أجوبة صاحبتها من صبر وسخرية...

ولكني ابتعدت مجاملًا، وعدت إلى تمثال المنجد عساني أرى فيه شيئًا أكثر مما أشارت صاحبة المعرض لزائرتها...

التمثال يمثل شابًا مصريًا منجدًا في جلباب قاهري لعله كان من (الزفير) أو (العبك)، وهو جالس على الأرض جلسة المنجدين وفي يده القوي يضرب به القطن... وقد كتب عليه أنه من صنع الآنسة جلاديس بولاد وأنه نال الجائزة الأولى.

التمثال كله مصنوع بمهارة وحذق ولباقة ورقة، وهو منسجم مستريح سليم لا عيب فيه إلا شيء واحد فقط... ذلك أنه إذا أقسم لي أهل الأرض وأهل المريخ بأن الآنسة جلاديس قد نقلت هذا التمثال عن شاب منجد حقًا فإني أصر على رفض هذا القسم ممتنعًا على الاقتناع به. وإنما وجه هذا التمثال منقول عن وجه شاب يخيل إليّ أنه من بيئة مهذبة تهذيبًا عاليًا، ما يخيل إلى أنه نفسه من المفكرين الذين لا يفتأون يحاسبون أنفسهم ليلًا ونهارًا ويتأملون في كل ما يسنح ويعرض لهم من البوادي والظواهر، كما أني أرى فيه ما هو أعمق من هذا وأشد انطباعًا في نفسه، ذلك أنه لابد أن يكون ذلك الشاب الذي نقل عنه هذا التمثال عاشقًا مدلهًا معذبًا أنكسر قلبه من الحب وهو يمسك بعقله خشية أن ينكسر هو أيضًا...

كل هذا ظاهر في ملامح الوجه الذي ربط على جسم هذا المنجد، فإما أن يكون هذا التمثال منقولًا عن شاب لا صلة له بالقوس ولا بالقطن، وإما أن يكون هذا المنجد من قراء الدكتور غالي الذين يدوخون في تفهم النسبية والإلكترونات وما إلى ذلك من المصاعب، على أن يكون هذا القطن الذي (ينجده) قطن معشوقته التي ستزف إلى منافسه في الغرام...

وعلى وجه غير هذين الوجهين لا أستطيع أن أفهم هذا التمثال ولا أن أستسيغه، فأيهما كان هذا الشاب صاحب هذا التمثال؟ على أي حال إن هذا أمر لا يعنينا وإنما يكفينا أن نلمح هذا اللون أو ذاك من الحياة في التمثال، فليس لنا عند الفنان أكثر من أن يسقينا شهده، وليس لنا عليه أن يكون هذا الشهد ما نعرف أو مما سبق لنا أن ذقناه...

إنه (منجد) رأته هكذا الآنسة جلاديس بولاد... ولها أن تفخر بأنها رأت شيئًا وبأنها تحس وتدرك ثم تعبر عما تقف أمامه زائرة كالتي رأيناها لا تعرف الفرق بين بائع الجيلاتي وبائع العرقسوس...

انتهيت من هذا (المنجد) ونظرت يمنة ويسرة فلفتني تمثال لغجرية تبين (زينا) لامرأتين قرويتين استند إلى كتف إحداهما طفل... كنت على بعد خطوات من التمثال أراه ولا أرى تفاصيله وملامح وجوهه، فجذبني إليه (موضوعه) واقتربت منه أبحث عن فعل لفنان فيه، فالغجرية امرأة لها عقل أبرع من بقية العقول، ولها نظرات أنفذ من بقية النظرات، ولها إشارات أكثر امتلاء بالمعاني من بقية الإشارات، والنسوة اللواتي يجلسن إلى الغجرية يستفتينها في شؤونهن لسن هادئات ولا نائمات، وإنما تثور في نفوسهن رغبات، وتصطرع فيها آمال، وتتخبط فيها نزوات ولواعج، والصبي الذي يستند إلى كتف أمه ويقف يسمع الغجرية تحدثها لا يمكن أن يخلو من الفضول وحب الاستطلاع، ولا بد أن يظهر في وجهه تفرس يتتبع به هذا الكلام العجيب الذي يسمعه والذي يحسه لا يشبه غيره من الكلام...

دنوت من التمثال لأرى فيه هذا كله فماذا رأيت؟

رأيت الغجرية نائمة والمرأتين ناعستين والصبي المستند إلى كتف أمه شارد الروح... بل إن شارد الروح يدل على نفسه، فيعرف الناظر إليه أنه قد سرح إلى دنيا غير هذه الدنيا، فهو موجود فيها، وإن كان مفقودًا في دنيانا... أما هذا الطفل، فقد ظهر عليه أنه ابتلع روحه، فهي في بطنه محبوسة لا تكسوه حياة الأرض ولا تنتقل به إلى حياة أخرى...

كان هؤلاء الجماعة أشبه الجماعات بتلاميذ المدارس في لحصة الخامسة بعد أكله العدس... متهافتين إلى النوم، متبلدين عن الفهم، ولم يكن فيهم ما يكون في غجرية وجماعة مصغين إليها... فكسف

دخل هذا التمثال هذا المعرض؟ وأي شيء فيه أغرى المعرض بعرضه؟ ... هذا ما يعلمه الله وما يعلمه أولئك الذين يقولون: إنهم يشجعون الفنانين الناشئين. والذين أريد أن أقول لهم: إن تشجيع الفنانين الناشئين لا يصح أن يكون على حساب الفن، ولا يصح أن يتعدى حدود التشجيع إلى أن يكون تحريضًا على الفن، وإكراهًا له أن يخضع ويذل لمن لا يكرمه ويفسح له روحه ونفسه. وهذه كلمة شديدة لا أريد منها إلا أن تحفز صاحب الغجرية على أن يمعن في التأمل إذا تأمل وأن يثابر في تجويد التعبير إذا أقبل على تمثال جديد، فإذا لم يجد في نفسه القدرة على ذلك استرزق الله عملًا آخر غير الفن...

وبدأ الزحام الذي كان محيطًا بهدى هانم شعراوي في الركن البعيد ينحل قليلًا قليلًا، فقصدت إلى ذلك الركن فكان أول ما استرعى نظري فيه تمثال آخر صغير لبائع العرقسوس حسبته أول ما رأيته أنه من صنع آنسة أو سيدة لما رأيت فيه من حنان وإعجاب ذاعا في تكوينه ونحته، وتفصيل جوارحه تفصيلًا لا يمكن إلا أن يكون استجابة لطرب كانت ترقص به اليدان اللتان نحتتا هذا الجسم الفارع المشرق الأنيق. حسبت هذا ولكنني علمت أنه من صنع شاب هو سيد زيدان، فهنأته به ولم أكتم عنه ما خطر لي فابتسم في استحياء كمن لم يكن يحب أن يقال له كلام كهذا، ولكني هونت عليه بأنه لا حرج على الفنان الرجل أن يعجبه جمال الرجال... وإني أعتقد أنه لو كان زيدان قد اهتم بوجه تمثاله هذا على نحو ما لكان قد عرض إلى جانب هذا الجسم الحلو وجهًا فيه شيء ما نذكره له إلى ما ذكرناه من جمال البدن في تمثاله، ولكنه استغرق في الذراعين والساقين والكتفين، وغير ذلك واكتفى بذلك...

واكتفيت أنا أيضًا وهممت أن أنصرف، لولا أني رأيت عبد السلام الشريف ينطلق إلى تمثال (عازف الربابة) ليقرأ اسم صاحبه فقرأت الاسم معه وسألته رأيه في التمثال وصاحبه فقال: التمثال بديع وصاحبه أحمد صدقي مثال محسن وعبد السلام الشريف فنان في الصف الأول من الفنانين المصريين، له أسلوب في الرسم والزخرفة لم يسبقه إليه إنسان، وقد أحدث القارئ عنه في فرصة قريبة، وفنان هذا شأنه لا بد أن يكون لشهادته قيمتها. والحق أن تمثال العازف على الربابة تمثال بديع ولو أنه لم ينل جائزة، وميزته أنه منحوت على المنهج الفرعوني وفق الطريقة التي أحياها المرحوم مختار، ومع هذا فإن صاحبه احتفظ (بقاهريته) في وجه التمثال فلم ينحته عن واحد من أبناء الصعيد أو أبناء الريف، وإنما صوره وجهًا قاهريًا فيه تأنق القاهريين، ولطربوشه ميلان التأنق الذي يصطنعه أبناء القاهرة، ولشاربيه انتظام شواربهم وإحسان تنظيمها.

ولا ريب أن هذا التمثال كان أحق بالجائزة من التمثال الذي نال الجائزة الثانية، ولكنهم قالوا لي: إنهم منحوا الجائزة الثانية لآنسة متعمدين كي يشجعوا الجنس اللطيف على غزو ميدان الفن.

وأنا منذ اليوم أنذرهم بان ليس في الجنس اللطيف هذا أمل كبير في الحصول على فن من صنع يديه، فعليهم في المسابقات المقبلة أن يراعوا الحق فذلك خير.

العشرة الطيبة

منذ زمن طويل والكتاب يدعون أستوديو مصر إلى إخراج العشرة الطيبة للسينما، وقد كان رجال الأستوديو يترددون دائمًا حيال هذه الأوبريت الرائعة ويشفقون من إخراجها بسبب واحد وهو أن قصة العشرة الطيبة تصور الحياة المصرية في حقبة من الزمن لا تشرف المصريين، وهي تلك الحقبة التي حكمها فيها الأتراك والمماليك معًا، والتي كان هؤلاء الحكام يعبثون فيها بحقوق الناس عبثًا شديدًا سخيفًا ضعف إزاءه المصريون، واستلانوا له وجعلوا شعارهم معه قولهم: (من تزوج أمي قلت له يا عمي) وقولهم: (إن كانت لك عند الكلب حاجة فقل له يا سيدي)...

ولقد حاولت أكثر من مرة وفي أكثر من صحيفة أن أنزع من أذهان رجال أستوديو مصر هذه الكراهية الخاطئة التي يصبونها على العشرة الطيبة لهذا السبب وحده، ولعلي ضربت لهم يومًا مثلًا برواية هنري الثامن التي مثلها شارلس لاوتون لإحدى الشركات الإنجليزية، والتي لم يتورع ذلك الممثل الإنجليزي الكبير حين مثلها أن يصور هنري الثامن الملك الإنجليزي بصورة هي أقرب الصور لما كانت عليه حقيقة هذا الملك، ولم تكن حقيقة هذا الملك مفخرة من مفاخر بريطانيا العظمى، ولا مثلًا طيبًا لحكمها وملوكها، وإنما كانت حياته كما روى التاريخ وكما أظهرتها السينما حياة كلها صيد وزواج، وأكل، وطلاق، وفتك بالنساء وبالحيوان وبالتقاليد، واستخفاف بشريعة النصارى التي لا تبيح انفصال الزوج عن زوجه إلا للسبب الشنيع الواحد الذي لم يحاول هنري الثامن مطلقًا أن يجعله وسيلة إلى التخلص من

نسائه لأنه كان يرى نفسه فوق التحقيق والتدقيق واستقصاء الأسباب وإبداء الأعذار...

ومع هذه البشاعة كلها، ومع هذه العتمة والظلمة والسواد فإن الإنجليز لم يكرهوا شارلس لاوتون، لأنه أخرج هنري الثامن على حقيقته، بل إنهم على العكس من ذلك أحبوه وقدروه، وبدءوا منذ أخرج هذا الفلم يعتبرونه فنانهم الأول في هذا العصر، وهنري الثامن ذات حقيقية فعل بها شارلس لاوتون هذا كله تحت أعين الإنجليز وأسماعهم، بل إنه استعان على فعله هذا بأموالهم وبكفايات الذين ساعدوه من رجالهم. أما (العشرة الطيبة)، فليس فيها ذات حقيقية واحدة ممن يعتز بهم التاريخ المصري، أو ممن ينتسبون إليه ويخشى إن هو أظهرهم للناس أن يلصقوا به نقائصهم وعيوبهم... وإنما هي قصة خيالية تصور كاتبها المرحوم محمد تيمور أن حوادثها جرت في مصر، وقد كان يستطيع أن يتصورها جرت في الهند، كما كان يستطيع أن يتصورها جرت في كوكب آخر غير هذه الأرض، لولا أنه آثر أن تكون حين تنسب إلى مصر أقرب إلى نفوس المصريين، واشد إغراء لهم بالإقبال عليها والاستمتاع بها. وقد كانت (العشرة الطيبة) فعلًا من أحجار الأساس الأولى التي وضعت في بناء المسرح المصري.

وقد ترامى إلينا أن أستوديو مصر بدأ يفكر في هذه الأيام في إخراج العشرة الطيبة، وأن رجاله بدءوا يتخلون عن تلك الفكرة العجيبة التي ظلوا يتشبثون بها زمنًا طويلًا والتي حالت بينهم وبين إخراج (العشرة الطيبة) هذا الزمن الطويل، ولا ريب أن أستوديو مصر إذا نفذ هذه الفكرة فإنه سيفتح بها فتحًا جديدًا في تاريخ أوبريت السينما في مصر، ففي هذه الرواية مجموعة من الألحان يشهد الموسيقيون المصريون جميعًا قبل النقاد وقبل الجمهور بأنها خلاصة الموسيقى التمثيلية المصرية، وأول

من شهد بهذا هو المرحوم الشيخ سيد درويش الذي وضع موسيقى هذه الأوبريت. فقد سئل رحمه الله يومًا بعد أن أنشأ لنفسه فرقة خاصة أخرج فيها روايتي (البروكة) و(شهرزاد) عن أحب آثاره الفنية إليه فقال إنها العشرة الطيبة، وكان السائل يحسبه سيقول عن إحدى هاتين الروايتين اللتين أعدهما لنفسه ولفرقته واللتين لن تأخذهما منه فرقة من الفرق.

وإنني لا أشك في أن سيد درويش رحمه الله كان على حق في تفضيله للعشرة الطيبة على غيرها مما لحن، فهي أصفى وأنقى من كل رواياته، ونفسه منطلقة في ألحانها كل الانطلاق لا يقيدها قيد ولا يكتفها شرط.

ولعل القراء يعرفون أن موسيقى سيد درويش كانت تصيبها أحيانًا آفات لم يجد سيد درويش نفسه بدًا من أن يسمح لها بأن تصيب فنه، بل إنه هو الذي كان يبلو فنه بهذه الآفات، لأن احترافه التلحين للفرق المختلفة هو الذي كان يجبره عليه. هذه الآفات تظهر بموازنة ألحان سيد درويش للفرق المختلفة بعضها ببعض. فألحان سيد درويش لمنيرة المهدية، غير ألحانه للريحاني، غير ألحانه (للعكاكشة...) وذلك يرجع إلى أن سيد دروش كان يتقمص أبطال الغناء والتمثيل حين يلحن لهم، وكان يتدفق في تلحينه لهم بروح هي أقرب إلى أرواحهم منها إلى روحه هو، وبأسلوب هو أقرب إلى أساليبهم منه إلى أسلوبه هو، وليس معنى هذا أن سيد درويش كان يفقد نفسه في هذه الألحان التي كان يعطيها غيره، وإنما معناه أنه كان يتنكر بصور مختلفة في أثناء تلحينه... ومن هذه الصور - صور المغنين والممثلين - ما هو خفيف جميل رائع، ومنها ما هو ثقيل سمج أقتم الظل... ومع الثقيل السمج الأقتم الظل لم يكن سيد درويش يستطيع أن يسبل عليه من الحسن إلا بمقدار ما تستطيع شركة السكر أن تبعث الحلاوة في ملاحة رشيد...

وكان سيد درويش رحمه الله يعارك الثقلاء من أبطاله، ويسبهم ويلعنهم، وكان يثور على بعضهم ويضربهم لكي يطاوعوه ويسايروه، ويحملوا أرواحهم على التأثر بروحه، وأذواقهم على التبسط في الغناء والتمثيل، وترك الشعوذة والتطريب، ولكنه لم يكن يجني من هذا كله إلا أن يحترق دمه وأن تتهدم أعصابه، ويظل الثقلاء من أصحاب الفرق وكبار المغنين... على ما هم عليه من فساد الذوق و(العصلجة)، فكان المسكين لا يرى بدًا في بعض الأحيان من أن يعطيهم موسيقى لهم هم، وتروق الناس أيضًا، ولكنه هو كان أول من يعرف أن عنده خير منها وأروع...

أما حين وضع سيد درويش ألحان (العشرة الطيبة) فقد كان حرًا متحررًا من كل قيد، ومن كل اعتبار خارج على إرادته.

ذلك أن نجيب الريحاني كان له في ذلك الوقت فرقتان، فرقة كان يلعب بها (كشكشياته) الرشيقة وفرقة أخرى أسلمها العزيز عيد يخرج بها فنًا دسمًا. وكانت رواية تيمور هذه أول ما وقع عليه اختيار هذه الفرقة، وكان بديع خيري إذ ذاك لا يزال يشق طريقه إلى مجده الغني الزاهر فلما عهد إليه بوضع أزجال هذه الرواية بثها روحه كلها لم يقتصد ولم يدخر وسعًا في إجادتها والتأنق فيها، فلما تسلم سيد درويش هذه الأزجال ليلحنها حرًا أعطاها هو أيضًا كل نفسه، لم يقتصد كذلك ولم يدخر وسعًا في إجادتها والتأنق فيها. ولم يزل الريحاني ينفق على (بورفات) هذه الرواية الأشهر الطويلة حتى اكتمل ما أنفقه ألف جنيه، فضج وراح يزور هذه البروفات ليرى أي شيء فيها يستدعي هذا التريث كله، وهذه النفقات كلها... ولم تشعر به الفرقة وهو يتجسس عليها متسمعًا لأحد ألحانها، ولكنها شعرت به عندما فرغت من ذلك اللحن وهو يقول موجهًا الحديث إلى عزيز عيد: (لقد

كان في عزمي أن أضع اليوم حدًا لهذا الإسراف، ولكني بعد ما سمعت هذا اللحن أراني مضطرًا إلى أن أتركككم وشأنكم فليس هذا الذي تصنعونه بالشيء العادي).

وقد كان نجيب محقا، فالعشرة الطيبة من غير شك معجزة

وهنا قد يسألني سائل: لماذا كانت العشرة الطيبة (درويشية) أصفى من شهرزاد والمبروكة، مع أن هاتين الروايتين الأخيرتين قد وضعهما سيد درويش لنفسه ولفرقته لم يتقيد فيهما هما أيضًا بقيد، ولم يراع فيهما ذوق أحد غير ذوقه الخاص؟

وإجابة عن هذا السؤال نقول: إن سيد درويش لحن العشرة الطيبة أوائل حياته الفنية أو في أواسطها، بينما لم يلحن شهرزاد والبروكة إلا قبيل وفاته. وقد حدث أن تأثر سيد درويش بعد العشرة الطيبة بالأساليب الغربية في الإلقاء المسرحي، وقد ظهر هذا التأثر واضحًا جليًا في ألحان رواية البروكة الغربية الحوادث والأبطال، كما ظهر هذا التأثر باهتًا غير جلي في ألحان شهرزاد. وليس هذا التأثر بالروح الغربية مما يعيب هاتين الروايتين فلا يزال تقليد الغربيين في الفن الشرقي هو مقياس الفلاح، ولكنني أنا الذي أكره هذا التأثر، كما أحب أن أجد عند كل فنان مصري روحًا مصرية خالصة، هي من غير شك مهما هانت وتواضعت، لن تكون إلا أصدق من روحه إذا قلد بها الغربيين وأساليبهم.

ولكن سيد درويش كان معذورًا في التفاتاته للموسيقى الغربية وآلاتها وأدواتها وطرائقها وأساليبها، وتوزيع الأصوات فيها، فقد شاءت الظروف أن يكون هو الموسيقى المصري الذي ألقت عليه النهضة المصرية أعباء الفن ليثب به من حالة الركود والإنشاد التي سبقته إلى

حالة الحياة والصخب والتدفق والتفرع والشمول التي كانت على أيام سيد، والتي يريد من جاءوا بعد سيد أن تكون على أيامهم.

فلو أن سيد درويش عاش أكثر مما عاش لكان قد استتب له تقرير ما يصلح أخذه من الأساليب الغربية في الموسيقى واصطناعه في موسيقانا، ولكان قد أدرك أنه لا يقل شيئًا عن وجنر وفردي وغيرهذين من أعلام الموسيقى الذين كان يتوق دائمًا إلى أن يكون في صفهم، ولم يكن إلا في صفهم بمواهبه وصفاء روحه، وإن كان قد أعوزه ما لم يعوزهم من التثقيف الفني الذي لا يعدو أن يكون حساب الموسيقى وتطريزها لا الموسيقى نفسها...

ولنعد الآن إلى أستوديو مصر لنسأله: هل صحيح ما نشرته بعض المجلات من خبر اعتزامه إخراج العشرة الطيبة...

أما إذا كان هذا الخبر صحيحًا فإنه خبر يغتبط له الشرق كله لا مصر وحدها. وإن لنا صحة هذا الخبر رجاء نتجه به إلى أستوديو مصر ورجاله وهي أن يشترك عزيز عيد ونجيب الريحاني معًا في الفلم على أي نحو وعلى أي وجه، فلهما من خبرتهما وذكرياتهما -على الأقل -ما نطمئن به على أن تعود الحياة إلى العشرة الطيبة على النحو الذي أراداه لها مع صاحبها...

استنجلينا!

- مسكين أخي أصيب بحب ابنة الجيران فهو لا يأكل ولا ينام، وقد حاولت كثيرًا أن أجعله يفهم الحب لغوًا وطيشًا وخيالًا، ولكني فشلت، وظل يقول إنه يشعر بوجع صحيح في قلبه وإنه لن يبرأ منه حتى ينال ابنة الجيران وهو ما يزال عند أبيه في البيت بين العيال.

- عندي دواء أخيك!

- والنبي؟

- لا أقسم بفائدته لأني لم أجربه ولكني أكاد أومن بأنه نافع...

- نجربه نحن... ما هو؟

- خذي مسمارًا، وضعيه في النار حتى يحمر، ثم انخسي به صدر أخيك فوق قلبه...

- نخستك النار في أحشائك... تريد أن تقتل الولد؟!

- ما كان الكي قاتلًا يومًا. العرب وأهل الصعيد جميعًا يعالجون أدواءهم به، وانظري إليهم تريهم أشد العالمين صحة، وأقواهم أبدانًا وأرواحًا...

- ولكنهم يكوون أبدانهم عندما يصيب المرض أبدانهم، لا عندما تبرح بهم العواطف، ولا عندما تصيبهن الهموم. كان فيهم من جن بحب ليلى، قيس، لم ينخسوه بمسمار ولم يطعموه الحر.

- صحيح أنهم قعدوا عن علاج قيس وأمثاله، وقد أقعدهم عنه وقوفهم بعلمهم عند حد رضوا به هم، ولكن هذا لا يجبرنا على أن نقف

نحن أيضًا عند هذا الحد ارتضوه من العلم فلنا أن نمضي فيه ما دام طريقه مفتوحًا... لقد أخذ العالم صناعة الورق عن الفراعنة، فهل وقف العالم في صناعة الورق عند ورق الفراعنة، وأبي أن يمضي فيها لأن أهلها الذين أوجدوها قعدوا بها عند حد؟!.

- طيب! فإلى أين تريد أن تمضي أنت بخزعبلاتك هذى؟

- لا أعلم. ولكن لك أن تسألي من أين أريد أن أبدأ... فهذا وحده ما أستطيع أن أجيبك عنه!

- ابدأ أينما تبدأ، ولكني أرجوك أن تنتهي إلى شيء يقره العقل...

- وما العقل؟ أظنه يحسن بنا أن نتفق عليه، وعما يصلح لأن يكون موضوع إقراره، حتى إذا ما وقفنا عند رأي لم نختلف عليه؛ فتقولين: إنه غير معقول؛ وأقول أنا: إنه معقول؟!.

- ولكن هذه حكاية جديدة، بل هي حكاية قديمة جدًا فيما أظن... ألم تعرف إلى الآن العقل ما هو؟

- ومن عرف!

- الناس جميعًا... اللهم إلا أولئك الذين لا يزالون يسألون عنه

- كان يخيَّل إليّ أن هؤلاء الذين يسألون عنه هم الذين عرفوه مرة مرات ويريدون أن يعرفوه دائمًا...

- ما هذا الكلام؟ الشيء إذا عرف مرة عرف دائمًا

- إلا العقل... فهو حين يعرف العقل يكون عارفًا ومعروفًا في الوقت نفسه، وهذا يستلزم أن ينشق العقل على نفسه، أو أن يتداخل في نفسه، أو أن ينتفض عن نفسه لمحة، ثم يعود إلى نفسه، فإذا عاد إلى

نفسه عاد عقلًا هو الذي كان قبل أن تحدث له حادثة المعرفة هذه، ولم يكن هو قبل هذه الحادثة يعرف شيئًا عن نفسه...

- هذا فرض يحتاج إلى إثبات

- إذن، أثبتيه أنت

- وأنا مالي؟ هل أنا الذي فرضته؟ ...

- ولكن، ألا ترينه معقولًا؟

- ومن كلام المجانين ما هو معقول

- فليسوا مجانين، أو هم ساعة ما يقولون الكلام المعقول لا يكونون مجانين... وما داموا يكونون مجانين أحيانًا، وغير مجانين أحيانًا فهم إذن كبقية الناس، فما من إنسان إلا ويحيد عن العقل وحكمه في كثير... فإما أن يكون الناس على هذا مجانين جميعًا، وإما يكونوا عقلاء جميعًا، وإما أن يكونوا جميعًا في حالة ثالثة يصيبون فيها الحكمة حينًا ويخطئونها حينًا، وهذا ما قدمته لك من أن العقل شيء إذا اهتدى إليه مرة لم يكن معنى ذلك أنه قد ربط وأنه لن يشرد ويتيه في وديان النسيان.

- وقد قبلت أنا هذا الرأي وسأدعك تقول ما تشاء على أساس أنه لا عقل ولا جنون.

- وأنا لا أرضى بهذا، فالعقل شيء موجود بلا ريب، وكل رأى لا يوافق العقل لن يكون إلا خبلًا، وأنا لا أحب ابنة الجيران مثل أخيك حتى اسمح لنفسي أن أسايرك فيما تريدين أن تعربدي فيه من الحديث وأنت مترنحة الفكر...

فماذا تريد مني أن أصنع؟

- أريد منك شيئًا لا بد أن أطلبه من نفسي كذلك حتى نكون نحن الاثنين عاقلين فنستطيع أن نتفاهم. خذي هذا الخيط وهذه الإبرة وهذا الثوب وخيطيه، وأما أنا فسأرسم في هذه الورقة دائرة، سأجعل نصف قطرها عشرة سنتيمترات، وسأقسم محيطها إلى عشرة أقسام وسأجعل في كل قسم منها وترًا، وسأجعل كل وتر من هذه الأوتار قاعدة لمثلث رأسه مركز الدائرة، ثم سأرسم في كل مثلث دائرة يمس محيطها أضلاعه الثلاث ثم سأجعل كل نقطة من نقط التماس هذه رأسًا لزاوية من زوايا مثلث آخر سأرسمه داخل كل دائرة من هذه الدوائر الصغار... خذي... إبدائي... وهأنذا سأبدأ معك ولنتحدث...

- ما شاء الله! ولن أكون عاقلة حتى أخيط لك الثوب، ولن تكون أنت عاقلًا حتى ترسم بيت جحا هذا الذي وصفته...

- نعم... مثلما كان يفعل الكردينال دي ريشلييه...

- رحمه الله... هو أيضًا كان يخيط الأثواب ويرسم المثلثات والدوائر...

- بل كان يجمع على مكتبه جيشًا من القطط لا يفتأ يحادثهن في المشكلات التي تعرض له ويسألهن حلها ويتملقهن استجداء لحلول معضلات ومشكلاته من عندهن، فهو يمسح هذه ويداهن تلك، ويهز بأصابعه شوارب ذاك، ويهرش بأظافره رأس هذا... ولا يزال هكذا حتى ينفلق عقله أو ينبلج، فينكشف له عقله ويرى الحكمة... إنه يشغل نفسه بعملتين عقليتين: أولاهما المعضلة التي يروم حلها، والثانية مناوشة القطط، وهو لم يكن يفعل هذا إلا لكي ينتفض عقله على نفسه ثم ينطبق مرة أخرى فإذا به في هذه الانتفاضة قد ومضت فيه شرارة من نوره هو، هي ما كان يبحث عنه ليسير على هدية... ألم ترى مطلقًا أناسًا يتشاغلون في أشد مواقف التفكير حرجًا برسم الخطوط، أو

بضرب الأرض، أو بفك الأزرار وإعادتها ثم فكها وإعادتها أو بحك جباههم أو بأي مشغلة يتشاغلون بها أثناء ما هم يفكرون فيما يحرجهم؟... كل هؤلاء مثل الكردينال دي ريشلييه، فهلا تحبين أنت أن تكوني مثله؟ ...

- ولكن الكردينال كان رجلًا هرمًا لا أظنني كنت أحبه إذا رأيته... أفلا تعرف مثلًا آخر أرشق من الكردينال دي ريشلييه...

- فلتكوني مثل جاري كوبر... ألم تشاهديه في (مستر ديدز الشاذ)؟

- شاهدته. واتهموه بأنه (استنجللينا)

- فأثبت لهم أن كل الناس (استنجللينا) خذي الثوب خيطيه لعل جاري كوبر يراك فيعجب بك فيكون يوم سعدك...

- وأين أنا منه، وهو في هوليود وأنا في القاهرة... هات الثوب هات وأمري لله، وابدأ أنت في الرسم كما تشاء، وقل ما تريد...

- وهو كذلك... ولكن في أي شيء كنا نريد أن نتحدث... لقد نسيت...

- أظنك كنت تريد أن تعالج حب أخي لابنة الجيران بأن تكويه فوق قلبه بمسمار محمي في النار...

- صحيح، وكنت أنت تنكرين هذا، وكان إنكارك يعتمد على اعتراض قوي هو أن الحب عاطفة وليس مرضًا بدنيًا حتى يعالج بدنيًا صرفًا... أليس كذلك؟

- بلى...

- أما كنت تستطيعين أن تقولي شيئًا غير (بلى) هذه فإني لا أحبها... على أي حال هي مسألة ذوق، وعلاجها هي أيضًا مسمار محمي في النار تنخسين به لسانك فلا تعودين إلى النطق بها وبأمثالها.

- ما أحد لسانه في حاجة إلى الكي غيرك...

- إذن فقد آمنت بالنظرية؟!

- لا يا سيدي... سحبتها...

- حسن... اسمي... ألا ترينه معقولًا أن تكون كل علة بدنية ظاهرة لعلة نفسية...

ثم ألا ترين أنه إذا كان الأمر كذلك فإنه يكون فيه توكيد لصلة البدن بالنفس.

- ليس لي شأن بهذا التوكيد، وإنما أريد منك ولو بعض الأمثلة التي تستطيع أن تتخذها عونًا لك على إثبات ما تقول...

- لا بأس... من تظنينه تصيبه التخمة إلا من أصابه الجشع والدناءة؟ ومن تظنينه يصاب بالمرض الخبيث إلا الذي خبثت نفسه وانقاد لخبثها؟ ومن تظنينه يصاب بالعرج إلا المشاء في الظلال وفي الظلمة؟ لست أريد أن أمضي معك إلى أكثر من هذا إلا أن أقول لك إن هذا الحكم يسمح لكثير من الأفراد والحوادث أن يشذوا عنه. ولكن هذا لا يعنينا، فشذوذ الحوادث والأفراد يحتاج إلى تأمل خاص في كل فرد وفي كل حادثة على أن يكون هذا الدرس بعد اليأس من انطباق القاعدة العامة...

- طيب، وبعد هذا؟

- ما دمنا قد اتفقنا على هذا فقد سهل الأمر. والعرب، وأهل الصعيد - وهم منهم - عرفوا لكل داء دواء مكمنه في أعصاب الإنسان

أين هو، وهم يكوون هذا المكمن بالنار فتطهر الأعصاب من رذيلتها وضعفها، ويزول المرض، وهم بهذا قد فتحوا لنا الطريق كما قلت لك، وعلى علماء النفس وأطباء هذه الأيام أن يتابعوا السير في هذا الطريق، وعلى الخصوص بعد أن قال قائل منهم إن مخ الإنسان ينقسم إلى مراكز عقلية، لكل مركز منها عمل خاص، فهذا للتذكر، وهذا للحساب، وهذا للاستنباط، وهكذا، ولست أدري لماذا لا يفكرون حين يصيب المرض مركزًا من هذه المراكز في أن يكووه ليطهروه وينقذوه، وليس ضروريًا في أن يكون الكي بالنار، فعندهم من وسائل الكي ما هو أشفق من النار وأرحم، وإن كانت النار أبلغ منه وأفعل، ثم مالنا نفرض أن كل مراكز العقل مجتمعة في المخ، ولماذا لا يكون بعضها في أعصاب أخرى غير المخ تلتف فيها الروح بالجسم أو تلامسها كما يلامس محيط هذه الدائرة زوايا هذا المثلث في هذه النقط الثلاث.. فإذا جاز أن يكون هذا، فلماذا لا يكون في القلب مركز الحب وهاهو ذا أخوك يقول لك إن قلبه يوجعه وجعًا ماديًا حقًا... انخسيه بمسمار، أو إذا شئت أن تترأفي به فأحمي له (دبوسًا)...

- يا شيطان أخاف عليه أن يموت...

- لن يموت، فعمر الشقي بقي، وإنما سيحدث بإذن الله أن يخرج أذى الحب من ثقب المسمار أو الدبوس، آهات، وشعرًا، أو غناء ندبًا وبكاء، ثم ينتهي الأمر ويبرأ أخوك من الحب، ولي بعد ذلك الحلاوة...

- هي هذه الحلاوة التي راح عقلك فيها...

(هاللويا) كما قال داود!

روح قوية جارفة، وجسم قوي حديد، الروح نزاعة إلى لذتها وسعادتها في أعلى عليين، والجسم نزاع إلى راحته ومتعته في أسفل سافلين، وصاحبهما بهما مسكين، يرتفع وينخفض، و(ينشال) وينحط، ولا يملك أن يستقر، لا في الأرض ولا في السماء، فهو في تخبط دائم ما بين مسمى روحه وما بين مهبط بدنه كأنه مجنون، أو هو مجنون، والفنون جنون...

مني على الدنيا السلام

آخر ما غنى في حياته دور (أنا هويت)، وآخر بيت في هذا الدور هو:

ما دمت أنا بهجره ارتضيت... مني على الدنيا السلام

وراج دور الوداع هذا في الناس، وسمعه أولئك الذين كان يحبهم سيد درويش، ومن بينهم تلك التي ظل يغني لها طول حياته على البعد منها وعلى القرب، فلم يشعر الناس ولم تشعر هي بشيء وراء هذا الكلام، لأنه لم يكن أحد يتوقع الموت السريع لهذا المغني الشاب المملوء صحة والمملوء حياة...

إلا هو... فقد كان يتوقع الموت وينتظره ويهيئ له نفسه... دعا صديقه الأستاذ بديع خيري إلى بيته بعد هذا الدور وقبل وفاته بأيام، وجلس معه في حجرة علقت على أحد جدرانها صورة من صوره، وفيما هما يتحادثان سقطت الصورة المعلقة، فالتفت إليها سيد، ثم التفت إلى صديقه بديع وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال له صديقه بديع: إن

هذا حق، ولكن ما الذي أجري بهذا الحق لسانك، فقال له سيد: ليس لسقوط هذه الصورة معنى إلا أني سأموت. فقال له بديع: إنك مجنون، وكان بديع يقصد بقوله هذا أن ما جال في ذهن سيد ليس إلا وهمًا خيله له الجنون، بينما الحق أن الذي جال في ذهن سيد ليس إلا علمًا يكشفه الجنون.

آمن سيد بأنه ذاهب، إيمان الجنون، فخف من القاهرة إلى الإسكندرية ليودع ليلاه، وإن كان قد أعلن لنفسه وللناس عزمه على السفر إلى إيطاليا، فهو لم يكن يعرف عن نفسه أنه يعلم الغيب وما كان أحد يعلم الغيب، وإنما هو اضطراب يتلاطم فيه إحساسه بتفكيره، فهو يقول القول أو يعمل العمل منطلقاً وراء شعور كامن في نفسه قد يميزه وقد لا يميزه، فإذا ميزه اطمأن عقله إلى تبريره، وإلا اضطر عقله إلى السعي وراء تبرير ما يطمئن إن حقًا وإن زورًا...

بينه وبينها

سيموت وسيسافر إلى إيطاليا...

زارها، أو استدعاها، أو التقى بها

- بأي شيء جئت لنا من القاهرة؟ مانجة؟

- لا... بل (بأنا هويت)

- سمعته

- وما رأيك؟

- (أنا عشقت) أحسن

- أحسن أو غير أحسن... إني انتهيت

- وكيف؟

- سأموت... قريبًا جدًا. وبعدها ستدركين أنك قد خسرت شيئًا كان يجب عليك أن تكرميه عندما كان بين يديك... أعوذ بالله منك... كل الناس يهتزون ويرتجون لهذه الأغاني التي أذيعها فيهم إلا إياك... جامدة كأنك الحجرة، ومع أني أعلم أنك حجرة فإني لا أغني إلا لك أنت وحدك. حقًا هو قضاء الله وقدره، وليس لقضاء الله وقدره رد ولا دافع.

- الكوكايين أفقدك عقلك...

- الكوكايين هجرته...

- ولكن بعد أن قضى عليك...

لم يقض عليّ أحد غيرك... إن مت فدمي في يديك، وإنه يتساقط من بين شفتيك... لقد.

شربت منه حتى ارتويت وحتى جفت الحياة فيّ...

- مجنون

- ولم أجن إلا بك... لو أنك أعطيتني من روحك مثل الذي أخذت من روحي لكنت عشت غير ما عشت، ولكنت غنيت غير ما غنيت... ولكن الحمد لله... فما في روحك خير، وما كانت مثلك لتلهمني شيئًا...

- ولكني ألهمتك

- كلا... وإنما ألهمني البعد عنك، والحرمان منك... قد كنت أستطيع أن أستبدل بك صنمًا، قد كنت أستطيع أن أعشق عوضًا عنك سلحفاة أو ثعبانًا...

- هل تقول (ثعبانًا) يا سيد... إنني لم أضرك مع أني كنت أستطيع أن أضرك، وأنت تعرف أني أستطيع أن أضرك يا سيد... فهل هذا جزاء الرحمة مني.

- إنك لم تكوني تستطيعين لي ضرًا، كما أنك لم تكوني تستطيعين لي نفعًا، وربما كنت تستطيعين لي ضرًا لو أنك كنت رأيت غيري أحبك... ولكن أحدًا غيري لم يحبك... وإن كان أحد غيري قد أحبك فكما تعرفين الحب عند الناس... كلام يقولونه هو التغرير والغش... هو الخداع يرمون من ورائه إلى اللهو بك والعبث بجسدك... أنت تعرفين هذا، وأنت تعرفين أني وحدي الذي تحدى شرك بخيره، وكذبك بصدقه، وخيانتك بوفائه، ودعارتك بطهره: إن حبي لك كان تكفيرًا عما أسأت إلى أهلي ونفسي. سأقف به أمام الله وأقول له يا رب يا من أودعت هذه الأفعى من فنك سحرًا غلفته بالموت والسم... أنا وحدي من خلقك الذي رأى هذا الحسن وتغنى به... فاغفر لي يا رب كل ما ارتكبت من سوء وشر فما هما إلا آثار السم في نفسي.

- يا سيد... يا سيد... ليست هذه المسرحيات بجائزة عليَّ أنا جازت على الناس طرًا...

لست (أتمسرح) عليك، وإنما هذه هي روحي... هذه هي نفسي... ولو لم أكن هكذا طلقًا حيًا فيضًا لما استطعت أن أجرف من جرفت من أهل الفن العتاة على رسوخ أقدامهم في الميدان الذي جندلتهم فيه، وعلى ثبوت أشباحهم في الحلبة التي صرعتهم فيها... خبريني... من منهم استطاع أن يتماسك أمامي... من منهم قاومني ولم يفر من طريقي... من منهم ارتفع له صوت منذ ارتفع بالغناء صوتي... كلهم ذابوا... لأنهم هم الذين كانوا يمثلون ويتكلفون ويتصنعون، أما أنا فإن غنيت فإنما أغني من قلبي، وإن تحدثت فإنما أتحدث بروحي... أنا الأصل الذي يمثله

أولئك وغيرهم... وأنت تقولين عني إني أمثل... أنا يا هذه سابق جيلي... أنا يا هذه ستقدرينني بعد موتي... وإني لأشعر بأن الغيب يضمر كاتبًا صغيرًا سيطرق هذا الدرب الذي طرقته، وسيذوق هذا المر الذي ذقته، وأنه سينصفني منك... أنصفه اللّه من ثعبانه هو أيضًا...

- هو؟ من هو؟

- لا أدري!

- مجنون! ... هل لك في كأس؟!

- هات كأسًا وكأسًا وهات العود... وهات شمة إذا كان عندك...

- أما قلت إنك هجرته...

- والآن بفضل عطفك وحنانك رددته...

... وجاءت له بالعود، وبالخمر، وبالكوكايين... ودعت له أتباعه وأصدقاءه... وجلست إليه وراح هو يغني...

وظل يغني... ويغني... وليلتها مات!

هاللويا

فأي شيء غنى ليلتئذ...

غنى (أنا هويت) ...

ولكن كيف غناها؟ ...

غناها كما كان داود يرتل مزاميره... كانت روحه تتقلص من بدنه في كل شهقة وفي كل زفرة... كان ينتفض فزعًا من دنياه إلى بارئه شكاية، وتسبيحًا...

كانت نفسه تصغي إلى النداء الآتي من الغيب في خفوت لا تسمعه الأذن وإن استجابت له الروح...

كان يقول لربه: لبيك لبيك يا رب... قالها معنى وإحساسًا ونغمًا وإن لم يفصلها لسانه لفظًا وحرفًا...

لقد بكته

وبعد أن رحل سيد أدركت الظالمة أنها كانت ظالمة، وأخذت تراجع نفسها وتسائلها: لماذا ظلمته؟ ولماذا حرمته مما كان يطلبه منها على أنها كانت تعطي غيره ممن هم دونه حلاوة وبهاء وروعة ما كان يسعده بعضه لو أنها أعطته بعضه...

وأخيرًا أدركت السر.

عرفت أنها كانت تغار منه.

قد كانت هي غانية، وقد احترفت العبث بالنفوس وأتقنت هذا العبث، وقد استهوته أول ما استهوته بدمعة ذرفتها من عينها عمدًا، وشكوى مدبرة باحت له بها قصدًا، لما رأته يتردد على مجلسها مغنيًا تتعالى روحه عليها، فما ينظر إليها نظرة الإعجاب المغرضة المتعجلة التي كان يوجهها إليها الناس جميعًا، وإنما كان يراها كما يرى الإنسان الإنسان، ويفتح لها نفسه كما يفتح الصديق نفسه لصديقه... وقد رأت في نفسه صورة قديمة لغرام قديم علمت أنه الذي يشغله عنها... ورأت هذه الصورة القديمة أحاطها بإطار من الإخلاص والإجلال اشتهت لنفسها مثلهما...

فزحفت إليه... ولكنها فشلت معه في كل محاولة حاولتها... وأخيرًا صرعت هذا الجبار بالدمع... والدمع آخر سلاح تلجأ إليه المرأة، وهي إن لجأت إليه لم تنس فيه مرارة الذل الذي دفعها إلى حمله... فإن

أفلحت به في اقتناص فريستها، فالويل بعدئذ لهذه الفريسة فلن ترضى المرأة منها إلا بدمع ودمع ودمع ودمع... ولن تعطي هي بهذا الدمع شيئًا لأنها تذكر دائمًا أنها سبقت وسفكت قبله دمعًا...

هو ثأر!

والجبار يحتمله لأنه يذكر دائمًا أن الذي صاده ذل، وكل جبار شديد العطف على كل ملوع بائس...

استدرجته إذن بهذا... ثم راحت تجمع الناس عليه، فإذا بالناس ينفضون عنها إليه، مع ما كانت تتفنن في لفت الأنظار أو الأسماع إليها في حضور سيد، فإن الأنظار والأسماع والأفئدة كانت تنفر منها إليه فقد وجدت فيه غذاء للأرواح ومتعة...

وهكذا أصبح الثأر ثأرين...

وبعد موته... نسبت هي هذين الثأرين، وحز الأسى في نفسها حزًا إذ فقدت الذي آمنت أخيرًا بأنه كان خيرًا منها ألف مرة وأنه مع هذا كان يحبها كما قال قضاء وقدرًا...

لـ الفاتحة

(بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم. ولا الضالين. آمين...).

... آية من فن الله الأسمى. هي خير ما يهدي إلى روح الملهم الذي غنى، فأطرب وأشجى، وأضحك وأبكى، وسبح بالهدى فنًا، نغمًا ولحنًا، ما أجهده الفن وما أضنى، وإنما كان وحيًا يوحى. تبارك الذي أوحى.

الفن والاطمئنان

منذ سنة شاهدت السيدة ميمي شكيب في رواية الدلوعة، فأعجبت بها إعجابًا خفيفًا، لأني لم أجدها أكثر من ممثلة درست دورها على يد أستاذها الريحاني، واتبعت إرشاداته وتعليماته بأمانة وتدقيق.

ومنذ أسبوع شاهدت السيدة ميمي شكيب في رواية الدلوعة أيضًا، فإذا بي أراها شيئًا جديدًا، وإذا بشبح الريحاني الذي كان يصاحبها في السنة الماضية ويقودها على خشبه المسرح خطوة خطوة، ويلون صوتها في إلقائها نبرة نبرة، قد اختفى تمامًا. وإذا بالسيدة ميمي شكيب ممثلة أستاذة تعربد على المسرح عربدة حية توحي بها إليها خواطره هي، وتتبع فيها اختيارها هي، ولا تقيد فيها بإرشادات موجهة إليها، ولا تعليمات مدروسة...

فما الذي حدث للسيدة ميمي شكيب، حتى استطاعت أن تقفز هذه القفزة، وأن تخرج في عام واحد من صفوف التلميذات النجيات إلى صفوف الأستاذات المجيدات؟

لابد أن يكون شيء ما قد حدث لها، ولا يمكن أن يكون هذا الشيء اجتهادًا في دراسة المسرح، أو اهتمامًا بالفن زاد عندها عن ذي قبل. فليس شيء من هذا بقادر على أن يخلق على أن يخلق الإنسان خلقًا جديدًا، وإن كان قادرًا على أن يصقله شيئًا ما، وأن يهذبه شيئًا ما، وأن يرفعه شيئًا ما...

فما الذي حدث للسيدة ميمي شكيب إذن؟

الذي حدث هو أنها تزوجت!

ولكن ما للزواج والفن؟ وكيف يمكن أن يكون الزواج سببًا في النهوض بفنانة نهضة تلفت الناقد هذه اللفتة المحيرة؟ وإذا كان الزواج هو السبب في هذه القفزة التي قفزتها السيدة ميمي شكيب، فإن أستاذها الريحاني نفسه ليس متزوجًا ومع هذا، فهو أستاذها، وهو الفنان الذي لا يشق له غبار...

الواقع أن الزواج يبعث في النفس اطمئنانًا وارتياحًا وهو يبعثهما في نفس المرأة أكثر مما يبعثهما في نفس الرجل، وكل فنان محتاج إلى الاطمئنان والارتياح كي يتفرغ لفنه ويجيد فيه، وإذا عدم الفنان الاطمئنان والراحة فهو مهدد دائما بأن ينعكس على فنه ذلك يتردد في نفسه، وهومهدد كذلك بأن يصطبغ فنه بلون معتم مظلم أسود هو لون اليأس والشقاء اللذين يعانيهما من قلقة. وكثيرا ما كان هذا القلق سببا في اندحار الفنانين وذبولهم، وكثيرا ما كان سببا في الانزلاق بهم إلى مهاوي الخبل يطلبون الاطمئنان عبثا في الخمر، والمخدرات، والمواخير.

والخمر والمخدرات والمواخير، لاشك في أنها تبعث اطمئنانًا عارضًا وارتياحًا وقتيًا في نفس الفنان، ولكن آثارها عندما تزول ان يصبح الفنان فإذا به يرى نفسه فارغة كما كانت قبل السكرة، وإذا به يرى نفسه وحيدًا هائمًا على وجهه لا يدري له مستقرًا، ولا يعلم له هدفًا، فيعود إلى ما كان فيه، ويطلب السم الذي يطمئنه ويقتله في الوقت نفسه، ولا يطول به الزمن حتى تتلف صحته، وتتحطم أعصابه، ويخمد عقله، ويتبلط إحساسه، ويخبو من نفسه ذلك النور الذي يهديه ويلهمه، فيصبح في آخر الأمر إنسانًا مسكينًا لا حياة له إلا الأوهام، فهو يحسب نفسه قادرًا على الإنتاج لأنه يلمح أطيافًا من الفكر تجول

في رأسه، ولكنه إذا أراد أن يحصرها، وأن يجندها وأن ينظمها، وأن يطلقها، إلى الدنيا فنًا رآها تشق عصا الطاعة عليه، وتستعصي، وتلفت منه وتذوب في رأسه كأنها لم تكن... وإذا ابتلى فنان بحال كهذه فمآله الانهيار من غير شك فإما أن يموت كما مات سيد درويش وإما أن ينتحر كما انتحر إيفان مسجوكين، وإما أن ينطلق في الدنيا مشردًا مسكينًا إن عطف عليه الناس اليوم فسينبذونه غدًا والفنانون في الدنيا بأسرها ليسو غائبين عن هذه الحقيقة، كما أنه ليس في الدنيا إنسان غائبًا عنها، فلماذا يعرض كثيرون من الفنانين والفنانات عن الزواج، ولماذا يجرؤ بعضهم على أن يدعو غيره إلى الإعراض عنه حتى أصبح هناك مذهب فاسد عشش في رؤوسهم أو في رؤوس بعضهم، واجتذب له أنصارًا يقولون بأن الزواج يعرقل الفن...

هناك سبب خفي لهذا وهو أن في الفنانين كثيرًا من طبائع النساء، فهم أشد إحساسًا من غيرهم من الرجال، ومن شدة إحساسهم هم أشد غيرة من غيرهم، ومن شدة إحساسهم هم أقل حكمة من غيرهم. ولهذا كان مما يشبه الأمر العسير أن يجمع الرجل بين الفن والمرأة، لأنه من العسير أو من المستحيل أن تجمع بين المرأة والمرأة.

وقد نتج من هذا أن كثيرين من الفنانين شذوا عن الحياة الطبيعية، وأصبحوا يطلبون الاطمئنان والارتياح في المغالطات والأوهام. وقد كانت هذه المغالطات وهذه الأوهام مواد لذيذة لكثير من الفنون استمتع بها الناس، ولكنهم كانوا وهم يستمتعون بها يشفقون على أصحابها ويقولون دائمًا: يا لهؤلاء من أشقياء مساكين محرومين...

والعجب أن هذا لم يكن في يوم من الأيام محرضًا على نبذ هذه المغالطات وهذه الأوهام، وإنما كان دائمًا محرضًا على الإقبال عليها، فكلما نشأ فنان صغير وأحس في نفسه شيئًا من الضعف حيال الحياة

الطبيعية، وأدرك أن ضعفه هذا راجع إلى قوة إحساسه وحدة نفسه، لم يسرع إلى تنمية عقله التنمية التي توازنه، ولم يسرع إلى توطيد أخلاقه التوطيد الذي يحميه من الوقوع في اضطراب الشذوذ، وإنما طلبته صور هذا الشذوذ، وحسبها نوعًا من الحياة يمكن أن يعيش إلى جانب الحياة الطبيعية التي لا سبيل إلى الخلود إلا بها...

وهكذا ضعف كثيرون من الفنانين، وهكذا انهاروا، وهكذا أعقبوا فنونًا لا أنكر أنها لذيذة وإن كنت أسخط عليها وأمقتها مقتًا جد على نفسي ووجدته حقا.

وإلى هؤلاء الفنانين أريد أن أوجه الحديث اليوم فليتصوروا سلمًا يصل ما بين الأرض والسماء، وأن الناس جميعًا مطالبون بأن يصعدوا هذا السلم، وليقولوا لي أي الناس أضمن وصولًا إلى قمة هذا السلم!

الإنسان الذي يقبض عليه برجليه ويديه وأسنانه ويصعد درجة درجة فما تفلت منه درجة، أم الإنسان الذي يقفز عليه برجليه فقط بينما يداه يلوح بهما في الهواء، وبينما يزعق بحنجرته مغنيًا أو نادبًا أو مهللًا؟ ...

لا شك في أن الأول أضمن وصولًا من الثاني، كما أنه لا شك في أن الثاني كلما قطع مع الأول مرحلة كان ذلك دليلًا على أنه أبرع منه وأقدر...

فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يكون هذا الثاني البارع القادر إذا استغل قواه جميعًا، واستخدم جوارحه جميعًا كما يفعل الأول؟ ...

لابد أنه يسبقه بمراحل، ولابد أنه يشعر بعد ذلك بدافع من نفسه يدفعه إلى مساعدة غيره والأخذ بأيديهم...

وهذا هو ما يفعله الأنبياء وأصحاب الرسالات، فهم ليسوا إلا بشرًا وهم أشبه الناس بالفنانين، ولكنهم يزيدون على الفنانين قوة العقل وقوة الخلق إلى جانب قوة الإحساس، ولذلك فإنهم ساروا دائمًا نحو المثل الأعلى في خطي ثابتة ومن غير قلق، ومن غير يأس، ومن غير شذوذ ولا خروج على قواعد الطبيعة وسننها.

ولعل أقوى حجة من حجج أولئك الأنانيين الذين يمقتون الزواج هو قولهم إن مسئوليات الزواج تثقل على كاهل الفنان وتحرمه من الفن وتحرم الفن منه. وهذا قول سخيف، لأن الحياة من غير زواج ليست إلا (رهبنة) أو قرصنة، و(الرهبنة) شيء ليس من اليسير على الإنسان أن يحققه، ولو حققه الناس جميعًا لتعطلت الحياة التي أرادها الله، والقرصنة شيء قد يكون من اليسير على كل إنسان أن يحققه، ولكنه لو حققه كل إنسان لفسدت الحياة واضمحلت وتخاذلت ودبت إليها الأمراض البدنية والنفسية، ثم يعالجها بعد ذلك الموت السريع. ثم إن حياة الأسرة نفسها فيها تلخيص لقصة الخلق لا يمكن أن يتذوقه إلا من يباشرها؛ والعجيب أنه لا يمكن أن يتذوقها إنسان مثلما يستطيع الفنان الحساس العاقل القويم الخلق أن يتذوقها، فهي تجعل منه ربًا صغيرًا لجماعة من الناس الأحياء، وتمكنه من أن يرزق، ومن أن يعلم، ومن يصلح، ومن أن يوجه، ومن أن يعطي، ومن أن يجازى، ومن أن يحاسب، ومن أن يرحم، ومن أن يشفق، ومن أن يغفر، ومن أن يضمن الذكر لنفسه بعد موته، فيكون هو الوصلة بين الماضي والمستقبل، ومن أن يطلب حقه بلا تفريط ولا تهاون، ومن أن يعز ويعتز، ومن أن ينصر وينتصر، ومن أن يقول لشيء كن فيكون...

وهذا هو ما يريده الله لنا، وما يريده منا، ففي هذه الحياة من المعاني ما لو أنتبه الفنان وأستغله لأخرج منها صورًا وسلاسل لا نهاية من

الفن الذاخر بالعواطف والفكر والمثل الخلقية العليا التي تفيض بها أنفس الآباء العاديين ويعجزون عن تسجيلها.

وقد يعترض علي معترض من غير المجربين ويقول لي: ما لنا نرى كثيرين من أفذاذ الفنانين الذين مجدتهم أنت نفسك واقعين في ذلك الشذوذ الذي تعيبه وهاربين من الزواج مع أنهم لا تعوزهم الحكمة ولا العقل ومع أن أفعالهم تشهد لهم بأن من الأخلاق الفاضلة ما ليس لغيرهم، فهم محسنون غير أنانيين، وهم يربون أولاد غيرهم بأموالهم ويصنعون ويصنعون...

ولهؤلاء أقول... إن غلطة واحدة يرتكبها الإنسان في صغره مختارًا أو مجبرًا قد تظل آثارها عالقة بأعصابه وحياته إلى أن يموت. فإذا لم يلفت الإنسان إليها التفاتًا خاصًا، ويقاومها مقاومة خاصة فإنه يظل منساقًا وراء نتائجها ويظل يعاني الأمرين من آثارها، وقد يخيل إليه في ظروف من الظروف أنه مستطيع الانخراط في طريق الحياة الطبيعية العادية إذا ما اعتزامها واصطنعها، فيعتزمها ويصطنعها ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه بعد حين عاجزًا عن المضي فيها... كما حدث ذلك للفنان الكبير شارلي شابلن فإنه تزوج أكثر من مرة واحدة، وأنجب من زوجه الأول ولدًا هو الآن شاب كبير. ومع هذا فإن شارلي لا يزال يتخبط في حياته وإن كان له عذره في تخبطه، وإن كان فنه السامي مما يشفع له، فنحن إذا طالبناه بإصلاح نفسه الآن بعد فوات الأوان فإن ذلك قد يستنفد منه بقية حياته، وإن أنانيتنا نحن لتمنعنا من أن نسدي إليه هذه النصيحة، فخيرنا في أن نستمتع بفنه، ولو كان في ذلك هلاك روحه...

إذن فمن الذي يستطيع أن يضع حدًا لهذا الاضطراب...

هم الآباء، والمربون، والأمهات قبل هؤلاء وهؤلاء... فعلى أولئك تقع التبعة الأولى في المحافظة على تعادل أبنائهم النفساني. وإني لا أشك

في أن حضارة القرن العشرين قد بدأت تحس بأنها في حاجة إلى تبديل وتغيير، وعلى الخصوص بعد أن انهارت فرنسا هذا الانهيار السريع الذي لم يكن المعجبون بها يتوقعونه لها؛ وإني لا أشك كذلك في أن أصحاب الرأي والفكر يتربصون اليوم للحرب القائمة يريدون أن تضع أوزارها ليستطيعوا بعد ذلك أن يقولوا كلامًا صريحاً مفهومًا تلخيصه: أن عودوا أيها إلى حياة الطبيعة فلا مفر منها، ولا مهرب من الشر إلا بها، وهي سنة الله.

الوصول

كن في مجتمع وانظر إلى الناس من حولك وتفرس فيهم، فإنك تستطيع بعد شيء من التدرب والتعلم أن تحدد، ولو بالتقريب، شخصيات الكثيرين منهم، فتقول إن هذا الأول شخص جاد مستقيم في عمله في لهوه، فهو يعمل ليعيش، ويلهو ليعمل، كأنما هو آلة حكم عليها أن تدور دورتين دورة ذات اليمين ودورة ذات الشمال. فإذا تركته ونظرت إلى الثاني قلت إن هذا الثاني شخص حائر لا يعرف لماذا نوجد في هذه الحياة ولا يعرف أي أعباء الحياة يحمل ولا أيها يدع، فهو يرمق كل شيء باهتمام، ولا تعدو رمقته إلى الأشياء هذا الاهتمام، ولا تجوزه إلى الاختبار والمعرفة ثم الاستغلال. فإذا تركته ونظرت إلى الثالث قلت إن هذا الثالث مغالط اختلس في الدنيا ما كان غيره أحق به منه، وهو يعرف أنه مختلس، ويعرف أن المختلس مهدد بالانفضاح، ولذلك فإنه يعمد إلى تغطية مغالطته الأصلية المجرمة بمغالطات أخرى فرعية هي أيضًا مجرمة. فإذا تركته ونظرت إلى الرابع قلت إن هذا الرابع ضعيف هزيل ولكنه راغب في الحياة، وفي لون مريح من ألوان الحياة يرضاه، فهو يتوسل إليه بإهدار كل مواهبه وكل قواه لا يعبأ بأن يكون موضع النقد، ولا بأن يكون موضع السخرية، ولا بأن يكون موضع التحقير ما دام يصل إلى الذي يريد من الراحة الرخيصة التي استهوته والتي طمع فيها على غير جدارة منه لها... فإذا تركته ونظرت إلى الخامس قلت إن هذا الخامس حقود، فإذا تركته ونظرت إلى السادس قلت إن هذا السادس بخيل، فإذا تركته ونظرت إلى السابع قلت إن هذا السابع بحاثة، فإذا تركته ونظرت إلى الثامن قلت إن هذا الثامن فنان... وهكذا...

بل أن من الناس من تستطيع بالنظرة الأولى إليه أن تعرف الحرفة التي يحترفها، فهذا تعرفه معلمًا من عنايته بالنظافة والنظام، ومن حركاته الميكانيكية التي اصطنعها لتكون نموذجًا للتلاميذ يتحركون على نمطها، ولتكون في الوقت نفسه ستارًا بينه وبين التلاميذ فلا يكشفون مع وجودها حركات نفسه الطبيعية التي فطره عليها الله، وأنت تعرفه كذلك من صوته وإشارته وحديثه الذي يتكلف به التفهم بحسب أصول البيداجوجيا... وذاك تعرفه محاميًا من لباقته ورشاقة ضميره التي تبدو في اتساع آفاق أحاديثه، تلك الأحاديث التي يحرص المحامي البارع كل الحرص على أن تكون كلامًا لا معنى له حتى إذا اختلف مع موكله بعد الحكم الابتدائي استطاع أن يتفق مع خصم موكله ليترافع عنه لدى محكمة الاستئناف... وذلك تعرفه سمسارًا من سهولة دخوله على الناس وسهولة خروجه من الناس، فهو يحدث من يشاء بما يشاء إلى أن يشاء قطع الحديث ليحدث آخر بما يشاء أيضًا حتى يرى أن يصل الاثنين وأن ينسحب هو ليصل غيرهما بالحلال أو الحرام... وأخر تعرفه عسكريًا من سماحة عقله وسماحة نفسه فهو لا يطمع من الدنيا في شيء أكثر من الذي يطمع الإنسان فيه إذا كان في (استراحة) إحدى المحطات: لقمة سائغة، وشربة هنية، بعدهما جرس القيام... ثم الصحافي تعرفه صحافيًا بقدرته العجيبة على دس نفسه فيما يعرف وفيما لا يعرف، وبقدرته الأخرى على الاستخفاف بحكم الناس عليه؛ فهو يقبل عليهم في النكبة لا ليشاركهم الأسى ولا ليواسيهم ولا ليخفف عنهم وإنما ليراهم كيف يبكون، وكيف يذرفون الدمع، وليته مع ذلك يحاول أن يعرف هذا البكاء وهذا الدمع هل هما صادقان أو هما كاذبان وإنما الذي يعنيه هو تسجيل الوقت الذي بدأ فيه البكاء والوقت الذي انتهى فيه، وتقدير الدمع الذي كأنما ناس يريدون أن يشربوه أو أن يعوموا فيه... وهكذا هذا شيء

يحدث... وأنت تستطيع - كغيرك - أن تميز الناس بالنظرة الأولى أو بالنظرة الثانية، فما الذي يحدث للناس حتى يتشكلوا هذا التشكل الذي يحددهم ويحصر شخصياتهم؟ وهل تحدد الشخصية وانحصارها مما يدل على قوتها، أو مما يدل على ضعفها؟

أما الذي يحدث للناس، فيكون من أثره أن تتشكل شخصياتهم وأت تتحدد وأن تنحصر وأن تتميز، فهو أن الواحد منهم يقع تحت تأثير عاطفة من العواطف أو حرفة من الحرف، ويتركها تعمل في نفسه. والنفس كما نعلم تعمل في البدن، ولكل عاطفة لون من العمل تنصبغ به النفس ويتشكل به البدن. ومهما كان الخير في العاطفة الواحدة أو في الحرفة الواحدة، فإن تغلبها على الإنسان فيه اختلال لتوازنه النفسي وفيه تشويه لشكل بدنه، فالله لم يخلق بعاطفة إنسانًا واحدة طاغية عليه، كما أنه لم يخلق إنسانًا محترفًا حرفة واحدة تؤثر فيه هذا الأثر الشنيع.

وإنما الناس الذين خلقهم الله أطفال، أصفياء، عواطفهم موجودة لا حصر لها: فالسعيد منهم هو ذلك الذي إذا نما العقل فيه تمكن به من حفظ التوازن بين هذه العواطف الموجودة الكثيرة فلم يسمح لإحداها بأن تغلبه على أمره... فإذا استطاع هذا، فهو ينمو ويكبر ولا يزال وجهه كوجوه الأطفال، ولا تزال شخصيته كشخصيات الأطفال، فيها هذا الشيوع السمح الذي لا يستطيع الناظر إليه أو المحقق فيه أن يميزهم به فيقول: إن هذا الإنسان حقود، أو أنه غيور، أو أنه طماع، أو أنه محام أو أنه معلم، أو أنه مهندس، أو أنه شيء ما... وإنما يقول هذا إنسان، فإذا أراد أن يعرف أي إنسان هو كان عليه أن يعاشره وأن يختبره، فعندئذ تتبين له مواهبه واتجاهاته العقلية والنفسية. ولا بد في هذه الحال أن تنكشف له ميزات عجيبة، لأن الإنسان الذي يستطيع

-وعلى الخصوص في هذا العصر -أن ينجو بنفسه من الخضوع لإحدى العواطف أو لمجموعة خاصة منها، وأن ينجو من آثار الحرفة والمهنة، لهو إنسان قوي النفس استطاع أن يصل أو أن يعود إلى الأصل الطبيعي لنفسه، وهو الأصل الذي فطره الله عليه، وهو أصل خصب صاف غني فيه كل العواطف، وكل المواهب، وكل القوى الخلقية، وإن تفاوتت مقاديرها عند الناس.

ومن الفنانين الذين استطاعوا أن يصلوا إلى هذا الصفاء: شارلس لاتون، فأنت تنظر إلى وجهه فترى وجه طفل لا يستطيع اللحم المتراكم فيه أن يحجب صفاءه ولا نقاءه.

ونجيب الريحاني يقترب اليوم من الستين، ومع هذا فمهما تفرست في وجهه فإنك لا تستطيع -والصلاة على النبي -أن ترى فيه تجعيدة أو خطاً يستر عاطفة حادة أو يشير إلى أن هذا الرجل قد قهره الزمن على أن ينصبَّ في قالب ما. ولذلك فإنه قدير على أن يمثل كل شخصية من الناس، وعلى أن يعلم الممثلين كيف يمثلون ما اختلف من الشخصيات.

والأستاذ أحمد أمين -على ما أنا متحامل عليه -تراه فلا تعرف أهذا الرجل أديب، أم هو عالم، أم هو تاجر، أم هو من ذوي الأملاك، أم هو ممن يرزقهم الله يومًا بعد يوم... ولست أدري أأتاه ذلك لأنه من أولئك الذين تحدثنا عنهم، أم لأنه مجموعة من الرجال:

فمنهم الأديب والعالم والتاجر وذو الأملاك، والذي يرزقه الله يومًا بعد يوم، وقد تعادل فيه هؤلاء جميعًا فلم يقو واحد منهم على أن يختص بالظهور فيه.

ويشبهه في ذلك الأستاذ الزيات... بل إنه يزيد عنه غموضًا في صوته، فهو لا يزال إلى اليوم يشبه أصوات الأطفال...

أما الرجل الجبار في هذا الوصول فهو الاقتصادي الفنان الكبير طلعت حرب... فهذا الرجل إذا لم تكن تعرفه ورأيته وأقسم لك جمهور من الناس بأنه طلعت حرب لما صدقت، فهو لا يبدو عليه أنه باشا، ولا أنه اقتصادي، ولا أنه صاحب مشروعات، ولا أنه صاحب جهاد، وإنما هو رجل منكسر ينثني رأسه وهو جالس إلى صدره ذلًا واستغفارًا، وتتطلع عيناه إلى السماء رجاء واستعطافًا، ويتهادى صوته في حديثه كأنما يخشى التعثر أو الخطأ، مع أنه اليوم في السبعين أو نحوها، ومع أنه الرجل الأول في مصر.

السنون مرت به ولكنها لم تفعل به شيئًا، والصعاب صدمته ولكنها لم تحفز في نفسه مجرى، وإنما كان يقبل في السنين الماضيات جميعًا على اليوم بعد اليوم، أو على الساعة بعد الساعة يبحث عن موضع الحق أين هو فيلصق به، والصعاب كانت تصدمه فكان يردها بدرع الحق أيضًا فلم تكن لتؤثر فيه، ولذلك استطاع أن يبقى إلى اليوم كأنه طفل كبر جسمه ولكن نفسه ما تزال صافية مرتاحة.

وإذا كان الوصول إلى هذا الصفاء لازمًا للناس جميعًا، لأنه أهم أسباب الراحة والاطمئنان، فهو ألزم ما يكون لأهل الفن ما دام تعبيرًا من حياة الروح عند صاحبه وعند غيره من الناس، فهذا الصفاء يمكن الفنان من الاطلاع على حقيقة نفسه كلما اعتراها طارئ من طوارئ الحياة، فيلحظ بهذا الاطلاع ما ينتاب النفس الطبيعية عند هذا الطارئ بالذات؛ فإذا ضمن صفاء نفسه واستقامتها فقد ضمن بها مقياسًا لا يخطئ يمكنه من الحكم على سائر النفوس وهي تحت تأثير الطوارئ المختلفة، فإذا لحظ بعد ذلك كيف تعبر نفسه عما تفعله بها الطوارئ، وكيف تنزع إلى الاستغراق في هذا الطارئ أو التنصل من ذاك الطارئ،

استطاعٍ بعد ذلك أن يقيس نفوس الناس على نفسه الصافية فإذا وجد اختلافاً بحث عن علته وسببه عندهم...

وهذه موضوعات للأدب، وللموسيقى، وللتمثيل، وللغناء، وللرسم، وللرقص...

إنها حياة النفس وما الفن إلا تصوير هذه الحياة، وما الوصول إلى الفن الصادق إلا من هذه الطريق...

كان اللّه في عون الفنان إذا أراد أن يكون صادقًا...

إن كنت فنانًا... فهذه نفسي!

يا رب محمد! استغفرك يا رب محمد!

أعصابي متراخية. عقبي نائم. عيناي تريدان أن تنطبقا كأنهما زهدتا النور، وما هو زهد ولكنه تسليم.

نفسي تتهرب مني، وتتحجب عني... أريد أن أعرف ماذا بها؟ أسألها فيقع السؤال فيها كما تقع الحجرة على كومة التبن المحروق، فلا صوت، ولا رد على الصوت، ولا شيء.

إذن فماذا بقي لي؟ لا شيء!

وإذن فماذا أصنع؟ ... لا شيء. والصبر طيب. والنجدة عند رب محمد...

اللهم إني قد أسأت، اللهم إني قد أسأت!

هأنذا أعترف لك وما أنت بحاجة لأن يعترف لك مذنب. ولكني أريد أن أفضح نفسي لعلك تريد بعد ذلك فتمحو بلطفك وكرمك ما سطرته على جبيني بحكمتك وخبرتك من الإثم، وآثار الإثم...

لن أعدد ما ارتكبت، فإني لا أحصيه. ولكني أقول إني ما تركت إثمًا إلا واقترفته.

ولكن كان شر آثامي أني في يوم أنكرتك. أعوذ بك من نفسي. وأعوذ بك لها.

لقد انطلقت يومها أعربد بروحي وبدني، وأقول -وبئسما كنت أقول -إن الخبطة العشواء التي أوجدت هذا الكون وإنما أوجدتني

حكمتي في الكون كما حكمت الكون فيَّ، فما دام هو يأخذ مني فلآخذ منه، وما دام يستبد بي فلأستبد به... ومن أنا...؟؟.

حقًا إني كفرت يا ربي. ولكني لا زلت أتوسل إليك حتى بكفري. فقد كنت أحبك وأنا منكرك ألست أنت صاحب هذا البحر الذي كنت أصارع الريح وأنا ساع إلى أعتابه في ليالي الشتاء العاصفة المقمرة لأجلس عنده وأنا سكران وفي يدي السيجارة كلما شهقت منها نفسًا شهقت معه من البحر أملًا، وكلما زفرت نفسًا زفرت معه إلى البحر همًا. لقد كنت أتبادل الأنفاس مع البحر، هذا الوحش المحبوس عن الأرض الراضي بالحبس.

لقد كنت أحبه. ولقد أحبني هو أيضًا فأعطاني الكثير من نفسه: جلدًا، وصبرًا، وصفاء، وغنى، وحياة، وقوة... ومسكنة مع هذا كله وذلًا.

لقد سبحتك فيه يا رب لأني كنت أراه وأبادله الحب، وكان عقلي أصغر من أن يؤمن بك غيبًا ثم ألست أنت صاحب تلك الماسة التي كانت تريق عليَّ أضواءها فأشرب منها وأشرب وأشرب وأنا لا أدري لماذا لا أرتوي على كثرة ما أنا شارب حتى علمت أن ما كنت أشربه لم يكن إلا نورًا، والإنسان لا يريه النور وحده إن لم يمزجه بشيء من الظلمة. فلما بحثت عن الظلمة انفلت النور مني، وكف يده عن أوتار قلبي.

من يومها يا رب وأنا غارق في ظلمات وظلمات ولكن بعد أن آمنت بالنور. فاللهم شعاعًا، رحمة منك وعزاء.

ثم ألست أنت صاحب حديقة النزهة... أنت صاحبها رغم أنف المجلس البلدي كنت كلما اكتأبت وثقلت علي واجبات الجبر والكيمياء، وأرهقتني حياة المدرسة الجافة التجأت إلى النزهة أفرغ

فيها ذبولي وآخذ من أزهارها وأشجارها نضرة... وبهجة... واطمئنانًا وفرحًا...

ما أكرمها الأشجار والأزهار! ما أحلاها! إنها تتضور حبًا، وتشرئب إلى عاشق يهفو إليها بنظرة... وخفقة.

وما أقسى عشاق الأشجار والأزهار... أطمعهم صمتها وسكونها واستسلامها فانهالوا عليها قطفًا... والقطف قتل... وأكرمهم يجود عليها بشعر. والشعر كلام...

إنني لم أسرف يا رب في قطف الأزهار، واسألها كنت أقنع بالذي تنفثه هي راضية من الحنين المؤمل، والشهوة المتبخرة الرطبة... وكنت أعوذ عنها إلى المدرسة وأنا كالقرنفلة الناطقة الحية: أبذر في قلوب الناس حبًا أبعثره وأبعثر وراء من تلك الزأرة التي أعطانيها حبيبي الأزرق ذو الأمواج وذو الأنفة!

ثم ألست أنت صاحب هذه السماء التي كنت أنقلب على الرمال إليها لأسرح بنفسي فيها مرتحلًا من نجم إلى نجم، ومن كوكب إلى كوكب، متباعدًا عن الأرض ما استطعت، مختارًا من أكوانك أقصاها ٍكأنما كنت أريد أن أستوعب ملكك، فما استوعبت شيئًا وما كنت إلا لأرتد حسيرًا، ولكن بعد أن تطول حيرتي فيك وفي ملكك...

سبحانك! قد خلبت لبي...

يا صاحب الصحراء تخرج فيها الحي من الميت... يا لمسحرك هذا الأقفر من مسرح!

يا صاحب الناقة الصابرة! يا صاحب النخلة المتكبرة! يا صاحب السلحفاة الصائمة الساخرة! يا صاحب الغزالة النافرة!

أليس هذا فنك! وهل عشقت سواه حين كنت أنكرك!

ما عشقت سواه وأنا منكرك! ولا عشقت سواه وأنا راج أن أعرفك! وما سوى ذلك إلا العدم، فكل موجود من أثرك وصنعك.

يا رب محمد! أستغفرك!

وأحمدك وأشكرك. فلقد ذكرتني بك حين أنسيتني نفسي، وأنا حين أذكرك أهدأ وأطمئن، لأني أعرفك الرحمن الغفار الذي ينقشع أمام رحمته وغفرانه كل ضلال وكل عطب؛ والذي إن عاقب أرسل في العقاب راحة ورضى، وقرن بالعسر يسرًا. وإن مع العسر يسرًا.

بدأت أنتعش...

زوابع من الإسكندرية تناديني. أريد أن أنطلق. أريد أن أعربد مرة أخرى؛ ولكن عربدة المؤمن المطمئن.

أريد أن أصرخ. أريد أن أبطش بهذه الظلمات التي بطشت حين أمنت إليها. أريد أن أقيم الدنيا وأقعدها. فهل أنا قادر من ذلك على شيء...

إذا أردت أنت فإني قادر، فإذا لم ترد فهاأنذا كما أردت...

قلبي ينبض بالأمل فيك، وعقلي شارد وراء هذا الأمل يريد أن يعرف ما هو، ولكنه تعب ولم يعرف ما هو... فأرشدني.

ليس أشهى لدى من أشعر بأني أرضيتك وأنك أرضيتني

وأنا طماع، دنيء النفس. قد أتخم ولكني قد أشبع.

أنت الذي خلقتني. فساعدني على نفسي. وخذ بيدي، وأنت تستطيع. ولا أحد غيرك يستطيع.

أنت تطالبني بالتوبة؛ ولكنك أرجأت التوبة في قرآنك إلى سن الأربعين. فلي الآن إن مددت في عمري عشر سنوات باقية قد أستجديك بعدها عشرًا ، وقد أستجديك بعدها عشرًا ، فما أحسب التوبة ممكنة وقتك الخلاب يدغدغ العيون، ويناوش الأسماع، وينكث القلوب...

ثم لماذا يتحتم علي أنا أن أتوب؟!

أأنا إنسان عاقل ورشيد؟! إني لا أظن ذلك. فليس عاقلًا رشيدًا هذا الذي يستمرئ أن يفضح نفسه بنفسه. ولا هو عاقل رشيد هذا الذي يطاول من هم أشد منه قوة وآثارًا في الأرض، وينوخ للضعيف الهزيل يركبه ويضرب بطنه برجليه...

أنا يا رب كما تعلم. فعافني. واسمح لي أن أقضي في ملكك هذا ما قدرت لي من البقاء وأنا تحت رعايتك وعطفك. فلست إلا طفلًا غرًا آفته دلال استحكم في نفسه من كثرة ما استقاه وعَبَّه من نفح القرنفل والياسمين.

واحمني يا رب من الشر أن يسكن نفسي. واملأ قلبي سلامًا. وانزع منه كل حقد وكل غل.

واحمني يا رب من الشر أن يقذفني به حاقد أو مغلول؛ فأنا أعجز من أن أتلقى قذائف الشر المتستر، ولدغات الحقد والغل.

يا رب محمد. أحفظ يحيى السيد فقد أقرضني اليوم عشرة قروش وإن كان لا يعرف متى سيستردها.

هو طالب في ليسانس الحقوق. فخذ بيده في امتحانه القريب... أرجوك بحق محمد.

المحتويات

الصدق في الفن	ص٥
المرأة والإبداع الفني	ص١١
الحب والمرأة والفن	ص٢٠
الفن شعور	ص٣١
متابعة العلم ليست فنًا	ص٤٢
نحو دنيا الروح	ص٥٠
الفن علامة الإنسانية	ص٥٨
الحب والفن والله	ص٦٦
الفن والحرية	ص٧٤
الفن هو الإنتاج الروحي	ص٨٢
الحرب والفن	ص٨٩
الفن بين (الآميبات) و(الاميبين)	ص٩٧
شيء ليس في الكتب...	ص١٠٧

معضلة بين الفن والقانون ص١١٥
ملامح الأرواح ص١٢٤
٣٨٨ ص١٣٢
أعوذ بالله إنه (مكياج)! ص١٤٠
بطلة شارلي ص١٤٨
هما أحدبان ص١٥٦
مدرسة الإحساس ص١٦٤
نحو التربية الفنية ص١٧٠
في معرض مختار ص١٧٧
العشرة الطبية ص١٨٤
استنجللينا! ص١٩٠
(هاللويا) كما قال داود! ص١٩٧
الفن والاطمئنان ص٢٠٤
الوصول ص٢١١
إن كنت فنانًا... فهذه نفسي! ص٢١٧